قصة التتار بين الحسرة والعبرة

(سرد تاريخي متكامل لأحداث التتار من بداية ظهورهم وإفسادهم إلى إسلامهم وانتهاء دولتهم)







تأليف
أبي حذيفة
زكريا بن حميد بن فهاد الصلاحي

قصة التتار
بين الحسرة والعبرة

اسم الكتاب: قصة التتار بين الحسرة والعبرة

المؤلف: أبي حذيفة زكريا الصلاحي.

المقاس: 17×24

الطبعة: الأولى.

1447هـ

قِصَّةُ التَّتَارِ
بَيْنَ الحَسْرَةِ وَالعِبْرَةِ

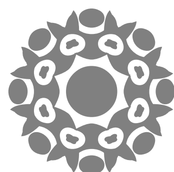


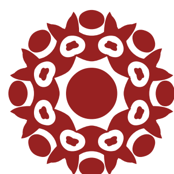
تأليف أبي حذيفة

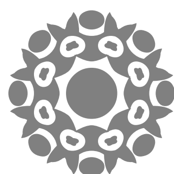
زكريا بن حميد بن فهاد الصلاحي الحبيشي

غفر الله له ولوالديه

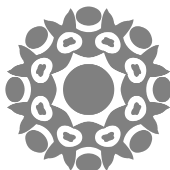
بسم الله الرحمن الرحيم

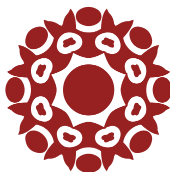


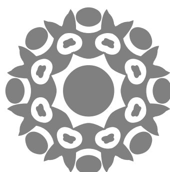




مقدمة







المقدمة

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبد ه ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨﴾ [الحشر:١٨].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾[آل عمران:١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن في حوادث الزمان، وتقلبات الأيام ألوان من الأفراح والأتراح والسلوان والأحزان، وقد جعل الله الدنيا دار ابتلاء وامتحان لا تثبت لأهلها على حال، ولا توطئ لهم كنفها على الدوام؛ بل لا تزال تتقلب بأهلها بين نعيم وبؤس، وصحة وسقم، وعافية وابتلاء، وغنى وفقر، وقوة وضعف، وعزة وذلة وذلك؛ لحكمة لله عظيمة تعجز العقول عن إدراك كنهها، وقد أخبر الله عباده بذلك فقال سبحانه: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥﴾ [البقرة:١٥٥].

وقال سبحانه: ﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣ ﴾ [العنكبوت:٣].

والتاريخ مليء بالعبر، وفي تقلبات الزمان عجائب وغرائب وآهات وحسرات، لكن مع كل التقلبات، ومع سائر الابتلاءات بحلوها ومرها تبقى حقيقة واحدة لا تتغير ولا تتبدل؛ لأَنَّها سنة الله في خلقه، فلن تجد لها تبديلًا، ولن تجد لها تحويلًا هذه الحقيقة هي أنَّ الناس كلما كانوا إلى الله أقرب، وعلى دينه أقوم، قد تمكن الإيمان من قلوبهم، وظهرت شعائر الله على جوارحهم وسائر أقوالهم وأعمالهم، فكانوا عبادًا لله حقًا: صاحبتهم العزة، وكانوا هم السادة القادة، أولو الأمر والنهي، والقوة والمهابة.

وخير شاهد على ذلك الحال التي كان عليه رسول الله وصحبه، والخلفاء الراشدين، والأئمة المهدين، والملوك الصالحين من الرفعة والعزة والقوة والتمكين حتى خضعت لهم الممالك العظام، وتزلزلت تحت أقدامهم العروش، وانهزمت أمامهم الجيوش، وطافوا ربوع الأرض وأنحاء الممالك يفتتحونها بلدة بلدة، ومملكة مملكة شرقا وغربا، وشمالًا وجنوبًا حتى ضرب الإسلام بأطنابه.

وهم في كل ذلك يزدادون لله شكرًا، ومنه قربًا، وعلى دينهم تمسكًا وقبضًا، لم تلههم زخارف الدنيا، ولا كثرة المغانم بصفرائها وبيضائها، وحسن جواريها وخمائلها، فزادهم الله تمكينًا وفتحًا وعزةً ونصرًا، فلله دَرُّهم، وعلى الله أجرهم كم من منار للدين رفعوه، وعلم للإسلام أقاموه، ثم لم يزل هذا الأمر قائمًا حتى جاء من بعدهم، فأقبلوا على الدنيا وزينتها، وأسرفوا على أنفسهم ترفًا وبذخًا، ثم تنافسًا وحسدًا، فضعف دينهم، وقل تعلقهم بربهم، فمرجت العهود، وانتشر الجحود، وتفشت البدع، واستعلن بها أهلها، وصار لهم من أهل الجاه والسلطان أنصار وأعوان، وظهر العصيان، فضعف الإيمان، ودبت البغضاء وتوغلت في القلوب الشحناء، وصار المكر دهاء، والكيد ذكاء، وانشغل أهل الإسلام ببعضهم ظلمًا وبغيًا وإخراجًا وقتلًا، وكَثُر الاختلاف والتنازع في أمر الدين والدنيا، فصارت دولة الإسلام الواحدة دولًا، وتمزقت سلطنات وممالك متناحرة متعادية، فضعف أمر أهل الإسلام، ووهنت قوتهم، وانشرخت عزتهم وصار الحال كما قال الله تعالى في سورة الأنفال: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾[الأنفال:٤٦].

فلما صار المسلمون على هذا الحال طَمِعَ فيهم عدوهم، وأجمع مكره وأعد خطته، وبدأ بتنفيذها، وصار أعداء الإسلام بمختلف أطيافهم كُلٌّ يطمع بأخذ شيء من بلاد الإسلام.

فالنصارى الفرنجة في أوروبا من جهة، ونصارى الروم في بِيزَنْطَة من جهة، ونصارى الأندلس من جهة، والرافضة الباطنية من جهة، والأعراب الجفاة من جهة لم يسلم المسلمون من شرهم، فتارة يتقطعون للحجيج، وتارة لقوافل التجارة، وتارة على بعض أطراف البلاد للسلب والنهب، والمسلمون مع كل هذا الأحداث المحيطة بهم في غيِّهم يعمهون؛ بل في سبات عميق إلا من رحم الله.

واستمر أعداء الإسلام يقتطعون من بلاد الإسلام مدنًا وقرى وحصونًا، فأخذ نصارى الفِرَنْج سواحل الشام، وأخذ نصارى الرُّوم أجزاء مما يليهم في الأناضول، وأخذ نصارى الأَسْبَان أجزاء واسعة من الأندلس، وأخذ الباطنية بلاد المغرب ومصر، وبقية العالم الإسلامي مقسم بين دول وسلطنات متناحرة، لا تكاد تمر سنة من السنين إلا ويقع بينهم من القتال؛ طمعًا في توسع بعضهم على حساب الآخر، وأعداء الإسلام يتقاسمون البلاد من أطرافها، وإلى الله المشتكى.

فاستمر الأمر على هذا الحال المؤسف المحزن حتى أقبلت المصيبة الكبرى والفاجعة العظمى التي لا يعرف لها في تاريخ البشرية مثيل ولا مقارب، فأتت على البقية الباقية من بلاد الإسلام في حوادث مفزعة، وأخبار مؤلمة تدمي القلوب، وتجرح الأفئدة بل تميتها قهرًا وذلًا، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

إنَّها فاجعة الاجتياح التتاري الهائل، والهمجية المغولية المتوحشة التي أتت على كل معالم الخير ومقومات الإنسانية، ورقي الحضارة الإسلامية، فأفسدت الحرث والنسل، وأفسدت الأديان، وأزهقت الأرواح والأبدان، وأهلكت الحرث والنسل في جميع ما دخلوه من البلدان، وكانت هذه الداهية الدهماء، والكارثة الصماء في أوائل القرن السابع للهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام.

وقد اخترت هذا الموضوع في هذا التوقيت بالذات لحاجتنا الماسة في مثل هذه الأعصار خاصة إلى دراسة تاريخنا، لا سيما والأمة الإسلامية تمر بأوقات عصيبة، وملل الكفر يمكرون بهم من كل جانب، فنأخذ من تاريخنا العبر، ونستفيد منه الدروس؛ حتى لا تتكرر النكبات بنفس الطريقة التي مضت، وكي لا نعيش الوضع الذي تجرعه من كان قبلنا، فالمؤمن الفطن لا يلدغ من جحر مرتين؛ ولكي ننظر نظرة تأمل فيما مر بالمسلمين من آلام وآهات ومصائب ونكبات في قرون مضت، حتى كان يظن الظان من أعداء الدين وضعفاء الإيمان أنَّها القاضية، ولن يقوم للإسلام وأهله قائمة، وما حصل بعد ذلك رغم عظيم المصاب من بقاء الإسلام، وحفظ الدين، ورجوع الحياة، وعودة بلاد الإسلام، ونصر الله جل وعلا لدينه وعباده حين وجد من يستحق النصر، هذا كله حتى لا ييأس المسلم من فرج الله ومن رحمته، مع ما يمر به من الآلام العظيمة والمصائب الكبيرة.

ونحن في هذه الأزمان، وفي هذه الأيام خاصة نسمع ما يحصل لإخواننا في أرض فلسطين من تسلط اليهود، وسائر ملل الكفر من النصارى، وغيرهم عليهم وما عليه المسلمون من الضعف والعجز عن نصرتهم، ونسمع ما يدور في بلدان إسلامية من التفرق والتمزق والقتل والقتال فيما بينهم، ونرى ونعاصر ونشاهد في بلادنا الحال الذي وصل إليه الناس من التفرق والتشرذم والتحزب والضعف والتنازع، حتى يكاد أن يذهب عنهم كثير من الخير، فأحببت أن نلقي نظرة حول هذا المصاب الجلل، وتلك الكارثة التي لا يُعلم في التاريخ منذ خلق الله آدم إلى يومنا هذا كارثة مثلها على الإطلاق عمت الآفاق، وعظم فيها المصاب، ومع ذلك بعد أن استمرت مدة معلومة لحكمة أرادها الله جل وعلا عادت العافية واستمر الخير، وذهب الشر وأهله، وبقيت دعائم الدين ثابتة، فلا يصيب المسلم اليأس مما قد يحصل ولو عَظُم؛ ولكي ننظر ونتدبر جيدا أسباب القوة، فنأخذ بها، وأسباب الضعف فنتجنبها نتأمل في عوامل النصر والهزيمة، ولتكن قراءة التاريخ قراءة تأمل وانتفاع واعتبار وعظات نستفيد من ذلك دروسًا، ولا يكفي أن نتألم ونتحسر أو نتعجب أو نتفكه، أو نزيد في معلوماتنا وثقافتنا، فليس هذا هو المقصود إنَّما المقصود أن نستفيد الدروس والعبر؛ لأن في التاريخ آلام وآمال وآيات وعظات ودروس وعبر، كما قد قال ربنا في كتابه: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾.

وقد يسر الله إلقاء عدد من المحاضرات في اللقاءات الأسبوعية التي تقام كل جمعة بين مغرب وعشاء في مدينة قصيعر من ساحل حضرموت بعنوان:

(قصة التتار بين الحسرة والعبرة)

استعرضت فيها قصة التتار من أول ظهورهم إلى انكسارهم، وزوال بعضهم وإسلام آخرين من ملكوهم، وانحسار آخرين إلى مواطنهم الأصلية، فرغب بعض الأحبة في تفريغها وإخراجها، ففرغها بعض إخواني من طلبة العلم في مسجدنا مسجد عمر جزاه الله خيرا، وقمت بالمراجعة والتصحيح والترتيب على ما يسره الله تعالى؛ لعل أن يستفيد منها من شاء الله.

والله أسأل بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن ينفع بذلك، وأن يجعلها خالصة لوجهه الكريم، وأن يجعل فيها للجامع والقارئ والسامع عظة وعبرة، والله المستعان، وهو حسبي ونعم الوكيل.

وَكُتُبُهُ أَبُو حُذَيْفَةَ

زَكَرِيَّا بِنْ حُمَيْدِ بْنْ فَهَّادٍ اَلصَّلَاحِيِّ اَلْحُبَيْشِيِّ

غَفَرَ اَللهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ

اليمن- ساحل حضرموت- مدينة قصيعر **(الجوهرة)**-

مسجد عمر بن الخطاب رضي الله عنه



بسم الله الرحمن الرحيم

التعريف بأسماء المدن التي دخلها التتار

١-**خَوارِزْم**: تقع على ضفاف نهر جيحون ضمن الاتحاد السوفيتي ـ سابقًا ـ ووزعت بين أوزبكستان، وتركمانستان، وكازاخستان.

٢- **بُخارى**: وتقع حاليا في أزوباكستان.

٣- **سَمَرْقَنْد**: وتقع حاليا جنوب شرق أزوباكستان.

٤- **نِيسَابُور**:شمال شرق إيران.

٥- **خُجَندة**: بضم أوله وفتح ثانيه مدينة على ضفاف نهر سيحون، من أقدم مدن آسيا الوسطى، وتقع حاليا في جمهورية طاجيكستان، وهي عاصمة ولاية صغد، وثاني أكبر مدينة في البلاد

٦- **أورجندة**: مدينة تاريخية تقع حاليا غرب جمهورية أوزباكستان على الشاطئ الغربي لنهر جيحون والذي يعرف حاليا بنهر أموداريا.

٧- **خُراسان**: إقليم واسع يضم عدة مدن (**هراة، و نَيْسَابُور، ومرو، و بَلْخَ، وطوس، المعروفة حاليا بمدينة مشهد**)، وهي حاليا موزعة بين ثلاث دول بين

إيران في الشمال الشرقي منها، وبين أفغانستان في شمالها الغربي، وبين تركمانستان في الجنوب منها

٨- **بَلْخَ**: تقع حاليًا في شمال أفغانستان.

٩- **نسا**: تقع حاليا في تركمانستان جنوب غرب العاصمة عشق آباد بحوالي ثمانية عشر كيلو.

١٠- **مَرو**: ويقال لها: مرو الشاهجان ومعناها: روح الملك، وتقع حاليًا في تركمانستان.

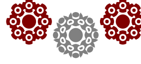
١١- **هراة**: قال الحموي في معجم البلدان: هراة بالفتح مدينة عظيمة مشهورة من أمهات مدن خراسان، لم أر بخراسان عند كوني بها في سنة ٦٠٧هـ مدينة أجل، ولا أعظم، ولا أفخم، ولا أحسن، ولا أكثر أهلًا منها فيها بساتين كثيرة، ومياه غزيرة، وخيرات كثيرة، محشوة بالعلماء، ومملوة بأهل الفضل والثراء، وقد أصابها عين الزمان، ونكبتها طوارق الحدثان، وجاءها الكفار من التتر، فخربوها حتى أدخلوها في خبر كان، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وذلك في سنة ٦١٨هـ.

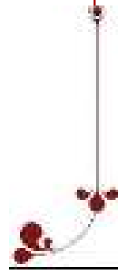
قلت: وهي تقع حاليًا غرب أفغانستان على الحدود مع إيران، وتركمانستان، وتعتبر ثالث أكبر مدينة في أفغانستان

١٢-**غَزْنَة**: مدينة عريقة من أعظم مدن الإسلام استمرت؛ لعقود عاصمة للدولة الغزنوية قال الحموي: وقد نسب إلى هذه المدينة من لا يعدّ ولا يحصى

من العلماء، وما زالت آهلة بأهل الدين، ولزوم طريق أهل الشريعة والسلف الصالح، وهي كانت منزل بني محمود بن سبكتكين إلى أن انقرضوا.

قلت: وتقع حاليًا في أفغانستان جنوب غرب العاصمة (**كَابُل**) بمسافة تقدر بمائة وخمسين كيلا.





توطئة: التتار أصولهم وموطنهم:


الراية المنسوبة للمغول

التتار أمة من الأمم التي تعود أصولهم إلى الأتراك، وقيل بأنَّهم أبناء عمومة.

وقد اختلفت، وجهات المؤرخين في مسألة التتار هل هم المغول أم هناك فرق؟ والذي يظهر والله أعلم من خلال النظر في أقوالهم أنهما شعبان مختلفان، وهم أبناء عمومة يعودون إلى أصل واحد سكنوا هضبة منغوليا؛ إلا أن التتار سكنوا جنوب الهضبة جهة الصين، والمغول سكنوا شمالها باتجاه سيبريا.

وكانوا يعيشون على الرعي في حياة بدائية، وهم عدد كثير لا يُحصون كثرة وكان كل شعب منهم فيه قبائل متعددة، وبين الحين والآخر كغيرهم يتنازعون الملك، ويقتل بعضهم بعضًا، وكَثُر تنازعهم حتى انشغلوا ببعضهم، فسلمت منهم البشرية آنذاك .

وفي أواخر القرن السادس للهجرة في سنة خمسمائة وتسعين للهجرة، وما بعدها نشأ فيهم رجل يقال له: **(تِيمُوجِين)**، والذي عُرف في التاريخ بعد ذلك بـ**(جِنْكِيزْ خَان)** أي: ملك العالم وملك الدنيا فهو لقب واسمه: تيموجين، وكان والده أميرا لقبيلة من قبائل المغول، وبعد أن مات والده استتضعفته بعض القبائل لصغر سنه، فلما استوى وبلغ أشده قوي أمره، وبدأ يجمع القبائل المغولية حوله، وقاتل بها من يليه من القبائل المجاورة حتى استطاع أن يتغلب عليهم، ويضم جميع قبائل المغول ثم قبائل التتار تحت حكمه، وكانت الغلبة والحكم قبل ذلك للتتار، فانتقل الحكم للمغول بظهور جنكيز خان، وتغلبه على التتار حتى صار ملكًا لجميع قبائل المغول والتتار، ومن هنا غلب تسمية أولئك الغزاة بالتتار، وإلا فإن قادة تلك الجيوش وأكثر الجيش مغولًا لا تترًا، وإنما غلب عليهم اسم التتار لما تقدم، والله أعلم.



ثم إن هذا الطاغية (**جنكيز خان**) استطاع توحيد جميع قبائل المغول والتتار تحت رايته، وغزا بهم مملكة الصين، ثم ممالك الإسلام، وروسيا، وأوروبا حتى صارت مملكة المغول تحكم نصف العالم تقريبًا.

وقبل أن تظهر قوة التتار كان العالم المعروف آنذاك لا توجد به سوى قوتين ظاهرتين قوة إسلامية وهي الغالبة، وقوة نصرانية وهي تارة وتارة، والغلبة والقوة لأمة الإسلام غالبًا.

ومن نصف القرن الرابع وبداية القرن الخامس تقريبًا بدأ الضعف يظهر في المسلمين، فتعددت الممالك، وتقاسم السلاطين البلاد، وبقي الخليفة في بغداد ليس له سوى صلاحيات محدودة لا يحكم إلا أجزاء من بغداد، وأجزاء من العراق بل في بعض الأوقات لا تتعدى صلاحياته باب قصره، وبقية بلاد الإسلام الواسعة جدًا تقاسمها السلاطين، وأسسوا لأنفسهم ممالك خاصة بأمرائها ووزرائها وجيوشها في حكم ذاتي وإن كانت في الظاهر تعلن الولاء للخليفة العباسي، وبدأت الصراعات بين ممالك الإسلام المتفرقة، فتقوم دولة وتزول أخرى، وكل دولة تقوم على بقايا الدولة الأخرى، وبدأ التنافس على الدنيا كما قال عليه الصلاة والسلام في حديث عوف بن مالك في الصحيحين: «**فَوَاللهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ، كَمَا**

بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ»[1].

وبدأت حياة الترف والمدنية، وبدأ الطمع والجشع، وصار كل ملك وسلطان من سلاطين الإسلام يريد أن يتوسع على حساب الآخر، فالأخ يقاتل أخاه وابن عمه، والجار يقاتل جاره، وصار شغلهم الشاغل أن يقتل بعضهم بعضا، ويتوسع بعضهم على حساب بعض، وفي هذه الأثناء ومع هذه الأحداث المؤسفة توقف الجهاد في كثير من ثغور الإسلام إلا في أماكن قليلة، وفي أوقات يسيرة.

وفي الوقت الذي بلغ فيه المسلمون من الضعف والتفرق والتنازع مبلغًا كبيرًا، كانت هناك قوة كبيرة، تتوحد وتتقوى بزعامة جنكيز خان، حتى صارت مملكة واحدة قوية في حين ضعف، وتفرق في بلاد الإسلام وبلاد أوروبا، فنشأت هذه القوة التي ظهرت فجأة وفي سرعة عجيبة، فإذا بأهل الإسلام وأهل النصرانية يتفاجؤون بقوة ثالثة هم أكثر عددا وأشد بأسا من أهل الإسلام ومن أهل النصرانية.

(١) أخرجه البخاري (٤٠١٥)، ومسلم (٢٩٦١).

وقد تمكنوا من بلاد الصين كاملة، وقضوا على جميع ملوكها وصارت بأيديهم، وبدأوا بالتوسع شرقا في بلاد تركستان، وبلاد (**كاشغر**) ما يسمى الآن بالصين الشرقية، ثم توسعوا في بلاد ما وراء النهر في البلدان المعروفة الآن بـ(**أوزبكستان وتركمانستان وطاجكستان**)، ونحوها وهذه الدول محادة للصين من جهة وللباكستان من جهة أخرى، فظهرت هذه القوة في وقت وصل المسلمون فيه إلى حالة سيئة من التفرق والتمزق سواء في بلاد المشرق، أوفي بلاد المغرب، فإن الأمر في المغرب كان لا يقل عما هو عليه الحال المشرق حيث تأسست عدة دويلات صغيرة تتناحر فيما بينها، وفي بلاد الأندلس وصلت الدويلات المسلمة فيها إلى أكثر من عشرين دويلة، وهم يتناحرون فيما بينهم؛ بل ويستعينون بملوك النصارى على بعضهم بعض، ووصل الحال بملوك المسلمين في الأندلس، والذين عرفوا بملوك الطوائف أن كان كثيرا منهم يدفع الضرائب، والأتاوات لملوك النصرانية، فكان هذا هو مجمل حال العالم الإسلامي، وقتئذ وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [سورة الرعد:١١].



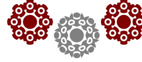
فبدأ البلاء وبدأ الشر بسبب ضعف المسلمين في دينهم، وتفرق كلمتهم، وبغي بعضهم على بعض، فسلط الله عليهم من لا يعرفهم، ومن لا يرحمهم فخرج التتار، وملكوا ما وراء بلادهم حتى صاروا على حدود الدولة الإسلامية في بلاد خوارزم المعروفة الآن بتركستان.

وكانت تلك البلاد من تركستان شمالًا إلى حدود العراق إلى عمق الهند هذه البلدان كلها كانت تحكمها **(الدولة الخَوَارِزْمِيَّة)**

بقيادة السلطان محمد خوارزم شاه أي: ملك خَوَارِزْم، وكان هذا السلطان مع ما كان عنده من العلم والنظر في الفقه كما وصفه العلماء والمؤرخون؛ إلا أن همته كانت في الملك مما حمله على القضاء على جميع ملوك المسلمين المجاورين له حتى يصفو له الملك.



فصارت البلاد ليس لها إلا ملك واحد، وسلطان واحد، وقضى على كل من يمكن أن يكون له صولة وجولة حتى يكون هو سلطان العالم الوحيد، ولم يأت سلطان بعد السلاجقة في بلاد المسلمين كافة أعظم منه في سعة ملكه وقوته وجهاده، وكانت له همة في الجهاد لا سيما في بلاد النصارى، و جهة روسيا فظهرت هذه القوة إلا أنهم كانت تبلغهم هيبة الدولة الإسلامية، والسلطان الخوارزمي والدولة الخوارزمية، فلم يتجرأوا على غزو بلاد الإسلام حتى وقعت حادثة تغيرت من بعدها الأحوال، وتسببت في جرأة التتار على غزو بلاد الإسلام حتى أهلكوا الحرث والنسل، وعاثوا في الأرض فسادا لا يعلم قبله، ولا بعده مثله على ما سيأتي تفصيله إن شاء الله.



أسباب اجتياح التتار لبلاد الإسلام

في سنة ستمائة وستة عشر للهجرة أرسل جنكيز خان وفدًا من التجار من بلاده، ومعهم من نفائس بضائع بلاده إلى مملكة خوارزم؛ ليبيعوا هذه البضائع ويشتروا له بها الكسوة من الحرير والبضائع المشتهرة في بلاد خوارزم، فوصلوا إلى أوائل مملكة خوارزم، وبالتحديد إلى مدينة يقال لها **(أترار)** في أقصى الحدود الشرقية للدولة الخوارزمية، وتعتبر هذه المدينة همزة الوصل في التجارة بين شرق آسيا وغربها.

وكان بها حاكم من قبل خوارزم شاه يدعى **(ينال خان)**، وهو ابن خال خوارزم شاه، في عشرين ألف فارس، فلما وصلوا إليها، وعلم بهم نائب البلدة استدعى هؤلاء التجار، ورأى معهم نفائس الأموال مما لا يوجد مثله في بلاده، فطمع فيهم وراسل السلطان محمد بن خوارزم شاه يخبره بالخبر، فأمره بأن يقتلهم، وأن يأخذ ما معهم من تلك الأموال التى جاءوا بها متهما إياهم بأنهم جاءوا للتجسس لصالح التتار.

وقيل: بأن نائب البلدة هو الذي اتهمهم بالتجسس، وكتب بذلك إلى السلطان، فأمره بقتلهم، وأخذ ما معهم من الأموال، ثم باعها للتجار بأموال باهظة.

وقيل: بأن السلطان إنما أمره بالتحفظ عليهم، فتجاوز نائب البلدة صلاحياته، فقتلهم إلا تاجرًا واحدا استطاع الفرار من السجن ليصل إلى جنكيز ليخبره بفظاعة ما وقع لهم من القتل والسلب، وقيل في سبب قتلهم أقوال أخرى، والله أعلم.

مع أن السلطان في غنى عن هذا فهو سلطان العالم الإسلامي حينئذ مع كثرة ملكه، وقوة سلطانه وغناه الذي لا يحتاج معه إلى مثل هذا، لكن الطمع يعمي ويصم، فكانت هذه الحادثة الآثمة هي الشرارة التي أوقدت تلك الحروب التي دفع المسلمون والنصارى لها ثمنا باهظا جدا.

فلما وصل الخبر إلى جنكيز خان أرسل رسلا آخرين إلى السلطان محمد بن خوارزم شاه، وكان السلطان بعد قتلهم قد سقط في يده، ورأى أنه قد فتح على نفسه باب شر كان في غنى عنه، فأراد أن يتأكد بنفسه عن نية التتار بعد هذه الحادثة، وبالمقابل يجمع عنهم المعلومات، فأرسل رجالًا من جيشه متخفين بلباس العامة، وأمرهم أن يسيروا إلى بلاد التتار؛ ليستطلعوا أحوالهم، وينظروا في قوتهم وأعدادهم وكيفية قتالهم، ويجمعوا له معلومات كافية عن هؤلاء القوم من أجل أن يستعد لهم؛ لأنَّه علم أنَّهم لن يسكتوا حيال هذا الأمر، فسار أولئك الرجال في تلك البلاد، ولم يرجعوا إلا بعد مدة.

وأخبروه أن هؤلاء القوم لا يحصون كثرة، وهم معروفون بالشجاعة وشدة البأس، وقلَّ أن ينهزموا، يقاتل أحدهم حتى يقتل، وربما قتل نفسه حتى لا يؤسر، وهم في كثرة كثيرة جدًا مع جلدهم وصبرهم على تغيرات المناخ والظروف حيثما كانوا، يقاتلون في البر والبحر في البرودة والحرارة، فرجعوا بهذا الخبر إلى السلطان محمد، وكان له قاض يقال له: **(القاضي الشهاب الخيوفي)** كان يستشيره في أموره، ولايكاد يقطع أمرا دونه، وهو كبير القضاة في الدولة الخوارزمية، وكان حنفي المذهب، فاستدعاه وأخبره بأنه قد حصل من الأمر كذا وكذا، وأننا الآن نستعد لقتال عدو لا يحصى كثرة، فما الرأي؟

فقال له القاضي الشهاب: إن في عساكرك كثرة -يعني أنك تحكم بلادا واسعة- فجهز عساكرك واكتب إلى ملوك الإسلام، وإلى الخليفة وإلى بلدان المسلمين يمدونك بالعساكر، فإذا اجتمعت العساكر نخرج بهم إلى ضفاف نهر جيحون، فإذا جاء العدو يكون قد قطع مسافة طويلة، ونحن مستريحون ونقاتله خارج البلد على النهر، ونستعين بالله عليه.

وكان هذا هو الرأي ثم إن السلطان جمع قواده، وكبار أمرائه، وعرض عليهم رأي هذا القاضي، فلم يوافقوا عليه، وخالفوه الرأي، وهذا من الضعف والفشل لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ [الأنفال:٤٦].

فكان رأي هؤلاء القادة عدم الخروج للقاء العدو إلى خارج المدينة؛ بل قالوا نبقى في بلادنا، فإنهم سيأتون من أماكن بعيدة، وسيمرون عبر جبال ومضايق وطرق لا يعرفونها، فحينئذ نتلقاه إلى مضايق الجبال ونتغلب عليه.

و بينما هم يدوكون في هذا الأمر، ولم يستقر أمرهم على مشورة إذا برسل جنكيز خان تصل إلى خوارزم، ويصلون إلى بلاط السلطان برسالة من جنكيز خان إلى السلطان يقول له فيها:

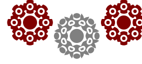
تقتلون تجاري وأصحابي وتأخذون أموالهم، فإني لن أسكت عن ذلك وسآتيكم بجمع لا قبل لكم به في كلام يهددهم به، فلما قرئت الرسالة على السلطان محمد لم يستطيع أن يتحمل مثل هذا التهديد، فتصرف تصرفًا فيه طيش من جهة، ومخالفة للشرع من جهة أخرى، فأمر بقتل الرسول الذي قرأ الرسالة أمام الوفد الذي جاء معه، وأما بقية الوفد المرافق لهذا الرسول، فإنه أمر بحلق لحاهم ورؤوسهم، وحملهم رسالة إلى جنكيز خان يقول له:

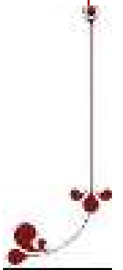
إني سآتيك إلى بلادك، وأفعل بك كما فعلت بأصحابك، ولو كنت في آخر الدنيا سأصل إليك، فرجع أولئك الرسل إلى جنكيز خان يحملون هذه الرسالة ومقتل رئيس الوفد.

وجنح بعض المؤرخين كابن الأثير، وتابعه ابن الوردى وابن الفرات إلى أن السبب الرئيسي لغزو التتار لبلاد الإسلام راجع إلى تحريض الخليفة العباسي الناصر لدين الله جنكيز خان على غزو الدولة الخوارزمية، قال ابن الأثير، حيث

قال: "وكان سبب ما ينسبه العجم إليه صحيحاً من أنَّه هو الذي أطمع التتار في البلاد، وراسلهم في ذلك، فهو الطامة الكبرى التي يصغر عندها كل ذنب عظيم".اهـ

والله أعلم بحقيقة الحال، فإن جمهور المؤرخين من أهل الإسلام وغيرهم لم يذكروا هذا، ولم يشيروا إليه، فالله أعلم.





خطة السلطان للخروج من المأزق

وأما السلطان محمد، فإنه قام بجمع الجيوش، وتحرك في أثرهم واستمر أربعة أشهر يمشي بالجيش، حتى وصل إلى مساكن التتار في شمال الصين، فلما وصل إلى تلك البلاد إذا به لم يجد أحدًا من جيش التتار، وإذا منازلهم ليس فيها إلا النساء والصبيان والأثقال وبعض الأموال، وكانوا قد حصل خلاف بين جنكيز خان، وبين بعض كبار ملوك التتار يقال له: (**كِشْلُوخَانْ**)، فَقَاتَلُوهُ، وَهَزَمُوهُ وَغَنِمُوا أَمْوَالَهُ وَعَادُوا.

فجاء السلطان محمد، ولم يجد أحدا يقاتله، فاستاق الأثقال والنساء والصبيان، وأخذهم كغنائم، وكر راجعا إلى بلاده، فوصل الصريخ إلى طليعة جيش جنكيز خان، وهم في طريق عودتهم من تلك المعركة وعلى رأس الطليعة أحد أبناء جنكيز خان، فلما جاءهم الخبر


نهر سيحون

بما صنع السلطان محمد بن خوارزم شاة جدوا في السير حتى وصلوا إليهن، فأدركوه شرق (**نهر سيحون**)، وهو يعرف الآن بنهر (**سرداريا**)، ويقع في دولة

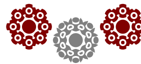
كازاخستان الإسلامية، وذلك قبل أن يخرج من حدود بلادهم، فاصطفوا للقتال، وجرت معركة دامية من أشرس معارك التاريخ استمرت المعركة ثلاثة أيام على أشد ما يكون من القتال، فالمسلمون يقاتلون حمية لدينهم، وقتال من ليس معه خلاص إلا سيفه، فإن وراءهم أرض شاسعة، فإنهم إذا انهزموا، فإلى أين سينهزمون إما ينتصرون، أو يقتلون تحت ظلال السيوف، وإلا فإن التتار سيتخطفونهم أسرًا وقتلًا بذل، فلا مجال للانسحاب ولا للفرار لبعد المسافة إلى ديار الإسلام، فإن المسافة من مكان المعركة إلى حدود بلاد المسلمين قرابة أربعة أشهر.

وأما التتار فإنهم يقاتلون قتال من يحمي بلده، ويذود عن نساءه وأولاده وأثقاله لذا استمر القتال ثلاثة أيام على أشد ما يكون حتى كلّت الرماح والسيوف، وتعبت الخيول، فنزلوا يقاتلون راجلين بالسكاكين والخناجر الصغيرة، فلما كانت ليلة اليوم الرابع، وقد ملّ الفريقان من القتال، وضجروا بعد أن صبروا صبرا عظيما قاموا بحيلة، والغريب جدا أن كلا الفريقين استعملوا نفس الحيلة، وفكروا بنفس الطريقة حيث قام المسلمون والتتار بإشعال النيران كلًا في معسكره ليُوهم بعضهم بعضا أنهم مرابطون في أماكنهم، وتركوا النيران مشتعلة، وانصرف كلٌ إلى بلده، فلما تنفس الصبح، وأسفرت

الشمس عن وجهها إذا بالأرض خاوية على عروشها لا يوجد في أرض المعركة أحد لا هؤلاء ولا هؤلاء.

رجع السلطان محمد بن خوارزم شاة إلى بلاده وجدّ في السير فوصل إلى (**بخارى**)، وهي أول البلدان الحدودية لمملكة التتار، و(**بخارى**) هي مدينة الإمام البخاري رحمه الله تعالى، وتقع الآن في جمهورية أوزبكستان الإسلامية فحصنها، وأمر أهلها بأن يستعدوا بالمؤن والغذاء وإغلاق الأسوار لحصار قد يطول، ووضع فيها عشرين ألفا من المقاتلة، ثم انطلق بعدها إلى مدينة (**سمرقند**)، وجعل فيها خمسين ألفا من الجيوش والعساكر، وأمر بتحصينها وبالغ في تحصينها، ثم انطلق إلى خوارزم، وخراسان ليجمع العساكر من هنا وهناك، ويستعد لمعركة كبيرة مع التتار، وقد وقع في نفوس المسلمين ما وقع من الرعب حيث أنهم جربوا قتال التتار في أول معركة، وكيف استمر القتال ثلاثة أيام مع طليعة جيش التتار، فكيف إذا جاء الجيش كله كيف يكون الحال لذلك حاول أن يستعد بقدر الإمكان.

إلا أن الوقت كان ضيقًا جدًا للاستعداد لمعركة كبيرة كهذه، مع عدد كبير متمرس على القتال؛ بل وفي غاية من الهمجية والوحشية.



البداية البائسة

بينما السلطان الخوارزمي يجمع الجيوش من خراسان، وخوارزم، وخراسان الآن تشمل غالب أفغانستان، وشمال إيران، واستطاع السلطان أن يجمع جيوشًا كبيرة، وعسكر بهم في (بَلْخَ) على نهر جيحون.

وبعد خمسة أشهر من وصول السلطان محمد إلى بلاده، وصلت جيوش التتار بجموع هائلة جدًا يقودهم ملك التتار نفسه جنكيز خان، وهو يتحرق غيظًا يريد الانتقام من جهة، واجتياح بلاد الإسلام من جهة أخرى، فكانت المصيبة العظمى التي لا يعلم لها في التاريخ مثيل، والتى لا زالت تولد الحسرات والآهات لكل من قرأها واطلع عليها، وإلى يومنا هذا.

وقبل أن نبدأ في تفاصيل ما جرى أحببت أن أنقل لكم كلاما للمؤرخ الكبير أبي الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني الجزري المعروف بابن الأثير المتوفى سنة(**٦٣٠هـ**)، فإنَّه أحد العلماء الذين عاصروا سنوات من اجتياح التتار لبلاد المسلمين، وشاهدوا وعاشروا تلك الفظائع والأهوال التي لم يأت التاريخ بمثلها، وهو الذي سطر جملة من هذه المآسي في كتابه الحافل: "الكامل في التاريخ".

ولولا أن المؤرخين الثقات قد وثقوا هذه الأشياء والحوادث والفجائع والأهوال التى وقعت من التتار، من الفساد العظيم في الأموال والأعراض والدماء لربما ما كان يصدق أحد أن هذا يحصل، وربما يظن الظان أنها ضرب من الخيال، أو نسيج من الوهم، أو خرافة وأساطير، لكنها وللأسف حقائق موثقة اشتهرت في ذلك الزمان كما قال ابن الأثير عند الجاهل والعالم.

قال ابن الأثير رحمه الله في الكامل:

"ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةُ سَبْعَ عَشْرَةَ وَسِتِّمِائَةٍ، ذِكْرُ خُرُوجِ التَّتَرِ إِلَى بِلَادِ الْإِسْلَامِ.

لَقَدْ بَقِيتُ عِدَّةَ سِنِينَ مُعْرِضًا عَنْ ذِكْرِ هَذِهِ الْحَادِثَةِ اسْتِعْظَامًا لَهَا، كَارِهًا لِذِكْرِهَا، فَأَنَا أُقَدِّمُ إِلَيْهِ رِجْلًا وَأُؤَخِّرُ أُخْرَى، فَمَنِ الَّذِي يَسْهُلُ عَلَيْهِ أَنْ يَكْتُبَ نَعْيَ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ؟ وَمَنِ الَّذِي يَهُونُ عَلَيْهِ ذِكْرُ ذَلِكَ؟ فَيَا لَيْتَ أُمِّي لَمْ تَلِدْنِي، وَيَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ حُدُوثِهَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا، إِلَّا أَنَّنِي حَثَّنِي جَمَاعَةٌ مِنَ الْأَصْدِقَاءِ عَلَى تَسْطِيرِهَا وَأَنَا مُتَوَقِّفٌ، ثُمَّ رَأَيْتُ أَنَّ تَرْكَ ذَلِكَ لَا يُجْدِي نَفْعًا، فَنَقُولُ: هَذَا الْفِعْلُ يَتَضَمَّنُ ذِكْرَ الْحَادِثَةِ الْعُظْمَى، وَالْمُصِيبَةِ الْكُبْرَى الَّتِي عَقَّتِ الْأَيَّامُ وَاللَّيَالِي عَنْ مِثْلِهَا، عَمَّتِ الْخَلَائِقَ، وَخَصَّتِ الْمُسْلِمِينَ، فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: إِنَّ الْعَالَمَ مُذْ خَلَقَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى آدَمَ، إِلَى الْآنِ، لَمْ يُبْتَلَوْا بِمِثْلِهَا، لَكَانَ صَادِقًا، فَإِنَّ التَّوَارِيخَ لَمْ تَتَضَمَّنْ مَا يُقَارِبُهَا وَلَا مَا يُدَانِيهَا.

وَمِنْ أَعْظَمِ مَا يَذْكُرُونَ مِنَ الْحَوَادِثِ مَا فَعَلَهُ بُخْتُ نَصَّرَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْقَتْلِ، وَتَخْرِيبِ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ، وَمَا الْبَيْتُ الْمُقَدَّسُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا خَرَّبَ هَؤُلَاءِ

الْمَلَاعِنُ مِنَ الْبِلَادِ، الَّتِي كَلُّ مَدِينَةٍ مِنْهَا أَضْعَافُ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ، وَمَا بَنُو إِسْرَائِيلَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَنْ قَتَلُوا، فَإِنَّ أَهْلَ مَدِينَةٍ وَاحِدَةٍ مِمَّنْ قُتِلُوا أَكْثَرُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَلَعَلَّ الْخَلْقَ لَا يَرَوْنَ مِثْلَ هَذِهِ الْحَادِثَةِ إِلَى أَنْ يَنْقَرِضَ الْعَالَمُ، وَتَفْنَى الدُّنْيَا، إِلَّا يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ.

وَأَمَّا الدَّجَّالُ فَإِنَّهُ يُبْقِي عَلَى مَنِ اتَّبَعَهُ، وَيُهْلِكُ مَنْ خَالَفَهُ، وَهَؤُلَاءِ لَمْ يُبْقُوا عَلَى أَحَدٍ، بَلْ قَتَلُوا النِّسَاءَ وَالرِّجَالَ وَالْأَطْفَالَ، وَشَقُّوا بُطُونَ الْحَوَامِلِ، وَقَتَلُوا الْأَجِنَّةَ، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

لِهَذِهِ الْحَادِثَةِ الَّتِي اسْتَطَارَ شَرَرُهَا، وَعَمَّ ضَرَرُهَا، وَسَارَتْ فِي الْبِلَادِ كَالسَّحَابِ اسْتَدْبَرَتْهُ الرِّيحُ، فَإِنَّ قَوْمًا خَرَجُوا مِنْ أَطْرَافِ الصِّينِ، فَقَصَدُوا بِلَادَ تُرْكِسْتَانَ مِثْلَ كَاشْغَرَ وَبِلَاسَاغُونَ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى بِلَادِ مَا وَرَاءَ النَّهَرِ، مِثْلَ سَمَرْقَنْدَ وَبُخَارَى وَغَيْرِهِمَا، فَيَمْلِكُونَهَا، وَيَفْعَلُونَ بِأَهْلِهَا مَا نَذْكُرُهُ، ثُمَّ تَعْبُرُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ إِلَى خُرَاسَانَ، فَيَفْرَغُونَ مِنْهَا مُلْكًا، وَتَخْرِيبًا، وَقَتْلًا وَنَهْبًا، ثُمَّ يَتَجَاوَزُونَهَا إِلَى الرَّيِّ، وَهَمَذَانَ، وَبَلَدِ الْجَبَلِ، وَمَا فِيهَا مِنَ الْبِلَادِ إِلَى حَدِّ الْعِرَاقِ، ثُمَّ يَقْصِدُونَ بِلَادَ أَذْرَبِيجَانَ وَأَرَّانِيَّةَ، وَيُخَرِّبُونَهَا، وَيَقْتُلُونَ أَكْثَرَ أَهْلِهَا، وَلَمْ يَنْجُ إِلَّا الشَّرِيدُ النَّادِرُ فِي أَقَلَّ مِنْ سَنَةٍ، هَذَا مَا لَمْ يُسْمَعْ بِمِثْلِهِ.

ثُمَّ لَمَّا فَرَغُوا مِنْ أَذْرَبِيجَانَ وَأَرَّانِيَّةَ سَارُوا إِلَى دَرْبَنْدَ شِرْوَانَ فَمَلَكُوا مُدُنَهُ، وَلَمْ يَسْلَمْ غَيْرُ الْقَلْعَةِ الَّتِي بِهَا مَلِكُهُمْ، وَعَبَرُوا عِنْدَهَا إِلَى بَلَدِ اللَّانِ، وَاللِّكْزِ، وَمَنْ فِي

ذَلِكَ الصُّقْعِ مِنَ الْأُمَمِ الْمُخْتَلِفَةِ، فَأَوْسَعُوهُمْ قَتْلًا، وَنَهْبًا، وَتَخْرِيبًا، ثُمَّ قَصَدُوا بِلَادَ قُفْجَاقَ، وَهُمْ مِنْ أَكْثَرِ التُّرْكِ عَدَدًا، فَقَتَلُوا كُلَّ مَنْ وَقَفَ لَهُمْ، فَهَرَبَ الْبَاقُونَ إِلَى الْغِيَاضِ وَرُءُوسِ الْجِبَالِ، وَفَارَقُوا بِلَادَهُمْ، وَاسْتَوْلَى هَؤُلَاءِ التَّتَرُ عَلَيْهَا، فَعَلُوا هَذَا فِي أَسْرَعِ زَمَانٍ، لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا بِمِقْدَارِ مَسِيرِهِمْ لَا غَيْرَ.

وَمَضَى طَائِفَةٌ أُخْرَى غَيْرُ هَذِهِ الطَّائِفَةِ إِلَى غَزْنَةَ وَأَعْمَالِهَا، وَمَا يُجَاوِرُهَا مِنْ بِلَادِ الْهِنْدِ وَسِجِسْتَانَ وَكَرْمَانَ، فَفَعَلُوا فِيهِ مِثْلَ فِعْلِ هَؤُلَاءِ وَأَشَدَّ.

هَذَا مَا لَمْ يُطْرِقِ الْأَسْمَاعَ مِثْلُهُ، فَإِنَّ الْإِسْكَنْدَرَ الَّذِي اتَّفَقَ الْمُؤَرِّخُونَ عَلَى أَنَّهُ مَلَكَ الدُّنْيَا لَمْ يَمْلِكْهَا فِي هَذِهِ السُّرْعَةِ، إِنَّمَا مَلَكَهَا فِي نَحْوِ عَشْرِ سِنِينَ، وَلَمْ يَقْتُلْ أَحَدًا، إِنَّمَا رَضِيَ مِنَ النَّاسِ بِالطَّاعَةِ، وَهَؤُلَاءِ قَدْ مَلَكُوا أَكْثَرَ الْمَعْمُورِ مِنَ الْأَرْضِ وَأَحْسَنَهُ، وَأَكْثَرَهُ عِمَارَةً وَأَهْلًا، وَأَعْدَلَ أَهْلِ الْأَرْضِ أَخْلَاقًا وَسِيرَةً، فِي نَحْوِ سَنَةٍ، وَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ فِي الْبِلَادِ الَّتِي لَمْ يَطْرُقُوهَا إِلَّا وَهُوَ خَائِفٌ يَتَوَقَّعُهُمْ، وَيَتَرَقَّبُ وُصُولَهُمْ إِلَيْهِ.

ثُمَّ إِنَّهُمْ لَا يَحْتَاجُونَ إِلَى مِيرَةٍ وَمَدَدٍ يَأْتِيهِمْ، فَإِنَّهُمْ مَعَهُمُ الْأَغْنَامُ، وَالْبَقَرُ، وَالْخَيْلُ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الدَّوَابِّ، يَأْكُلُونَ لُحُومَهَا لَا غَيْرَ، وَأَمَّا دَوَابُّهُمُ الَّتِي يَرْكَبُونَهَا فَإِنَّهَا تَحْفِرُ الْأَرْضَ بِحَوَافِرِهَا، وَتَأْكُلُ عُرُوقَ النَّبَاتِ لَا تَعْرِفُ الشَّعِيرَ، فَهُمْ إِذَا نَزَلُوا مَنْزِلًا لَا يَحْتَاجُونَ إِلَى شَيْءٍ مِنْ خَارِجٍ.

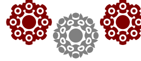
وَأَمَّا دِيَانَتُهُمْ، فَإِنَّهُمْ يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ عِنْدَ طُلُوعِهَا، وَلَا يُحَرِّمُونَ شَيْئًا، فَإِنَّهُمْ يَأْكُلُونَ جَمِيعَ الدَّوَابِّ، حَتَّى الْكِلَابَ، وَالْخَنَازِيرَ، وَغَيْرَهَا، وَلَا يَعْرِفُونَ

نِكَاحًا بَلِ الْمَرْأَةُ يَأْتِيهَا غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الرِّجَالِ، فَإِذَا جَاءَ الْوَلَدُ لَا يَعْرِفُ أَبَاهُ. وَلَقَدْ بُلِيَ الْإِسْلَامُ وَالْمُسْلِمُونَ فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ بِمَصَائِبَ لَمْ يُبْتَلَ بِهَا أَحَدٌ مِنَ الْأُمَمِ، مِنْهَا هَؤُلَاءِ التَّتَرُ، قَبَّحَهُمُ اللهُ، أَقْبَلُوا مِنَ الْمَشْرِقِ، فَفَعَلُوا الْأَفْعَالَ الَّتِي يَسْتَعْظِمُهَا كُلُّ مَنْ سَمِعَ بِهَا، وَسَتَرَاهَا مَشْرُوحَةً مُتَّصِلَةً، إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى". أهـ

ثم قال رحمه الله: وَمِنْهَا - أي: في نفس السنة - خُرُوجُ الْفِرِنْجِ، لَعَنَهُمُ اللهُ، مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الشَّامِ، وَقَصْدُهُمْ دِيَارَ مِصْرَ، وَمُلْكُهُمْ ثَغْرَ دِمْيَاطَ مِنْهَا، وَأَشْرَفَتْ دِيَارُ مِصْرَ وَالشَّامِ وَغَيْرِهَا عَلَى أَنْ يَمْلِكُوهَا لَوْلَا لُطْفُ اللهِ تَعَالَى وَنَصْرُهُ عَلَيْهِمْ، وَقَدْ ذَكَرْنَاهُ سَنَةَ أَرْبَعَ عَشْرَةَ وَسِتِّمِائَةٍ.

وَمِنْهَا أَنَّ الَّذِي سَلِمَ مِنْ هَاتَيْنِ الطَّائِفَتَيْنِ فَالسَّيْفُ بَيْنَهُمْ مَسْلُولٌ، وَالْفِتْنَةُ قَائِمَةٌ عَلَى سَاقٍ: وَقَدْ ذَكَرْنَاهُ أَيْضًا، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يُيَسِّرَ لِلْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمَيْنِ نَصْرًا مِنْ عِنْدِهِ، فَإِنَّ النَّاصِرَ، وَالْمُعِينَ، وَالذَّابَّ، عَنِ الْإِسْلَامِ مَعْدُومٌ، ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ⑪﴾ [الرعد: ١١] ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ التَّتَرَ إِنَّمَا اسْتَقَامَ لَهُمْ هَذَا الْأَمْرُ لِعَدَمِ الْمَانِعِ. وَسَبَبُ عَدَمِهِ أَنَّ خُوَارَزْمَ شَاهْ مُحَمَّدًا كَانَ قَدْ اسْتَوْلَى عَلَى الْبِلَادِ، وَقَتَلَ مُلُوكَهَا، وَأَفْنَاهُمْ، وَبَقِيَ هُوَ وَحْدَهُ سُلْطَانَ الْبِلَادِ جَمِيعِهَا، فَلَمَّا انْهَزَمَ مِنْهُمْ لَمْ يَبْقَ فِي الْبِلَادِ مَنْ يَمْنَعُهُمْ، وَلَا مَنْ يَحْمِيهَا ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٢]".اهـ

فتأمل هذا الكلام المفزع المفجع منه رحمه الله الذي يدل على عظم المصيبة هذا، وابن الأثير توفي سنة ستمائة وثلاثين للهجرة قبل أن يدخل التتار الشام ويستبيحوا بغداد، ويفعلوا فيها أضعاف أضعاف ما فعلوه في سائر البلاد، فكيف لو عاش ابن الأثير، وشهد سقوط بغداد، وكيف استبيحت ودمرت وأحرقت حتى صارت خرابا يبابا بعد أن كانت حاضرة العالم!! فماذا عساه يقول؟! وبأي ألم سيتكلم؟! وبأي آهات سيكتب؟! فإنا لله وإنا إليه راجعون!.



وصول التتار إلى أول بلاد الإسلام

[مدينة (بخارى)]

بعد خمسة أشهر من خروج جيوش التتار من بلادهم وصلوا إلى أول مدينة من مدن الإسلام، وهي مدينة (بخارى) وقد تحصن بها أهلها، ووضع فيها خوارزم شاة عشرين ألف مقاتلا من العساكر، وأما أهلها من غير الجنود فعددهم أكثر من الشيوخ والشباب ممن يقدر على القتال، فلما اقتربت الجيوش التترية من مدينة (بخارى) تحصن من بها، فأغلقوا الأبواب، وتحصنوا خلف الأسوار، فلما وصل التتار إلى أسوار المدينة، ورأوا ما فيها من التحصين قاموا بحصارها، واضطر المسلمون للخروج للقتال، وبدأت المعركة، وحمي الوطيس، واستمر القتال ثلاثة أيام على أشد ما يكون، وكان قتالا متكافئا، وقتل من الطرفين عدد كثير.



مدينة بخارى

قال ابن الأثير: "إلا أن القتل في التتار كان أكثر، والمسلمون في ثبات ومصابرة، فلما كان اليوم الرابع دب في العساكر الوهن والضعف، فقاموا بعمل مشين، وارتكبوا ذنبا عظيما كان من أهم الأسباب في البلاء العظيم الذي أصاب المسلمون بعد ذلك، وذلك أنهم لما داخلهم الرعب ودب فيهم الوهن، فروا في الليل متوجهين إلى مدن أخرى، كسَمَرْقَنْدَ والري، وأهل المدينة لا يشعرون بشيء، وليس عندهم في ذلك خبرًا، فلما أصبح الصباح إذا بأهل المدينة لا يرون أحدا من العساكر إلا قرابة أربعمئة رجل منهم، والبقية قد فروا وتركوا المدينة بمن فيها يواجهون مصيرهم، وأسلموهم بهذا الفعل لعدوهم لقمة سائغة، فإن المسلمين في المدينة كان معولهم بعد الله على هذه العساكر، فلما رأى الناس ذلك ضعفت قواهم، وانهارت عزائمهم بما حصل لهم من الخذيلة، وأصابهم اليأس من المقاومة، ورأوا أنَّهم لا يستطيعون القتال بمفردهم، وقد فرت العساكر، وقد حصل الرعب، وانهارت المعنويات، فحصل التشاور وخرجوا بفكرة بائسة تسليم البلد مقابل الأمان، ولو استمروا في القتال لربما دفع الله عنهم ،وييئس التتار منهم ورجعوا إلى بلادهم، وكان لهم الفضل بعد الله في سلامة بلاد الإسلام؛ لكنه أمر قدره الله فله الحكمة البالغة.

فلما عزم وجهاء المدينة على هذا الأمر انطلقوا إلى قاضي البلد، وأخبروه بالحال، وطلبوا منه أن يخرج إلى التتار، ويطلب منهم الأمان مقابل التسليم، وفتح أبواب المدينة، ويكونون تحت حكمهم مقابل أن يؤمنوهم على أرواحهم

وممتلكاتهم الخاصة، فوافقهم القاضي لما رأى من اتفاقهم، فلما أصبح الصباح خرج القاضي براية الاستسلام، ومعه جماعة من وجوه المدينة إلى جنكيز خان فتفاجأ التتار، واستغربوا ذلك، فإن القتال في تلك الأيام كان على أشده، وهم متحصنون في البلد يخرجون متى شاؤوا، ويستريحون متى أرادوا، ثم فجأة يخرجون للاستسلام؟؟

فلما التقى الوفد بجنكيز خان، وأخبروه بما جاؤوا له أظهر لهم نية حسنة، ووعدهم بالأمان، وأنَّه لن يصلهم أذى وما عليهم إلا فتح الأبواب، وتسليم البلد، ففتحت أبواب المدينة، ودخلت الجيوش التترية إلى مدينة بخارى، وأظهر لهم جنكيز بادئ الأمر شيئا من العدل والرفق، فلما تمكنت جيوشه من المدينة، وأحكموا قبضتهم، وتأكدوا من عدم وجود من يقاوم إلا ما كان من بقية الجنود، فإنهم تحصنوا بالقلعة، فحاصرهم التتار، ثم إن جنكيز أمر بأن يجمعوا له جميع تجارالمدينة، فجمعوا له التجار، فأمرهم أن يخرجوا له جميع البضائع التي اشتروها من السلطان محمد التي أخذها من التجار المغول الذين قتلهم، وأخذ أموالهم وباعها على تجار بخارى، فجاء كل بما عنده حتى جمع من ذلك ما كان بيع في تلك البلدة، ثم إن الأربعمائة الرجل من العساكر الذين لم يفروا من المدينة أبوا أن يستسلموا، فصعدوا إلى قلعة البلد ،وكانت قلعة حصينة، فتحصنوا بها وقرروا المقاومة، فقام جنكيز خان، وحاصر هذه القلعة

وأمر جميع من في البلد من المسلمين أن يأتوا ويقاتلوا معه المسلمين الذين في القلعة، ومن تخلف سيقتل، فكان هذا أول الغدر لكن إذا أصيب العبد بالضعف والخور والجبن في سبيل حب الحياة، فإن الذل يلاحقه إلى آخر نفس يتنفسه، فجاء أهل المدينة عن بكرة أبيهم يعينونه على قتال من في القلعة من الجند المسلمين، وكان حول القلعة خندق واسع يمنع القوات من التقدم، فأمر جنكيز أهل بخارى أن يقوموا بردم الخندق، يساعدهم جنوده، فجعلوا يأتون بالأخشاب والأحجار ونحوها حتى جاءوا ببعض أخشاب الجامع، وبعض الأخشاب التي كانت توضع عليها المصاحف في المسجد في جامع بخارى، وجعلوا يرمون بها في هذا الخندق حتى ردموه، واستطاعت الجيوش أن تمر إلى أسوار القلعة، وبعد اثني عشر يوما من القتال الشديد، والمقاومة الباسلة استطاع التتار أن يسقطوا القلعة، وقد أبلى من فيها بلاء حسنا، وأتوا بطاقتهم حتى نفد صبرهم وجهدهم، وقاتلوا حتى قُتلوا عن آخرهم، ولم يبق منهم أحد، فدخل جنكيز خان القلعة.

وبعد أن استمكنت له البلدة والقلعة عندئذ أمر بإحضار جميع الأموال من التجار ومن الناس، وكل يخرج ما معه من الكنوز، ومن أموال السلطان ثم أصدر الأمر الغاشم، وأمر جنوده أن يتقاسموا المسلمين في المدينة قتلًا وسبيًا، فكانوا يقتلون الرجال، ويفجرون بالنساء، ويسبون الأطفال ومن لم يظهر مقاومة، واستسلم من أول مرة أخذوه أسيرا، وربما قتلوه.

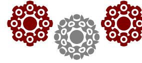
وحصل أمر عظيم، ومنكر فظيع حتى قتل أكثر أهل بخارى، ولم يسلم منهم إلا من سلم نفسه طوعًا للأسر، وانتهكت الأعراض، وعظم الضجيج، والبكاء ممن لا يملكون لأنفسهم قليلًا ولا كثيرًا، وضربت عليهم الذلة والهوان، والله المستعان.

فكان هذا أول الغدر، وأول الفجائع التي حصلت في بلاد المسلمين لما تمكن هؤلاء الملاعين من بخارى، وأفسدوا فيها وأشعلوا النار في البيوت والمساجد، وكانوا يجمعون بعض الأشياء التي لا يقدرون على حملها، فيشعلون فيها النار، وأحرقوا بخارى، ولم يتركوا مكانًا ولا شيئًا إلا أحرقوه، إلا ما قدروا عليه مما يمكن حمله مما ينتفعون به حملوه معهم، وقل أن بقي فيها بيت أو مكان لم يصبه الحريق حتى



جعلوها يبابا خرابا بعد أن أفنوا أكثر أهلها قتلًا وتحريقًا، وأخذوا من بقي من أهلها أسرى بين أيديهم، وبدأوا بالتوجه إلى المدينة التي تليها، وهي مدينة **(سمرقند)**.

وكانت طريقتهم قبحهم الله في سيرهم إلى (سَمَرْقَنْدَ) أنَّهم يجعلون الأسرى يمشون على أقدامهم بطريقة يخيل فيها للناظر أنَّهم من جملة الجيش بحيث يبدوا الجيش أكثر عددا، ومن عجز من الأسرى عن المشي قتلوه، فكانت معاملة التتار في حروبهم تمثل الهمجية والوحشية بجميع صورها وبكل مقاييسها؛ لأنَّهم كانوا لا يبقون على صغير ولا كبير، ولا يرحمون طفلا ولا امرأة، ويملكون بلدانا عظيمة، كان باستطاعتهم أن يجعلوها مدنا عظيمة، ويبنون فيها حضارات عريقة؛ لكنهم يحرقونها ويدمرونها ويقتلون جميع أهلها، فلم يكن فيهم شيء من مبادئ الرحمة والحضارة بل حتى الإنسانية، وكأن مهمتهم التدمير والقتل والإحراق لا يعرفون سوى ذلك، واستمروا على هذا الحال حتى وصلوا سمرقند.



مذبحة سمرقند

(سَمَرْقَنْدَ) مدينة كبيرة جدًا من أعظم مدن الدولة الخوارزمية، ولأهميتها وضع فيها خوارزم شاه خمسين ألفًا من العساكر المعدة؛ لحماية هذه المدينة، وأهلها كثيرون جدا يصل تعدداهم إلى مئات الآلاف والمسافة بينها وبين بخارى قرابة ثلاثمائة كيلو متر، فلما اقترب التتار من سَمَرْقَنْدَ كانوا قد رتبوا جيشهم على النحو التالي:

الخيالة في المقدمة يليها الأثقال -البغال والحمير التي تحمل المؤنة- ثم آلاف الأسرى الذين أخذوهم من بخارى في المؤخرة، وجعلوا مع كل عشرة منهم ومن الأسرى راية يرفعونها، فلما اقتربوا من سمرقند، وهم بهذا الترتيب الذي زادهم في نظر الناظر كثرة إلى كثرتهم، وظهروا بهذه الكثرة.

أمام أهالي سَمَرْقَنْدَ وجيوش المسلمين مستعدة على الأسوار، فلما رأوا في رايات التتار كثرة كاثرة، وهم لا يعلمون الخدعة في سبب كثرتها، فظنوهم بهذه الكثرة حقا، داخلهم الخوف والهلع، وانتشر ذلك في أرجاء المدينة حتى دب الرعب، وداخلهم الوهن، وإلى الله المشتكى.

إضافة إلى أن أخبار فاجعة بخارى، وما حصل فيها من القتل والتحريق، والفجور بالنساء، وقتل الأطفال قد وصلت إلى مسامعهم، فزادهم وهنا إلى وهنهم، والله المستعان.

واستمر التتار بالتقدم حتى وصلوا إلى أسوار سمرقند، ولما وقع الوهن امتنع الجيش الذي أعده خوارزم شاه من الخروج لقتالهم مع أنهم عدد كثير خمسون ألفا كما تقدم مع من يقدر على القتال من الأهالي، وهم عشرات الآلاف، ومع هذا لم يخرج منهم أحد، ورأوا أنَّهم لا طاقة لهم بقتال التتار، فاتفقوا ألا يخرجوا، وإنما يتحصنون داخل المدينة، أو يطلبون الأمان، وبينما الحال على هذا عند أبواب **(سمرقند)**


سمرقند

كان السلطان خوارزم شاه في (**بَلْخَ**) على (**نهر جيحون**) معسكر بالجيوش هناك يرسل العساكر دفعة بعد دفعة، فدفعة عشرة آلاف، ودفعة عشرين ألفا لمحاولة حماية سمرقند، وكلما بعث جماعة رجعوا دون فعل شيء، فرجعت تلك الجيوش كلها خائبة منهم من يصل إلى أطراف الجيش، فيقاتل قليلا وينهزم، ومنهم من يصل نصف الطريق، فتأتيه الأخبار بكثرة جيش التتار، فيرجع منهزمًا قبل أن يلتقي بهم والأخبار المؤسفة؛ بل المفزعة تصل إلى السلطان، فلم يدر ما يفعله وكيف يتصرف، فإنهم ما زالوا في بداية المعارك، وفي أوائل مدن مملكته، ولا يدري ما خطتهم، وما نيتهم حتى ضاق به الحال مما هو فيه من الوضع الحرج، فمدينة محاصرة، وجيوش تنهزم قد أصابها الوهن والضعف، فاضطر للبقاء في بَلْخَ يراقب الوضع في سمرقند، وكيف ستكون النهاية.



وأما أهالي سمرقند، فإنهم لما رأوا أن الجيش الذي كان معدا لحماية المدينة قد تقاعس عن القتال وجبن عن ملاقاة العدو مع كثرتهم، اتفقوا على أن

يقوموا بحماية مدينتهم بأنفسهم، وألا يعولوا على العساكر، فاجتمع من المجاهدين والمتطوعين من الرجال والشباب سبعون ألف مقاتل، وصمموا على قتال التتار، ومع هذا العدد فلا يزالون قلة بجانب جيوش التتار التي تبلغ مئات الآلاف، وهذه الجيوش التي خرجت بهذا العدد عبارة عن أفراد متطوعين تنقصهم الخبرة الكافية بعكس الجيوش والعساكر المدربة، إلا أنهم عزموا على المواجهة فلما خرجوا إلى التتار اشتبكوا معهم في قتال شديد، وأبلوا بلاء حسنًا إلا أنهم لم تكن عندهم الخبرة الكافية في فن الحرب والمخططات في الحروب.

و لما رأى التتار ما عند هؤلاء من جلد ومصابرة واندفاع دون ترتيب وتخطيط كاف، وضعوا خطة للتخلص منهم في وقت أقل، فاستدرجوهم حيث بدأوا يوهمونهم بالانسحاب والهزيمة، واستمروا بالتراجع والمسلمون، وراءهم يظنونه النصر حتى ابتعدوا عن أسوار المدينة، والتتار ينسحبون قليلا قليلا ويتراجعون، وقد نصبوا لهم الكمائن، فلما أبعدوا عن المدينة انقض عليهم التتار، وخرجت الكمائن، وإذا بالجيش الإسلامي المتطوع قد أحاط به التتار إحاطة السور بالمعصم والهالة بالقمر، فأحاطوا بهم من كل جانب بأعداد هائلة، والمدينة قد صارت بعيدة عنهم، فلم يكن للمسلمين ملجأ إلا سيوفهم، فقاتلوا حتى أُعذروا، لكن التتار تكاثروا عليهم حتى نالتهم السيوف منهم من كل جانب، وانقضت الجيوش التترية عليهم انقضاضًا واحدًا بكامل جيوشهم

وقوتهم وكثرتهم، فثبت لهم المسلمون المجاهدون ثباتًا عظيمًا حتى قتلوا عن آخرهم سبعون ألفا في ساعة من نهار لم ينجوا منهم أحد.

فلما انتهت المعركة بهذه النتيجة، وطار الخبر بهذه المصيبة العظيمة، والفاجعة الكبرى سبعون ألف من خيار أهل سَمَرْقَنْدَ الذين انتدبوا للجهاد، وهذا يدل على ما كانوا فيه من الخير، ولم يهابوا عدوا ولا كثرته، ولا بأسه يقتلون في سبيل الله نحسبهم شهداء، والله حسيبهم.

فلما وصل الخبر إلى من بقي في سَمَرْقَنْدَ من العسكر والأهالي عظم الأمر عليهم واختلفت آراؤهم، أما العساكر فكان أغلبهم من الترك فقالوا هؤلاء-أي: التتار- ترك مثلنا فلو استسلمنا لهم، وطلبنا منهم الأمان، فلن يضرونا ولن يقتلونا؛ لأنهم من أبناء جنسنا، وصاروا يفكرون كيف ينجون بأنفسهم دون النظر فيما سيحصل للمدينة وأهلها.

فخرج هؤلاء الخمسون الألف، وأعلنوا الاستسلام وعرفوا بأنفسهم، وأنهم من الترك وأنهم منهم، فإذا بجنكيز خان يستخدم خطة ماكرة، فيستقبلهم بحفاوة ويأمرهم أن يخرجوا بنسائهم وأموالهم وأسلحتهم ودوابهم؛ لأنَّه يريد أن يقاتل أهل المدينة حتى يوصلهم إلى مأمن ليتفرغ لأهل المدينة، فصدقوه ونسوا ما حصل منه في بخارى من الغدر مع أن مأساة بخارى لم تمض عليها إلا مدة يسيرة، فنسوا ذلك وصدقوه بأنَّه سيوصلهم إلى مأمنهم وانظر إلى هذه الخسة

في الجند كيف تطيب نفوسهم أن يتركوا إخوانهم المسلمين يلاقون مصيرهم، مع أنهم مسؤولون عن حمايتهم، لكنه الوهن حب الدنيا وكراهية الموت كما قال صلى الله عليه وسلم كما في حديث ثوبان عند أحمد وغيره، وإذا قُدست المصالح الشخصية، فلا تسل عن الحقارة التي تبلغ بأصحابها، فصار هَمّ هذا العدد الهائل من الجيش المسلم التفكير فقط بأنفسهم، وكيف يخرجون أموالهم ونسائهم وأولادهم، وقد اطمأنوا إلى وعد التتر، وأنهم سيوصلونهم إلى مكان آمن، ثم يميلون على المسلمين فيقتلونهم فصدقوهم وخرجوا.

فلما خرجوا بأموالهم ونسائهم أمروهم أن يتركوا نساءهم وأموالهم وسلاحهم ودوابهم، ويجلسوا على جهة حتى يرتب لهم الأمور في إيصالهم إلى مأمنهم، فصدقوهم فلما نزعوا منهم السلاح، وفرقوا بينهم وبين نسائهم وأولادهم وأموالهم أمر جنكيز خان جنوده أن يقضوا عليهم، فقتلوا هؤلاء الخمسين الألف عن آخرهم، وأخذوا أولادهم ونساءهم أسرى، يفجرون بالنساء ويستخدمون الأطفال للأسر والخدمة، وأخذوا تلك الأموال التي خرجوا بها.

فلما رأى ذلك أهل سَمَرْقَنْدَ قاوموا، وأبوا أن يفتحوا الأبواب فضيق عليهم الحصار والمدينة قد خلت ممن يمكنه الدفاع عنها، فلا جيش ولا متطوعة جميعهم قتلوا، فحاول أهل المدينة من الأهالي جاهدين أن يصمدوا أمام الحصار المطبق والزحف الهائل، فصبروا حتى لم يبق بأهل المدينة طاقة،

عندئذ استطاع جنكيز خان أن يقتحم عليهم المدينة، فاقتحمها واستطاع دخولها بعد أن سطر أهل المدينة أروع الأمثلة في الصبر، فلما دخل جنكيز بجيوشه المدينة التي استعصى أهلها عليه كان قلبه يغلي عليهم من الحقد والغيظ، ففعل بمدينة سَمَرْقَنْد ما تشيب له الولدان من القتل الفظيع، ومن الفجور بالنساء، فكانوا يزنون بالمرأة علنًا أمام ذويها وأقاربها، وإذا كانت حاملا، فبعد الزنى بها يبقرون بطنها، ويخرجون الجنين من بطنها، ويقطعونه والناس لا يملكون لأنفسهم شيئا، وكان من بقي فيه شيء من الغيرة، وشيء من الشجاعة لا يحتمل ذلك، فيقوم ويقاتلهم، فيقتلوه فيفضل أن يقتل على أن يرى مثل هذه الأمور المؤلمة، وهذه الحسرات والآهات التي لولا أنها قد تواترت في التاريخ لاستبعد السامع وقوعها.



واستمر الأمر على هذا الحال في سَمَرْقَنْد أياما، إلا أنَّهم لم يحرقوا سَمَرْقَنْد كبخارى إنما أحرق جامعها، فقط وترك بها شحنة من جنوده كحامية، ثم أخذ معه من أخذ من الأسرى، وانطلق ببقية الجيش يريد المواصلة لما بعد ذلك من مدن الإسلام.

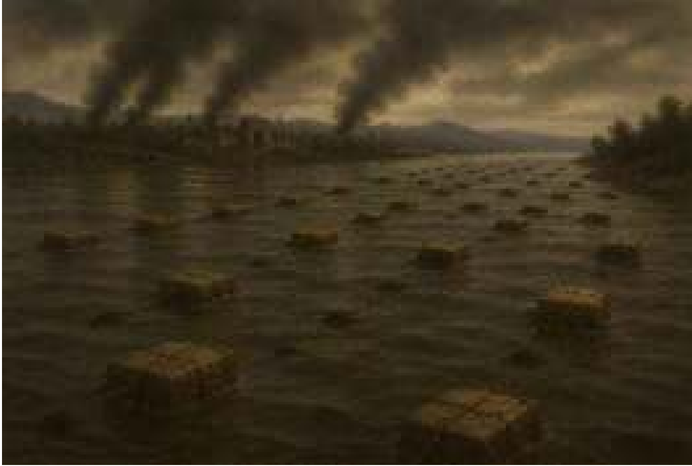
فبينا هو كذلك إذ جاءته الأخبار أن السلطان محمد بن خوارزم شاه معسكر في بَلْخَ على نهر جيحون، وقد جعل نهر جيحون بينه، وبين بلاد التتار فرأى جنكيز خان أن يستقر بسمرقند، ويجعلها مكانا لتحركاته وتجمع جيوشه، وندب من جيوشه عشرين ألف من أشدهم وأقساهم وأمرهم أن ينطلقوا للقاء محمد بن خوارزم شاه، وقال لهم ائتوني به، ولو رأيتموه متعلق بالسماء؛ وذلك لأنَّه يريد أن ينتقم منه بسبب ما فعل بتجاره ورسوله.

وفي هذه الأثناء وصلت الأخبار إلى محمد بن خوارزم شاه، ومن معه من الجيوش بما فعل التتار في بخارى وسمرقند، إضافة إلى أنَّه كان يرسل الجيوش فترجع منهزمة، ومع هذه الأمور المزعجة، وقبل أن تبدأ المواجهة بين السلطان والتتار، دبَّ الرعب والخوف والهلع في جيش السلطان، وفي عامة الناس ولم يبق في النفوس قوة وأصيبوا بالخذلان، والله المستعان، وصار الحال كما قال الله تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ﴾ [سورة آل عمران: ١٦٠].

حتى قال ابن الأثير رحمه الله تعالى: "وصار المسلمون لا يدفعون عن أنفسهم قليلا ولا كثيرا وأصابهم الخذلان، والعياذ بالله.

أما هولاكو فإنه جهز عشرين ألفا من جيشه، وجعل عليهم صهره يقال له: **(تغاجار)** يرافقه قائدان من كبار قواد المغول أحدهما **(نويان)**، والآخر **(سوبوتاي)**، وأمرهم بالقبض على السلطان واعتقاله والمجيء به إليه، فتحرك

هؤلاء العشرون الألف من سمرقند إلى بَلْخَ، والمسافة بين سمرقند وبلخ قرابة خمسمائة كيلو، حتى وصلوا إلى مكان يقال له (**بنجاب**)، ومعناه المياه الخمسة كانت فيها عيون جارية؛ لقربها من نهر جيحون الذي تنبع منه هذه العيون الخمس، وخوارزم شاه ومن معه قد صاروا على الضفة الأخرى من النهر، وهم آمنون من أن يصل إليهم التتار سريعًا حيث أن النهر يحجز بينهم، ولا توجد سفن يركبون عليها، فإنهم قد حازوا السفن كلها إلى الجهة الأخرى، ولو أرادوا صناعة السفن لتطلب منهم وقتًا، فلما وصل هؤلاء الفجرة إلى ساحل نهر جيحون، وبينهم وبين خوارزم شاه النهر، وخوارزم شاه ومن معه آمنون.



فلما رأى ذلك التتار فكروا بخطة سهلة وسريعة مما لم يكن تخطر على بال المسلمين، حيث قام التتار بقطع كمية كبيرة من الأخشاب، وصنعوا منها قوارب خشبية، وذبحوا ما معهم من البقر، وجعلوا جلود الأبقار على هذه الأخشاب، فجعلوا الأخشاب عبارة عن صناديق خشبية، وغلفوها بجلود البقر حتى لا يدخلها الماء، ووضعوا مؤنتهم وسلاحهم في هذه

الصناديق، ثم جعلوا الخيول تدخل في الماء، أولا لقدرتها على السباحة، وقد ربطوا تلك الصناديق الخشبية بحبال، فكان الرجل منهم يجعل حبل الصندوق على حقوه، وهو يمسك بذنب الخيل فالخيل تجر الرجل، والرجل يجر الصندوق المليء بالسلاح والمؤنة، حتى عبروا النهر إلى الجهة الأخرى دفعة واحدة عشرون ألف رجل يقطعون النهر بهذه الطريقة العجيبة.

فجاءت الأخبار إلى السلطان محمد بن خوارزم شاه بأن التتار، قد صاروا معه على أرض واحدة، وقد استطاعوا عبور النهر بهذه الخطة، فسقط في يده وأصابه الفشل، فلم يفكر بالمقاومة مع أنه كان سلطان الدنيا في زمانه، ومع كثرة ما معه فلم يقم بجمع الجيوش، ومحاولة المقاومة وأن يذود عن بلاد الإسلام ما استطاع، أو يؤخر شر هؤلاء ما استطاع مع أن الذين خرجوا إليه إنما هم عشرون ألفا، ومعه من الجيوش أضعافهم؛ لكن إذا أصيب العبد بالخذلان فلا ينفعه شيء ولو معه جيوش الدنيا، فالنصر من عند الله كما قال الله جل وعلا: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [آل عمران:١٢٦]، فبدلا من أن يجمع قادته، وأهل مشورته لوضع خطة للقتال، أو الانسحاب المؤقت لترتيب الجيش إذا بالسلطان يجمع خاصته، وكبار قادته ويجمع ما معه من أثقال وكنوز، واستعد للهرب تاركا جيشه ورعاياه يلاقون مصيرهم، وفعلا بدأ بالفرار وصار يهرب من بلد إلى آخر، وأما الجيوش الذين معه، فقد تفرقوا شذر مذر،

فانطلقت كل طائفة منهم إلى جهة يهيمون على وجوههم كل يبحث لنفسه عن مأمن، وتركوا بلاد الإسلام بين يدي أناس لا رحمة في قلوبهم لصغير ولا لكبير.

وكانت مهمة هؤلاء العشرين الألف الوصول إلى السلطان ليأخذوه، ويأتوا به إلى جنكيز خان؛ لذلك لما فر السلطان استمروا بملاحقته دون حصول ضرر كبير في غالب البلدان التي يمرون منها أثناء الملاحقة، وأكثر البلدان لا يتعرضون لها، ولا لأهلها إنما يريدون أن يصلوا إلى السلطان في أقرب وقت، ولا يريدون الانشغال بشيء يؤخرهم عن مهمتهم، وهي الإمساك بالسلطان.

فلما علم السلطان بذلك زاد قلقه، فجدَّ في الفرار مع نفر من خاصته وانطلق إلى نَيْسَابُور، والمسافة من بَلْخَ إلى نَيْسَابُور بعيدة جدا تزيد عن ألف كيلو تقريبا، وكان في نيته فيما ذكره بعضهم أنه إذا وصل إلى نَيْسَابُور يقوم بجمع الجيوش للقتال، وذلك لما استيقن أنهم لن يتركوه.



مدينة نَيسَابُور

ولكن الوقت كان متأخرا جدا، فلم يمهلوه ولم يتركوا له فرصة ليلتقط أنفاسه ويجمع جيوشه، فما إن وصل إلى نَيْسَابُورَ إلا وجاءوا خلفه ولحقوا به.

فلما علم بقربهم من نَيْسَابُور فر من نَيْسَابُورَ إلى **(مازندران)**، والمسافة بينهما سبعمائة كيلوا، وكلاهما حاليا في إيران، وهي منطقة في شمال إيران حاليًا على الساحل الجنوبي لبحر قزوين، وكانت **(مازندران)** هذه من أحصن المدن حتى إنَّه لما فتح المسلمون بلاد فارس كاملة زمن عمر رضي الله عنه كانت هذه المدينة الوحيدة التي صمدت، فلم يستطيعوا فتحها لحصانتها، ولم يتمكن المسلمون من فتحها، إلا في زمن سليمان بن عبد الملك في عام سبعة وتسعين للهجرة.


جبل مازندران

استمر السلطان بالفرار حتى وصل إلي **(مازندران)** وما كاد أن يأخذ شيئًا من الراحة بعد عناء السفر الشاق المتواصل، إلا وجاءته الأخبار أنَّهم على أثره، وقد صاروا على مقربة من **(مازندران)**، وهم لا يريدون سوى السلطان حاليًا، مع أنَّهم كانوا يفسدون في

كل مكان يمرون منه في القرى وأطراف المدن، فلما علم أنَّهم يلاحقونه فر من **(مازندران)**، وتوجه إلى **(الرَّي)**.

والري تقع حاليًا جنوب طهران، وبين الري ومازندران قرابة ثلاثمائة كيلو، فلحقوه إلى الري، ففر إلى **(همذان)**، والمسافة بينهما ثلاثمائة كيلو تقريبا، فلحقوه إلى همذان، فرجع مرة أخرى إلى مازندران، فرجعوا إليه، وهم لا يتعرضون لشيء إلا ما كان على طريقهم من القرى والضياع، فلم يكن يسلم من شرهم، فلما تيقن السلطان أنَّهم غير تاركيه، ولا يمكنه مواجهتهم في الوقت الراهن توجه إلى ساحل **(بحر طبرستان)** في مدينة مازندران نفسها، وهو ما يسمى اليوم بـ**(بحر قزوين)**، وكانت له في بحر طبرستان قلعة منيعة، فتجهز للذهاب إليها، والبقاء فيها حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا، وجهزت له من السفن ما يحتاجه، وانطلق عبر البحر بنفر من خاصته، وما معه من أمواله وكنوزه متوجا إلى هذه القلعة؛ لينجو بنفسه، ويترك خلفه بلاد المسلمين ليس لها حامي ولا مانع ولا سلطان.

وذلك أنه كان قد قضى على أكثر الملوك، وكان ذلك من أسباب سرعة انتشار التتار، وأخذهم مناطق شاسعة من بلاد الإسلام في قرابة سنة، فلما وصلت هذه الفرقة الترية التي يقال لها **(المغربة)**؛ لأنَّهم انطلقوا في غرب خراسان لملاحقة السلطان إلى ساحل بحر طبرستان، ورأوا أنَّه قد فاتهم وتوجه

في عمق البحر إلى قلعته هناك، وأنهم لا يقدرون على اللحاق به، رجعوا يفسدون فيما وراءهم من بلاد الإسلام التي مرو عليه خلال ملاحقتهم للسلطان.

وأما السلطان (**محمد بن خوارزم شاه**)، فإنه بقي في هذه القلعة، ولم يهنأ فيها بعيش، وأنى له ذلك وقد ذهب ملكه فجأة، وتفرق عنه جيشه وصار بعيدًا عن زوجته وبناته والجواري والخدم ونفاس أمواله، وصار في قلعة نائية في عمق البحر كالطريد، ولم يبق له من الملك شيء بعد أن كان يملك من حدود بلاد العراق إلى حدود بلاد الصين، إلى حدود روسيا إلى حدود بلاد الشام، فكان أعظم سلطان في بلاد الإسلام وصار لا يملك إلا تلك القلعة الوحيدة، فأصابه من الغم ما أصابه، ونزل به المرض، فلم يعش إلا مدة يسيرة ثم مات في تلك القلعة ودفن بها، وذكر بعض المؤرخين أنهم لم يجدوا كفنا يكفنوه إلا الملاءة التي كانت على الفرش الذي ينام عليه، كفنوه بها ودفنوه هناك، وهكذا الدنيا لا ينبغي للإنسان أن يتكل عليها، ولا يركن إليها، فإنها غرارة مكارة.

ورحم الله ابن الوردي إذ يقول:

اطـــرحِ الـــدنيا فمـــنْ عاداتهـــا   تخفِضُ العـاليْ وتُعلـي مَـنْ سَـفَلْ

فمات رحمه الله على هذا الحال، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

فلما يئسوا من السلطان عادوا؛ لكن عودتهم كان شؤما وبلاء على كل من مروا به، فإنهم لم مروا على كثير من البلدان أثناء ملاحقتهم للسلطان لم

يتعرضوا لكثير من البلاد إلا على طريقهم لأنَّهم إنَّما كان قصدهم السلطان، فلما فاتهم السلطان رجعوا بغضب وحنق؛ بل قل بانتقام ووحشية، يستولون على البلدان، يفرغون غضبهم بكل ما يقدرون عليه من القتل والتحريق والنهب والفجور في الأعراض، ففعلوا العظائم بعد رجوعهم، وكانت أول بلدة رجعوا إليها هي **(مازندران)** تلك البلدة الحصينة.

قال ابن الأثير رحمه الله في الكامل: "وهو شاهد حال حيث كان ممن عاصر هذه المحنة : لما أيس التتر المغربة من إدراك خوارزم شاه عادوا فقصدوا بلاد مازندران، فملكوها في أسرع وقت مع حصانتها وصعوبة الدخول اليهاوامتناع قلاعها، فإنها لم تزل ممتنعة قديم الزمان وحديثه، حتى إن المسلمين لما ملكوا بلاد الاكاسرة جميعها من العراق إلى أقاصي خراسان بقيت أعمال مازندران يؤخذ منهم الخراج، ولا يقدرون على دخول البلاد الى أن ملكت أيام سليمان بن عبد الملك سنة تسعين، وهؤلاء الملاعين ملكوها صفوا عفوا لأمر يريده الله تعالى، ولما ملكوا بلد مازندران قتلوا وسبوا ونهبوا



وأحرقوا البلاد ولما فرغوا من مازندران سلكوا نحو الري، فرأوا في الطريق والدة خوارزم شاه ونساءه وأموالهم وذخائرهم التي لن يسمع بمثلها من الأعلاق النفيسة، وكان سبب ذلك أن والدة خوارزم شاه لما سمعت بما جرى على ولدها خافت، ففارقت خوارزم وقصدت نحو الري لتصل الى أصفهان وهمذان وبلد الجبل تمتنع فيها، فصادفوها في الطريق وما معها قبل وصولها الى الري، فكان فيه ما ملأ عيونهم وقلوبهم، وما لم يشاهد الناس مثله من كل غريب من المتاع، ونفيس من الجواهر وغير ذلك، وسيروا الجميع الى جنكيزخان بسمرقند.

وقال رحمه الله:

ذكر وصول التتر إلى الرّيّ وهمذان

في سنة سبع عشرة وستّمائة وصل التتر، لعنهم الله، إلى الرّيّ في طلب خوارزم شاه محمّد؛ لأنّهم بلغهم أنَّه مضى منهزمًا منهم نحو الرّيّ، فجدّوا السير في أثره، وقد انضاف إليهم كثير من عساكر المسلمين والكفّار، وكذلك أيضا من المفسدين من يريد النهب والشرّ،


قلعة الري

فوصلوا إلى الرّيّ على حين غفلة من أهلها، فلم يشعروا بهم إلّا وقد وصلوا

إليها، وملكوها، ونهبوها، وسبوا الحريم، واسترقّوا الأطفال، وفعلوا الأفعال التي لم يسمع بمثلها، ولم يقيموا، ومضوا مسرعين في طلب خوارزم شاه، فنهبوا في طريقهم كلّ مدينة وقرية مرّوا عليها، وفعلوا في الجميع أضعاف ما فعلوا في الرّيّ، وأحرقوا، وخرّبوا ووضعوا السيف في الرجال والنساء والأطفال، فلم يبقوا على شيءوتمّوا على حالهم إلى همذان.

وكان خوارزم شاه قد وصل إليها في نفر من أصحابه، ففارقها وكان آخر العهد به، فلا يدرى ما كان منه فيما حكاه بعضهم عنه، وقيل غير ذلك، وقد ذكرناه.

فلمّا قاربوا همذان خرج رئيسها ومعه الحمل من الأموال والثياب والدوابّ وغير ذلك، يطلب الأمان لأهل البلد، فأمّنوهم.

ثمّ فارقوها وساروا إلى **(زنجان)** ففعلوا أضعاف ذلك، وساروا ووصلوا إلى قزوين، فاعتصم أهلها منهم بمدينتهم، فقاتلوهم، وجدّوا في قتالهم، ودخلوها عنوة بالسيف، فاقتتلوا هم وأهل البلد في باطنه،



حتّى صاروا يقتتلون بالسكاكين، فقتل من الفريقين ما لا يحصى، ثمّ فارقوا قزوين، فعدّ القتلى من أهل قزوين، فزادوا على أربعين ألف قتيل.

ذكر وصول التتر إلى أذربيجان

لمّا هجم الشتاء على التتر في همذان، وبلد الجبل، رأوا بردًا شديدًا، وثلجًا متراكمًا، فساروا إلى أذربيجان، ففعلوا في طريقهم بالقرى والمدن الصغار من القتل والنهب مثل ما تقدّم منهم، وخرّبوا وأحرقوا.

ووصلوا إلى (**تبريز**)، وبها صاحب أذربيجان (**أوزبك بن البهلوان**)، فلم يخرج إليهم، ولا حدّث نفسه بقتالهم لاشتغاله بما هو بصدده من إدمان الشّرب ليلا ونهارا لا يفيق، وإنّما أرسل إليهم وصالحهم على مال، وثياب، ودوابّ، وحمل الجميع إليهم، فساروا من عنده يريدون ساحل البحر، لأنّه يكون قليل البرد، ليشتوا عليه والمراعي به كثيرة لأجل دوابّهم، فوصلوا إلى (**موقان**).


مدينة تبريز

[بلاد الكرج]

وتطرّقوا في طريقهم إلى(**بلاد الكرج**)، فجاء إليهم من الكرج جمع كثير من العسكر، نحو عشرة آلاف مقاتل، فقاتلوهم، فانهزمت الكرج، وقتل أكثرهم.

وأرسل الكرج إلى أوزبك، صاحب أذربيجان، يطلبون منه الصلح والاتّفاق معهم على دفع التتر، فاصطلحوا ليجتمعوا إذا انحسر الشتاء، وكذلك أرسلوا إلى الملك الأشرف ابن الملك العادل، صاحب خلاط وديار الجزيرة، يطلبون منه الموافقة عليهم، وظنّوا جميعهم أنّ التتر يصبرون في الشتاء إلى الربيع، فلم يفعلوا كذلك، بل تحرّكوا وساروا نحو بلاد الكرج، وانضاف إليهم مملوك تركيّ من مماليك أوزبك، اسمه (**أقوش**)، وجمع أهل تلك الجبال والصحراء من التركمان والأكراد وغيرهم، فاجتمع معه خلق كثير، وراسل التتر في الانضمام إليهم، فأجابوه إلى ذلك، ومالوا إليه للجنسيّة، فاجتمعوا وساروا في مقدّمة التتر إلى الكرج، فملكوا



حصنًا ن حصونهم وخرّبوه، ونهبوا البلاد وخرّبوها، وقتلوا أهلها، ونهبوا أموالهم، حتّى وصلوا إلى قرب (**تفليس**).

فاجتمعت الكرج، وخرجت بحدّها وحديدها إليهم، فلقيهم أقوش أوّلا فيمن اجتمع إليه، فاقتتلوا قتالًا شديدًا صبروا فيه كلّهم، فقتل من أصحاب أقوش خلق كثير، وأدركهم التتر وقد تعب الكرج من القتال، وقتل منهم أيضًا كثير، فلم يثبتوا للتتر، وانهزموا أقبح هزيمة، وركبهم السيف من كلّ جانب، فقتل منهم ما لا يحصى كثرة، وكانت الوقعة في ذي القعدة من هذه السنة (**أي سنة سبعة عشر وستمائة**)،ونهبوا من البلاد ما كان سلم منهم.

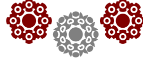
ثم قال رحمه الله: ولقد جرى لهؤلاء التتر ما لم يسمع بمثله من قديم الزمان وحديثه: طائفة تخرج من حدود الصين لا تنقضي عليهم سنة حتّى يصل بعضهم إلى بلاد أرمينية من هذه الناحية، ويجاوزوا العراق من ناحية همذان، وتالله لا شكّ أنّ من يجيء بعدنا، إذا بعد العهد، ويرى هذه الحادثة مسطورة ينكرها، ويستبعدها، والحقّ بيده، فمتى استبعد ذلك فلينظر أنّنا سطّرنا نحن، وكلّ من جمع التاريخ في أزماننا هذه في وقت كلّ من فيه يعلم هذه الحادثة، استوى في معرفتها العالم والجاهل لشهرتها، يسر الله للمسلمين والإسلام من يحفظهم ويحوطهم، فلقد دفعوا من العدوّ إلى عظيم، ومن الملوك المسلمين إلى من لا تتعدّى همّته بطنه وفرجه، ولم ينل المسلمين أذى وشدّة مذ جاء النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، إلى هذا الوقت مثل ما دفعوا إليه الآن.

هذا العدوّ الكافر التتر قد وطئوا بلاد ما وراء النهر وملكوها وخرّبوها، وناهيك به سعة بلاد، وتعدّت هذه الطائفة منهم النهر إلى خراسان فملكوها وفعلوا مثل ذلك، ثمّ إلى الرّيّ وبلد الجبل وأذربيجان، وقد اتّصلوا بالكرج فغلبوهم على بلادهم.

والعدوّ الآخر الفرنج قد ظهروا من بلادهم في أقصى بلاد الروم، بين الغرب والشمال، ووصلوا إلى مصر فملكوا مثل دمياط، وأقاموا فيها، ولم يقدر المسلمون على إزعاجهم عنها، ولا إخراجهم منها، وباقي ديار مصر على خطر، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم.

ومن أعظم الأمور على المسلمين أنّ سلطانهم خوارزم شاه محمّدا قد عدم لا يعرف حقيقة خبره، فتارة يقال مات عند همذان وأخفي موته، وتارة دخل أطراف بلاد فارس ومات هناك وأخفي موته؛ لئلّا يقصدها التتر في أثره، وتارة يقال عاد إلى طبرستان وركب البحر، فتوفّي في جزيرة هناك، وبالجملة فقد عدم، ثمّ صحّ موته ببحر طبرستان، وهذا عظيم، إنّ مثل خراسان وعراق العجم أصبح سائبا لا مانع له، ولا سلطان يدفع عنه، والعدوّ يجوس البلاد، يأخذ ما أراد ويترك ما أراد، على أنّهم لم يبقوا على مدينة إلّا خرّبوا كلّ ما مرّوا عليه، وأحرقوه، ونهبوه، وما لا يصلح لهم أحرقوه، فكانوا يجمعون (**الإبريسم**) تلالا ويلقون فيه النار، وكذلك غيره من الأمتعة.

قلت: والإبريسم نوع من أجود أنواع الحرير.



ذكر ملك التتر مراغة

في صفر سنة ثماني عشرة وستّمائة ملك التتر مدينة **(مراغة)** من أذربيجان.

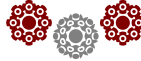
وسبب ذلك أنّنا ذكرنا سنة سبع عشرة وستّمائة ما فعله التتر بالكرج، وانقضت تلك السنة وهم في بلاد الكرج، فلمّا دخلت سنة ثماني عشرة وستّمائة ساروا من ناحية الكرج لأنّهم رأوا أنّ بين أيديهم شوكة قوية، ومضايق تحتاج إلى قتال وصراع، فعدلوا عنهم، وهذه كانت عادتهم، إذا قصدوا مدينة ورأوا عندها امتناعًا عدلوا عنها، فوصلوا إلى **(تبريز)**، وصانعهم صاحبها بمال وثياب ودوابّ، فساروا عنه إلى مدينة **(مراغة)**، فحصروها وليس بها صاحب يمنعها، لأنّ صاحبها كانت امرأة، وهي مقيمة بـ**(قلعة رويندز)**، وقد قال النبيّ، صلّى الله عليه وسلّم: «**لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً**» أخرجه البخاري (٤٤٣٢).

فلمّا حصروها قاتلهم أهلها، فنصبوا عليها المجانيق، وزحفوا إليها، وكانت عادتهم إذا قاتلوا مدينة قدّموا من معهم من أسارى المسلمين بين أيديهم يزحفون ويقاتلون، فإن عادوا قتلوهم، فكانوا يقاتلون كرها، وهم المساكين، كما قيل: كالأشقر إن تقدّم ينحر وإن تأخّر يعقر، وكانوا هم يقاتلون وراء المسلمين، فيكون القتل في المسلمين الأسارى، وهم بنجوة منه.

فأقاموا عليها عدّة أيّام، ثمّ ملكوا المدينة عنوة وقهرًا رابع صفر، ووضعوا السيف في أهلها، فقتل منهم ما يخرج عن الحدّ والإحصاء، ونهبوا كلّ ما يصلح لهم، وما لا يصلح لهم أحرقوه، واختفى بعض الناس منهم، فكانوا يأخذون الأسارى ويقولون لهم: نادوا في الدروب أنّ التتر قد رحلوا.

فإذا نادى أولئك خرج من اختفى فيؤخذ ويقتل.

وبلغني أنّ امرأة من التتر دخلت دارًا، وقتلت جماعة من أهلها، وهم يظنّونها رجلا، فوضعت السلاح وإذا هي امرأة، فقتلها رجل أخذته أسيرا، وسمعت من بعض أهلها أنّ رجلا من التتر دخل دربا فيه مائة رجل، فما زال يقتلهم واحدا واحدا حتّى أفناهم، ولم يمدّ أحد يده إليه بسوء، ووضعت الذلّة على الناس فلا يدفعون عن نفوسهم قليلا ولا كثيرا، نعوذ بالله من الخذلان.



غفلة سحيقة رغم اقتراب الهلكة

بعد أن حصل من فرقة التتار المغربة إهلاك عظيم للحرث والنسل في مدينة **(مراغة)** توجهوا بعدها باتجاه غرب خراسان كما تقدم معنا بعد أن فرغوا من أمر مراغة، وكانوا قد قاربوا حدود العراق انطلقوا على مدن صغيرة وقلاع أخذوها على طريقهم، حتى كانت أول محطة وصلوا إليها بعد مراغة هي مدينة **(إربل)**، ومدينة إربل تعتبر في أطراف بلاد العراق، ومعنى ذلك أنهم قد صاروا على قاب قوسين أو أدنى من مدينة بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية التي قد صار لها من السمعة والمهابة الشيء العظيم، فإن هذه المدينة وهذه الخلافة الخلافة العباسية جذورها تمتد لخمس مئة سنة بينما مملكة التتار لم تتعد منذ قيامهم كدولة حتى عشرين سنة، ولكن الأمر لله من قبل ومن بعد



قلعة إربل

يقضي ما أراده ابتلاء واختبارا للعباد، وعقوبات على ذنوبهم ومعاصيهم وتنازعهم على الدنيا.

فوصل التتر إلى قرب مدينة **(إربل)**، فتسامع الناس بالخبر في بلاد العراق والموصل وبغداد، ولم يكونوا يتوقعون أن يصل العدو إليهم بهذه السرعة، والعجب أن المسلمين في جميع الأرض في بغداد عاصمة الخلافة، وفي الشام وفي مصر وفي بلاد المغرب وفي غيرها من بلدان الإسلام، تأتيهم الأخبار الفظيعة بما يصنعه التتار بالمسلمين، فلم يحركوا ساكنا بل كل يتربص وينتظر ما تأتي به الأخبار مما يفعله التتار بأهل الإسلام، وإلى أين وصلوا ومتى سيصلون إلى بلدة كذا، فعل العاجز الذليل والجبان المهين، فإنا لله وإنا إليه راجعون ،فجعل التتار يقضون على المسلمين الأول فالأول، ومملكة مملكة.

فلما صاروا على مقربة من عاصمة الخلافة، فإذا بالخليفة يتنبه من غفلته، ويستيقظ من سباته، وكان الخليفة آنذاك خليفة من أسوأ خلفاء بني عباس، كما وصفه جماعة من المؤرخين كما تقدم معنا كلام ابن الأثير، وهو ممن عاصره وكان الخليفة يلقب بـ**(الناصر لدين الله)**، وليس ناصرا لدين الله؛ بل كان ناصرًا لشهوته وأطماعه مع طول ولايته، وقد مرت الخلافة العباسية والدولة الإسلامية في زمنه بأسوأ الفترات أخلاقيا ودينيا واقتصاديا.

فلما استشعر الخطر إذا به يحاول أن يراسل ملوك الأطراف من ملوك الأيوبيين في الشام ومصر، ويراسل بعض الملوك والأمراء الذين حول العراق

في الحصون والقلاع؛ لكن كان الأمر قد تفارط والوقت ضاق جدًا لولا لطف الله بعباده، فأرسل الخليفة إلى **(مظفر الدين)** أمير إربل أن يستعد بما معه من الجيوش، وهو سيمده ببعض الجيوش من بغداد، كان يسكن بغداد في ذلك الحين أكثر من ثلاثة ملايين مسلم، وهي تعتبر حاضرة العالم في ذلك الزمان، وأعظم مدينة في العالم المعروف وقتئذ؛ لأنَّها كانت مدينة الحضارة وعاصمة الدولة الإسلامية التي لم تكن مدينة في مثل عظمتها، ومع هذا الكم الهائل من الناس فيها إلا أن الخليفة لم يستطع أن يجمع لقتال التتار إلا عددًا يسيرًا دون الألف.

وكان مظفر الدين صاحب **(إربل)** قد قال للخليفة إن أعطيتني عشرة آلاف مقاتل أستطيع أن أهزم بهم التتار، وأستنقذ منهم البلاد التي أخذوها، فبقي مظفر الدين ينتظر ماذا يرسل له الخليفة، فإذا بالأمر يكون في أبشع ما يمكن تصوره مدينة بها ثلاثة ملايين مسلم لا يستطيع الخليفة أن يخرج منها حتى ألف مقاتل بعد أن انتخب من انتخب، وانتدب من انتدب، وشجع من شجع اجتمع ثمانمائة مقاتل، فأرسلهم إلى مظفر الدين إلى خارج إربل على اعتبار أن هؤلاء كدفعة أولى، وسيرسل له الجيوش ويمده ببعض المدد؛ لكن الخليفة لم يستطع أن يمد مظفر الدين بشيء من الجيش، ولا حتى بمئة مقاتل زيادة على

أولئك؛ إلا أنه قد اجتمع إليه بعض المتطوعة، والغالب على المتطوعة أنَّها جيوش غير مدربة؛ لكن اجتمع منهم خلق.

وكان مظفر الدين قائد الجيوش العباسية يريد التقدم باتجاه التتار، وفي نيته قتالهم، فتقدم منهم قليلا، وهو على أمل أن يأتيه المدد من بغداد، فلما تأخر المدد، ولم يأته جواب من الخليفة، وليس معه سوى أولئك الثمانمائة، وبعض المتطوعة، ولم يأته شيء من الخليفة، وكان الخليفة كلما حاول أن يرسل ببعض الناس اعتذروا، ومن ذهب منهم رجعوا وخافوا، وقد دب في قلوبهم الرعب.

قال ابن الأثير ذاكرًا خلاصة هذا الأمر:

"ثمّ رحلوا عنها نحو مدينة إربل، ووصل الخبر إلينا بذلك بالموصل، فخفنا، حتّى إنّ بعض الناس همّ بالجلاء خوفًا من السيف، وجاءت كُتب مظفّر الدين، صاحب إربل، إلى بدر الدين، صاحب الموصل، يطلب منه نجدة من العساكر، فسيّر إليه جمعا صالحًا من عسكره، وأراد أن يمضي إلى طرف بلاده من جهة التتر، ويحفظ المضايق لئلّا يجوزها أحد، فإنّها جميعها جبال وعرة، ومضايق لا يقدر أن يجوزها إلّا الفارس بعد الفارس، ويمنعهم من الجواز إليه.

ووصلت كتب الخليفة ورسله إلى الموصل، وإلى مظفّر الدين يأمر الجميع بالاجتماع مع عساكره بمدينة **(دقوقا)** ليمنعوا التتر، فإنّهم ربّما عدلوا عن جبال

إربل، لصعوبتها، إلى هذه الناحية، ويطرقون العراق، فسار مظفّر الدين من إربل في صفر، وسار إليهم جمع من عسكر الموصل، وتبعهم من المتطوّعة كثير.

وأرسل الخليفة أيضا إلى الملك الأشرف يأمره بالحضور بنفسه في عساكره؛ ليجتمع الجميع على قصد التتر وقتالهم، فاتّفق أنّ الملك المعظّم ابن الملك العادل وصل من دمشق إلى أخيه الأشرف، وهو (**بحرّان**) يستنجده على الفرنج الذين بمصر، وطلب منه أن يحضر بنفسه ليسيروا كلّهم إلى مصر؛ ليستنقذوا دمياط من الفرنج، فاعتذر إلى الخليفة بأخيه، وقوّة الفرنج، وإن لم يتداركها، وإلّا خرجت هي وغيرها، وشرع يتجهّز للمسير إلى الشام ليدخل مصر، وكان ما ذكرناه من استنقاذ دمياط.


منارة داقوقا

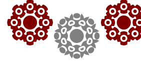
فلمّا اجتمع مظفّر الدين والعساكر بـ(**دقوقا**) سيّر الخليفة إليهم مملوكه (**قشتمر**)، وهو أكبر أمير بالعراق، ومعه غيره من الأمراء، في نحو ثماني مائة فارس، فاجتمعوا هناك ليتّصل بهم باقي عسكر الخليفة، وكان المقدّم على الجميع مظفّر الدين، فلمّا رأى قلّة العسكر لم يقدم على قصد التتر.

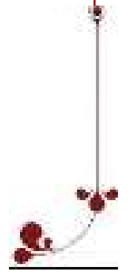
وحكى مظفّر الدين قال: لمّا أرسل إليّ الخليفة في معنى قصد التتر قلت له: إنّ العدوّ قويّ، وليس لي من العسكر ما ألقاه به، فإن اجتمع معي عشرة آلاف فارس استنقذت ما أخذ من البلاد، فأمرني بالمسير، ووعدني بوصول العسكر، فلمّا سرت لم يحضر عندي غير عدد لم يبلغوا ثماني مائة طواشي، فأقمت، وما رأيت المخاطرة بنفسي وبالمسلمين.

ولمّا سمع التتر باجتماع العساكر لهم رجعوا القهقرى ظنًّا منهم أنّ العسكر يتبعهم، فلمّا لم يروا أحدا يطلبهم أقاموا، وأقام العسكر الإسلاميّ عند **(دقوقا)**، فلمّا لم يروا العدوّ يقصدهم، ولا المدد يأتيهم، تفرّقوا، وعادوا إلى بلادهم.اهـ.

قلت: الظاهر والله أعلم أن رجوع التتار، وعدم مواصلتهم في التقدم باتجاه العراق إنما كان سببه أن التتار كانوا ينظرون إلى الخلافة العباسية ومدينة السلام بغداد نظرة مهابة، وأن هذه حاضرة الدنيا في ذلك الزمان، وملك في هذه المدينة له خمس مئة سنة، فكانوا يظنون أن الخلافة العباسية لها جيوش جرارة، فظن التتار عندما أرسلوا جواسيسهم وعيونهم، فجاءتهم الأخبار أنه لا يوجد إلا ثمانمائة شخص، فظنوها خدعة، وأن هؤلاء الثمانمائة إنَّما هم مقدمة الجيش وطليعتة، وأنهم أظهروا الانسحاب حتى يجروهم إلى كمائن ويستدرجوهم، فيلتفوا عليهم، وأن الجيش من ورائهم، ولم يكن التتار يتوقعون أبدا أن هذا الجيش هو الذي استطاع الخليفة أن يجمعه، وإنما ظنوا ذلك خدعة، ولم يشكوا في ذلك لذلك تهيبوا الأمر، وتوقفوا عن التوغل والدخول إلى بلاد

العراق، ورأوا أنهم يرجعون إلى ما وراءهم من بلاد القوقاز وبلاد شمال أفغانستان وباكستان، وتلك الأماكن باتجاه بلاد أوروبا، فانسحبوا شمالًا إلى بعض بلاد فارس، ونحوها من تلك البلدان بعد أن أهلكوا الحرث والنسل في كل مكان مروا منه، ولو علموا غاية الضعف في جيش الخلافة لربما كانت الكارثة؛ لكن أراد الله جل وعلا أن تبقى بغداد، وتستمر الخلافة العباسية لسنوات أخرى، وكان أمر الله قدرا مقدورا .





مآسي بلاد المشرق الإسلامي

كانت أول مدينة وصل إليها التتار بعد رجوعهم عن بلاد العراق مدينة **(همذان)** وكان التتر قد جدوا في السير حتى لا يتمكن الجيش العباسي من اللحاق بهم حيث كانوا يظنون ذلك؛ لما كان في نفوسهم من قوة الخلافة وعراقتها، إلا أنَّه لم يكن من ذلك شيء، ومن المؤلم جدًا، والمؤسف حقًا أن الخليفة والسلاطين لم يفكروا بهذا حتى مجرد تفكير!!!

وأنى لهم ذلك وقد عجزوا أن يجمعوا حتى ألف مقاتل والعدو على مقربة من عاصمة العالم الإسلامي! فكيف سيدور في خلدهم ما هو أبعد من ذلك من الملاحقة للعدو، والله المستعان.

فلما رأى جيش التتر أنَّه لا يوجد جيش يلاحقهم، وقد قطعوا مسافات طويلة إلى قرب **(همذان)** دون أن يعترض طريقهم معترض، واصلوا سيرهم حتى وصلوا إلى أبواب مدينة همذان، فحاصروها ودخلوها، وفتكوا بأهلها حتى كادوا أن يفنوهم، ثم بعد أن أفسدوا ونهبوا وأحرقوا وقتلوا في همذان تحركوا إلى **(أردبيل)**، وفعلوا بها كما فعلوا بهمذان، ثم من أردبيل تحركوا باتجاه الشمال الغربي إلى أذربيجان، وفعلوا فيها كما فعلوا بما قبلها من المدن

من الفجور بالأعراض، وانتهاب الأموال، وسفك الدماء، وإحراق ما لم يقدروا عليه

قال ابن الأثير رحمه الله:

" لمّا تفرّق العسكر الإسلاميّ عاد التتر إلى همذان، فنزلوا بالقرب منها، وكان لهم بها شِحْنَةٌ يحكم فيها، فأرسلوا إليه ليطلب من أهلها مالا وثيابا، وكانوا قد استنقذوا أموالهم في طول المدّة، وكان رئيس همذان شريفا علويّا، وهو من بيت رئاسة قديمة لهذه المدينة، هو الّذي يسعى في أمور أهل البلد مع التتر، ويوصل إليهم ما يجمعه من الأموال، فلمّا طلبوا الآن منهم المال لم يجد أهل همذان ما يحملونه إليهم، فحضروا عند الرئيس، ومعه إنسان فقيه قد قام في اجتماع الكلمة على الكفّار قياما مرضيّا، فقالوا لهما:

هؤلاء الكفّار قد أفنوا أموالنا، ولم يبق لنا ما نعطيهم، وقد هلكنا من أخذهم أموالنا، وما يفعله النائب عنهم بنا من الهوان.

وكانوا قد جعلوا بهمذان شحنة لهم يحكم في أهلها بما يختاره، فقال الشريف:

إذا كنّا نعجز عنهم فكيف الحيلة؟ فليس لنا إلّا مصانعتهم بالأموال، فقالوا له: أنت أشدّ علينا من الكفّار!

وأغلظوا له في القول، فقال: أنا واحد منكم، فاصنعوا ما شئتم.

فأشار الفقيه بإخراج شحنة التتر من البلد والامتناع فيه، ومقاتلة التتر، فوثب العامّة على الشحنة فقتلوه وامتنعوا في البلد، فتقدّم التتر إليهم وحصروهم، وكانت الأقوات متعذّرة في تلك البلاد جميعها، لخرابها، وقتل أهلها، وجلاء من سلم منهم، فلا يقدر أحد على الطعام إلّا قليلا، وأمّا التتر فلا يبالون بعدم الأقوات لأنّهم لا يأكلون إلّا اللحم، ولا تأكل دوابّهم إلّا نبات الأرض، حتّى إنّها تحفر بحوافرها الأرض عن عروق النبات فتأكلها.

فلمّا حصروا همذان قاتلهم أهلها والرئيس والفقيه في أوائلهم، فقتل من التتر خلق كثير، وجرح الفقيه عدّة جراحات، وافترقوا، ثمّ خرجوا من الغد، فاقتتلوا أشدّ من القتال الأوّل، وقتل أيضا من التتر أكثر من اليوم الأوّل، وجرح الفقيه



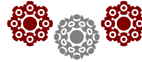
أيضا عدّة جراحات وهو صابر، وأرادوا أيضا الخروج، اليوم الثالث، فلم يطق الفقيه الركوب، وطلب الناس الرئيس العلويّ فلم يجدوه، كان قد هرب في سرب صنعه إلى ظاهر البلد هو وأهله إلى قلعة هناك على جبل عال فامتنع فيها.

فلمّا فقده الناس بقوا حيارى لا يدرون ما يصنعون، إلّا أنّهم اجتمعت كلمتهم على القتال إلى أن يموتوا، فأقاموا في البلد ولم يخرجوا منه.

وكان التتر قد عزموا على الرحيل عنهم؛ لكثرة من قتل منهم، فلمّا لم يروا أحدا خرج إليهم من البلد طمعوا واستدلّوا على ضعف أهله، فقصدوهم وقاتلوهم في رجب من سنة ثماني عشرة وستّمائة، ودخلوا المدينة بالسيف، وقاتلهم الناس في الدروب، فبطل السلاح للزحمة، واقتتلوا بالسكاكين، فقتل من الفريقين ما لا يحصيه إلّا الله تعالى، وقوي التتر على المسلمين فأفنوهم قتلا، ولم يسلم إلّا من كان عمل له نفقا يختفي فيه، وبقي القتل في المسلمين عدّة أيّام، ثمّ ألقوا النار في البلد فأحرقوه ورحلوا عنه إلى مدينة أردويل.

وقيل كان السبب في ملكها أنّ أهل البلد لمّا شكوا إلى الرئيس الشريف ما يفعل بهم الكفّار، أشار عليهم بمكاتبة الخليفة لينفذ إليهم عسكرًا مع أمير يجمع كلمتهم، فاتّفقوا على ذلك، فكتب إلى الخليفة ينهي إليه ما هم عليه من الخوف والذلّ، وما يركبهم به العدوّ من الصّغار والخزي، ويطلب نجدة ولو ألف فارس مع أمير يقاتلون معه ويجتمعون عليه، فلمّا سار القصّاد بالكتب أرسل بعض من

علم بالحال إلى التتر يعلمهم ذلك، فأرسلوا إلى الطريق فأخذوهم وأخذوا الكتب منهم، وأرسلوا إلى الرئيس ينكرون عليه الحال، فجحد، فأرسلوا إليه كتبه وكتب الجماعة، فسقط في أيديهم، وتقدّم إليهم التتر حينئذ وقاتلوهم، وجرى في القتال كما ذكرنا.



ذكر مسير التتر إلى أذربيجان وملكهم أردويل وغيرها

لمّا فرغ التتر من همذان ساروا إلى **(أذربيجان)**، فوصلوا إلى أردبيل فملكوها وقتلوا فيها وأكثروا، وخربوا أكثرها، وساروا منها إلى **(تبريز)**، وكان قد قام بأمرها **(شمس الدين الطّغرائي)**، وجمع كلمة أهلها، وقد فارقها صاحبها **(أوزبك بن البهلوان)**، وكان أميرا متخلّفًا، لا يزال منهمكًا في الخمر ليلًا ونهارًا، يبقى الشهر والشهرين لا يظهر، وإذا سمع هيعة طار مجفلًا لها، وله جميع أذربيجان وأرّان، وهو أعجز خلق الله عن حفظ البلاد من عدوّ يريدها ويقصدها.



فلمّا سمع بمسير التتر من همذان فارق هو تبريز، وقصد **(نقجوان)**، وسيّر أهله ونساءه إلى **(خُوَيٍّ)** ليبعد عنهم، فقام هذا الطّغرائي بأمر البلد، وجمع الكلمة وقوّى نفوس الناس على الامتناع، وحذرهم عاقبة التخاذل والتواني، وحصّن البلد بجهده وطاقته، فلمّا قاربه التتر، وسمعوا بما أهل البلد عليه من اجتماع الكلمة على قتالهم، وأنّهم قد حصّنوا المدينة، وأصلحوا أسوارها وخندقها، أرسلوا يطلبون منهم مالا وثيابا، فاستقرّ الأمر بينهم على قدر معلوم من ذلك، فسيّروه إليهم، فأخذوه ورحلوا إلى مدينة سراو فنهبوها، وقتلوا كلّ من فيها.

ورحلوا منها إلى **(بيلقان)**، من بلاد أرّان، فنهبوا كلّ ما مرّوا به من البلاد والقرى، وخرّبوا، وقتلوا من ظفروا به من أهلها، فلمّا وصلوا إلى بيلقان حصروها، فاستدعى أهلها منهم رسولا يقرّون معه الصلح، فأرسلوا إليهم رسولا من أكابرهم ومقدّميهم، فقتله أهل البلد، فزحف التتر إليهم وقاتلوهم، ثمّ إنّهم ملكوا البلد عنوة في شهر رمضان سنة ثماني عشرة [وستمائة] ووضعوا فيهم السيف فلم يبقوا على صغير ولا كبير، ولا امرأة، حتّى إنّهم كانوا يشقّون بطون الحبالى، ويقتلون الأجنّة، وكانوا يفجرون بالمرأة ثمّ يقتلونها، وكان الإنسان منهم يدخل الدرب فيه الجماعة، فيقتلهم واحدا بعد واحد حتّى يفرغ من الجميع لا يمدّ أحد منهم إليه يدا.

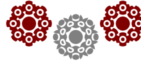
قلت: فلمّا فرغوا منها استقصوا ما حولها بالنهب والتخريب، وساروا إلى مدينة (**كنجة**).

-قلت: ومدينة (**كنجة**) تقع حاليا في جمهورية أذربيجان، وهي ثاني أكبر مدينة فيها، وتبعد عن تبريز قرابة خمسمائة كيلو-.

وهي أمّ (**بلاد أَرَّانَ**)، فعلموا بكثرة أهلها وشجاعتهم لكثرة دربتهم بقتال الْكَرَجِ، وحصانتها، فلم يقدموا عليها، فأرسلوا إلى أهلها يطلبون منهم المال والثياب، فحملوا إليهم ما طلبوا، فساروا عنهم".اهـ

قلت: ولك أن تتصور أيه القارئ الكريم فداحة الذلة التي أصيب بها المسلمون آنذاك يتحرك عشرون ألفًا من التتار من سمرقند، ويقطعون مسافات بمئات الكيلوهات، ويتعمقون داخل بلاد المسلمين، ولا يتعرض لهم أحد ولا يرفع السيف في وجوههم أحد، وهم عشرون ألفا، وكل مدينة من هذه المدن التي يمرون عليها فيها مئات الآلاف من الناس، وعشرات الآلاف من العساكر ممن له قدرة على القتال، فيمرون على مدن الإسلام مدينة مدينة، ويلاحقون سلطان المسلمين من بلد إلى بلد، ولا يقوم في وجوههم أحد، ولا يقطع عليهم الطريق قاطع بل يفسحون لهم الطرق، ومن سلم صانعهم وبذل لهم الطاعة، أو زودهم بالمال والطعام والثياب، وقد أصاب الناس من الخذلان ما لا يعلمه إلا الله، وهذا شيء لم يسمع به على مر التاريخ.

ولو اجتمعت عليهم بعض الجيوش من بعض البلاد، وقطعوا عليهم الطريق لربما ماتوا جوعا فعشرون ألفا ماذا عسى أن يفعلوا؛ لكنه الوهن حب الحياة وكراهية الموت، كما في حديث ثَوْبَانَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا**» . **فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ:** «**بَلْ أَنْتُم يَوْمئِذٍ كثير وَلَكِن غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ وَلَيَنْزِعَنَّ اللهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ وَلَيَقْذِفَنَّ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ**» . **قَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ:** «**حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ**» . رواه أبو داود وغيره.



مواقف مشرفة في زمن الذلة

والحقيقة أنه لا يخلو زمان من أهل الحق والديانة والغيرة والشجاعة، ومن يحملون هم الإسلام وصيانة حرماته، والذب عن أعراض المسلمين، كما حصل ممن انتدب لقتالهم من بعض القادة والفقهاء وبعض الصالحين من التجار والعامة ومن أشهر تلك المواقف:

١- (**شمس الدين الطغرائي**) في تبريز فإنَّه لما علم بقرب التتار من المدينة وفرار واليها قام فجمع الناس، وكانت تبريز من أكبر مدن فارس فجمع الناس وحثهم وحرضهم على القتال، وذكرهم بالجهاد في سبيل الله، وبأن هؤلاء التتار لا عهد لهم ولا ذمة، ويخبرهم بما فعلوا في بخارى وسمرقند وغيرها من البلاد الذين أمنوهم ثم دخلوا فأبادوهم، فما زال يَسْتَحِثُّ الناس، ويوقد فيهم نار الحمية والغيرة حتى قام الناس، ومن كان في تلك البلاد من الجند، وأجمع رأيهم على قتال التتار، وعلى عدم الاستسلام، ولو قتلوا عن آخرهم يموتون وهم يجاهدون في سبيل الله خيرًا من أن يموتوا وهم تحت الذلة والمهانة.

فأجمعوا أمرهم على هذا، وقامت البلدة بأسرها وقاموا بتحصين المدينة، وإصلاح ما انهدم من أسوارها كما قاموا بحفر الخنادق، وتوسيعها وتدريب بعض المتطوعة، فلما اقترب التتار من مدينة تبريز جاءتهم الأخبار بأن المدينة

بجميع أهلها على قدم وساق مستعدة للقتال، وليس عندهم نية في الاستسلام والدخول في طاعة التتار.

والتتار على كل حال مهما بلغ بهم من الإجرام والشجاعة والفساد؛ إلا أنَّهم في النهاية بشر يهابون كما يهاب غيرهم، ويخافون كما يخاف غيرهم؛ إلا أنَّهم لما رأوا عدم المقاومة الجادة من أهل الإسلام تجرؤوا عليهم، فلما جاءتهم الأخبار باستعداد أهل تبريز، وأن هذه المدينة ستعيق خطتهم في سرعة تقدمهم، وهم يريدون أن يختصروا المسألة، وأن أي شيء يعيقهم يؤخرونه إلى وقت آخر يتفرغوا له فيه، كل ذلك منهم قبحهم الله استغلالا لما رأوا بالمسلمين من الضعف والعجز، فحاولوا استغلال نصرهم للسيطرة على أكبر مساحة ممكنة من بلاد الإسلام، لا سيما السلطنة الخوارزمية التي قد كانوا بدأوا بالسيطرة على أجزاء كبيرة منها، فلما رأوا أن هذه المدينة ستحتاج إلى وقت كبير، وأهلها مستعدون للقتال تركوها، وأرسلوا إلى أميرها يطلبون منه بعض الثياب، وبعض المؤنة حتى ينصرفوا عنه كما تقدم.

٢- ومن هذه المواقف المشرفة ما حصل من أهالي **(مدينة كَنْجَةَ)**، فإنَّه لما سمع أهل كنجة بما فعل أهل تبريز حرك ذلك فيهم كوامن الجهاد والعزة، فاستعدوا للقتال، وبدأوا لفورهم بتجديد الأسوار وحفر الخنادق والتدريب، وجمع المقاتلة، وتجهيز المؤن، وجعلوا عليهم قائدًا منهم، فلما علم بذلك التتار كرروا نفس الخطة، وأرسلوا إليهم أننا لا نريدكم، ولكن زودونا ببعض

المؤن ننصرف عنكم، فزودوهم ببعض المؤن ولم ينج من هذه المدن كلها من يوم خرج التتار إلى أن رجعوا في مسيرهم إلا هاتين المدينتين حين أظهرتا المقاومة، ورفعوا راية الجهاد في سبيل الله، والغيرة على الدين، وعلى الحرمات، فقذف الله في قلب عدوهم الرعب، لكنهم نزر يسير بجانب من عداهم من أهل الإسلام، وماذا عسى يدفع الصالحون في زمن الغثائية، فإنه إذا كثر الخبث عم البلاء.

وما أشبه ذلك الحال بما رواه البخاري ومسلم عن زَيْنَبَ ابْنَةِ جَحْشٍ رضي الله عنها، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ عَلَيْهَا فَزِعًا يَقُولُ: «**لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمأْجُوجَ مِثْلُ هذِهِ وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا قَالَتْ زَيْنَبُ ابْنةُ جَحْشٍ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ قَالَ: نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ**».

أما ذلك الخبيث، فإنه أرسل فرقة لملاحقة السلطان، وأرسل فرقة أخرى باتجاه مدينة (**فرغانة**) لأخذها، وفرقة باتجاه (**ترمذ**) وفرقة يقودها هو باتجاه (**بَلْخَ**) ومدينة (**مرو**)، وصارت هذه الفرق الأربع تجوس في بلاد الإسلام دمارًا وخرابًا تدمر ما أمامها، وتحرق ويهلكون الحرث والنسل، ويفجرون غاية الفجور، ويعملون من العظائم ما لا يمكن أن يذكر.

ويصور ذلك الألم ابن الأثير رحمه الله ببيت من الشعر قائلا:

قد كان ما كان مما لست أذكره   فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر

فإن هذه الأمور قد يصعب على الإنسان أن يذكرها أو يسمعها، لا سيما ما حصل من هؤلاء من الفجور في نساء المسلمين وبناتهم، وفي حرماتهم ومقدساتهم وفي مساجدهم وبيوتهم، وإلى الله المشتكى، والحال كما قال الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [سورة الرعد:١١].

ثم رجعت هذه الطائفة إلى ملكهم قبحه الله، وبدأ بجمع جيوشه للقضاء على مدينة (**خوارزم**) عاصمة الدولة الخوارزمية، وإحدى حواضر الإسلام، ومدنه العظام، والله المستعان.



ولا ينبغي أن يكون ذكر هذه الأمور للإحباط، أو لمجرد الشعور بالألم والحسرة؛ ولكن للعظة والعبرة، فإن الله لا يظلم الناس شيئا، ولكن الناس أنفسهم يظلمون.

ومما يجدر ذكره هنا للمناسبة ما أشار إليه ابن الأثير رحمه الله تعالى، وهو يتحدث عن وفاة الناصر الخليفة العباسي أبو العباس أحمد قال:

"وَكَانَتْ خِلَافَتُهُ سِتًّا وَأَرْبَعِينَ سَنَةً وَعَشْرَةَ أَشْهُرٍ وَثَمَانِيَةً وَعِشْرِينَ يَوْمًا، وَكَانَ عُمْرُهُ نَحْوَ سَبْعِينَ سَنَةً تَقْرِيبًا، ثم قال: وَكَانَ قَبِيحَ السِّيرَةِ، فِي رَعِيَّتِهِ ظَالِمًا، فَخَرَّبَ فِي أَيَّامِهِ الْعِرَاقَ، وَتَفَرَّقَ أَهْلُهُ فِي الْبِلَادِ، وَأَخَذَ أَمْلَاكَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ".اهـ

وكان الناصر من أسوأ ملوك بني العباس من حيث الديانة والسياسة، فقد كان شيعيا رافضيًا ظالمًا غشومًا، ولم يقم بما أوجب الله عليه من نصرة الإسلام وأهله ومحاولة دفع ما نزل بهم من بلاء التتار؛ بل وقف موقف المتفرج، وإلى الله المشتكى.

وكان له ابن يلقب بـ**(الظاهر)**، وهو الذي ولي الخلافة بعد أبيه سنة اثنين وعشرين وستمائة، وكان رجلا صالحا دينا.

يقول ابن الأثير رحمه الله قال، وهو يثني على **(الظاهر)**.

قال: "وَلَمَّا وَلِيَ الْخِلَافَةَ، أَظْهَرَ مِنَ الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ مَا أَعَادَ بِهِ سُنَّةَ الْعُمَرَيْنِ، فَلَوْ قِيلَ إِنَّهُ لَمْ يَلِ الْخِلَافَةَ بَعْدَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ مِثْلَهُ لَكَانَ الْقَائِلُ

صَادِقًا، فَإِنَّهُ أَعَادَ مِنَ الْأَمْوَالِ الْمَغْصُوبَةِ فِي أَيَّامِ أَبِيهِ وَقَبْلَهُ شَيْئًا كَثِيرًا، وَأَطْلَقَ الْمُكُوسَ فِي الْبِلَادِ جَمِيعِهَا، وَأَمَرَ بِإِعَادَةِ الْخَرَاجِ الْقَدِيمِ فِي جَمِيعِ الْعِرَاقِ، وَأَنْ يَسْقُطَ جَمِيعُ مَا جَدَّدَهُ أَبُوهُ، وَكَانَ كَثِيرًا لَا يُحْصَى".اهـ

ثم قال عند ذكر وفاته سنة ثلاث وعشرين وستمائة: "فَكَانَتْ خِلَافَتُهُ تِسْعَةَ أَشْهُرٍ وَأَرْبَعَةً وَعِشْرِينَ يَوْمًا، وَكَانَ نِعْمَ الْخَلِيفَةِ، جَمَعَ الْخُشُوعَ مَعَ الْخُضُوعِ لِرَبِّهِ، وَالْعَدْلَ وَالْإِحْسَانَ إِلَى رَعِيَّتِهِ، ثم قال: وَلَمْ أَزَلْ - عَلِمَ اللهُ سُبْحَانَهُ - مُذْ وَلِيَ الْخِلَافَةَ، أَخَافُ عَلَيْهِ قِصَرَ الْمُدَّةِ لِخُبْثِ الزَّمَانِ وَفَسَادِ أَهْلِهِ، وَأَقُولُ لِكَثِيرٍ مِنْ أَصْدِقَائِنَا: وَمَا أَخْوَفَنِي أَنْ تَقْصُرَ مُدَّةُ خِلَافَتِهِ ؛ لِأَنَّ زَمَانَنَا وَأَهْلَهُ لَا يَسْتَحِقُّونَ خِلَافَتَهُ، فَكَانَ كَذَلِكَ".اهـ

وصدق رحمه الله، فقد جرت سنة الله أنه مثل ما يكون الناس يكون ولاتهم وأمراؤهم، فلما كان الغالب على أهل ذلك الزمان الشر والفساد ابتلاهم الله بأمراء الظلم والجور، وبأعداء لا يرحمون، ورحم الله الحسن البصري إذ يقول: "**من عصى الله وهو يعرفه سلط الله عليه من لا يعرفه**"، فقد كان غالب الناس في تلك المدة في لهو وشر ومعاص وإعراض، ولما كان هذا خليفة صالح توقع ابن الأثير بأنه لا يصلح لأهل ذلك الزمن وصدقت فراسة ابن الأثير، فإنَّه لم يبق خليفة إلا تسعة أشهر، ومع قصر مدته جدًا إلا أنَّه حصل خير كثير للناس حيث رخصت الأسعار، وردت المظالم، وتحسنت كثير من الأشياء، وبدأ يعد الجيوش، ففاجأه الأجل لما قضاه الله مما هو كائن.

والمقصود: أن هذه الأمور والآلام والآهات والحسرات والعبر والعظات، إنَّما نزلت بالمسلمين لما ابتعدوا عن دينهم، وصاروا يتقاتلون على الدنيا، ويتنافسون على الملك، ويبغي بعضهم على بعض، وتسابقوا في الترف والفسق والفجور، وتركوا الجهاد في سبيل الله، وعظم في أعينهم، وفي قلوبهم حب الدنيا، وحب الذات، وتقديس المصالح، وتكالبوا عليها فسلط الله عليهم هؤلاء، وحسبنا قول الله جل وعلا:﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد:١١].

والعاقل الفطن يستفيد من هذه الحوادث من العظات والعبر ما نعتبر به، وما نصلح به أنفسنا، ونعرف أسباب الهزيمة والضعف، ونجتنبها ونصلح أحوالنا مع الله ومع عباد الله، وإلا فإنَّ الأيام دول، وكم فيها من عظات وعبر والسعيد من اتعظ بغيره.

بلاد (بيلقان)

هذه البلدة أكثر أهلها من أهل الإسلام، وفيها نصارى، وقد قاومت هذه البلدة بعض المقاومة إلا أن التتار كرروا الهجمات عليها حتى دخلوها، وكان من عادتهم أنَّهم يقتلون من قاومهم، ومن لم يقاومهم إلا أن البلدان التي لم تقاومهم يقتلون فيها ويتركون، وأما الذين يقاومونهم، فكانوا يفتكون فيهم فتكًا ذريعًا، ولهذا عملوا من البلايا العظام، والفجور الكبير في بلاد (**بيلقان**) ما

يتعاظم الشخص أن يذكره، فربما كانوا يفحشون ويفجرون بالنساء والحوامل، ثم بعد ذلك يبقرون بطونهن، وهن أحياء ويخرجون الأجنة من بطونهن، ويقتلونهن بهذه الطريقة الموحشة، وفعلوا بالرجال الأفاعيل، وكانوا ربما فجروا بالمرأة أمام محارمها، فبعضهم لا يدري ماذا يصنع فيكتفي بالصياح والعويل، وبعضهم ربما حاول أن يدفع عن عرضه، وعن حريمه، فيقتلونه أمام أهله وبناته وأطفاله، فحصل منهم في بلاد بيلقان فظائع عظيمة ، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

الظلم لا يدوم والبغي لا يستمر، ولا بد للكرب من فرج، ومن بعد العسر يسرا سنةٌ لله في خلقة لن تبدل، ولن تحول، فبعد تلك الأيام العجاف والآلام الرداف أذن الله بالفرج، وظهر بصيص أمل وشعاع انفراجة، فبعد أن فعلوا ببلاد الإسلام هذه العظائم التي يندى لها الجبين، ويحترق لها الفؤاد خلال سنة وبضعة أشهر، في سنة سبعة عشر وثمانية عشر وستمائة، في بلاء عجيب وامتحان قل أن يتكرر كما وصفه ابن الأثير رحمه الله تعالى فيما تقدم بقوله: "وَلَقَدْ جَرَى لِهَؤُلَاءِ التَّتَرِ مَا لَمْ يُسْمَعْ بِمِثْلِهِ مِنْ قَدِيمِ الزَّمَانِ وَحَدِيثِهِ: طَائِفَةٌ تَخْرُجُ مِنْ حُدُودِ الصِّينِ لَا تَنْقَضِي عَلَيْهِمْ سَنَةٌ حَتَّى يَصِلَ بَعْضُهُمْ إِلَى بِلَادِ أَرْمِينِيَّةَ مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ، وَيُجَاوِزُوا الْعِرَاقَ مِنْ نَاحِيَةِ هَمَذَانَ". اهـ

قلت: وصدق رحمه شيء لا يعرف في التاريخ مثله قوم يخرجون من حدود الصين، ويصلون إلى حدود العراق، وإلى داخل روسيا وإلى شرق أوروبا، وإلى حدود الهند، وإلى حدود أرمينيا في خلال مدة يسيرة، وفي كل بلدة يمرون

عليها يفسدون ويحرقون ويقتلون ويفجرون بما لم يسمع التاريخ بمثله، فكان هذا من العجائب المؤلمة في تاريخ هؤلاء الفجرة، الذين مثلوا الإجرام بكل معانيه، والوحشية بكل المقاييس، حسبنا الله ونعم الوكيل.

بلاد (القوقاز) وبلاد (الروس)

فبعد أن أفسد هؤلاء كل هذا الفساد، وإنما هم طائفة واحدة لا يبلغ عددهم إلا عشرين ألفا، وهم الذين يقال لهم التتار المغربة أذن الله بانصرافهم عن بعض بلاد الإسلام، فتحركوا شمالا باتجاه بلاد **(القوقاز)** وبلاد **(الروس)**، وممالك **(اللان)** و**(القفجاق)**، فوصلوا إليها، وهم أمم كثيرة، وكانوا قد دخلوا إلى مملكة الكرج، والكرج أمم كثيرة ومقاتلون أشداء؛ لكن شيئا أراده الله جل وعلا أن يغلب هؤلاء القلة تلك الممالك كلها فتصدى لهم الكرج، وقاتلوهم في عدة

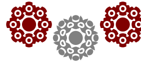


مواقع، وفي كل مرة يجتمع الكرج بأعداد كثيرة، والتتار يكسرونهم يغلبونهم ويهزمونهم، ويأخذون بلادهم، فلما رأى الكرج أنهم لا يستطيعون عليهم فروا منهم، وانهزموا على وجوههم، فمنهم من فر إلى بعض بلاد الإسلام، ومنهم من فر إلى بعض بلاد الروس وتفرقوا في البلاد.

قال ابن الأثير: "لما فرغ التتر من بلاد المسلمين بأذربيجان وَأَرَّانَ، بعضه بالملك، وبعضه بالصلح، وساروا الى بلاد الكرج من هذه الأعمال أيضًا، وكان الكرج قد اعدوا لهم، واستعدوا وسيروا جيشًا كثيرا الى طرف بلادهم؛ ليمنعوا التتر عنها، فوصل إليهم التتر، فالتقوا فلم يثبت الكرج؛ بل ولوا منهزمين، فأخذهم السيف، فلم يسلم منهم الا الشريد، ولقد بلغني أنهم قتل منهم نحو ثلاثين ألفا، ونهبوا ما وصلوا اليه من بلادهم وخربوها، وفعلوا بها ما هو عادتهم، فلما وصل المنهزمون الى تفليس، وبها ملكهم جمع جموعًا أخرى وسيرهم


جبال القوقاز

الى التتر أيضا ليمنعوهم من توسط بلادهم، فرأوا التتر وقد دخلوا البلاد لم يمنعهم جبل ولا مضيق ولا غير ذلك، فلما رأوا فعلهم عادوا إلى تفليس، فأخلوا البلاد، ففعل التتر فيها ما أرادوا من النهب والقتل والتخريب، ورأوا بلادا كثيرة المضايق والدربندات، فلم يتجاسروا على الوغول فيها، فعادوا عنها، وداخل الكرج منهم خوف عظيم حتى سمعت عن بعض أكابر الكرج وكان قدم رسولًا، أنَّه قال من حدثكم أن التتر أنهزموا وأسروا فلا تصدقوه، وإذا حدثتم أنَّهم قتلوا، فصدقوا فإن القوم لا يفرون أبدًا، ولقد اخذنا أسيرًا منهم فألقى نفسه من الدابة، وضرب رأسه بالحجر الى أن مات، ولم يسلم نفسه للأسر .



ذكر وصولهم الى دَرْبَنْدَ شِرْوَانَ وما فعلوه

لما عاد التتر من بلد الكرج قصدوا **(دَرْبَنْدَ شِرْوَانَ)**، فحصاروا مدينة **(شَمَاخِي)** وقاتلوا اهلها، فصبروا على الحصار، ثم ان التتر صعدوا سورها بالسلاليم، وقيل بل جمعوا كثيرا من الجمال والبقر والغنم، وغير ذلك، ومن قتلى الناس منهم، وممن قتل من غيرهم، والقوا بعضه فوق بعض، فصار مثل التل وصعدوا عليه، فأشرفوا على المدينة، وقاتلوا اهلها فصبروا، واشتد القتال ثلاثة أيام، فأشرفوا على أن يؤخذوا، فقالوا السيف لا بد منه فالصبر اولى بنا نموت كرامًا، فصبروا تلك الليلة، فأنتنت تلك الجيف وانهضمت، فلم يبق للتتر على السور استعلاء ولا تسلط على الحرب، فعاودوا الزحف وملازمة القتال فضجر أهلها، ومسهم التعب والكلال، والإعياء فضعفوا فملك التتر البلد، وقتلوا فيه كثيرا ونهبوا الأموال واستباحوها، فلما فرغوا منه أرادوا عبور **(الدَّرْبَنْدَ)**، فلم يقدروا على ذلك، فأرسلوا رسولًا إلى **(شِرَوَان شَاهْ مَلِكِ دَرْبَنْدَ شِرَوَانَ)** يقولون له ليرسل إليهم رسولًا يسعى بينهم في الصلح.

فأرسل عشرة رجال من أعيان أصحابه فأخذوا أحدهم فقتلوه، ثم قالوا للباقين إن أنتم عرفتمونا طريقًا نعبر فيه، فلكم الأمان، وإن لم تفعلوا قتلناكم كما قتلنا هذا.

فقالوا لهم إن هذا الدربند ليس فيه طريق البتة، ولكن فيه موضع هو أسهل ما فيه من الطرق فساروا معهم الى ذلك الطريق، فعبروا فيه وخلفوه وراء ظهورهم، لما عبر التتر (**دَرْبَنْدَ شِرَوَانَ**) ساروا في تلك الأعمال، وفيها أمم كثيرة منهم (**اللَّانُ، وَاللِّكْزُ**) وطوائف من الترك، فنهبوه، وقتلوا من اللكز كثيرًا، وهم مسلمون وكفار، وأوقعوابمن عداهم من أهل تلك البلاد، ووصلوا الى اللان وهم أمم كثيرة، وقد بلغهم خبرهم".اهـ

قلت: فتأمل ما كان عليه هؤلاء من المكر، والحيلة الخاسرة، والإرعاب، وكيف يظهرون اللين والصلح حتى يوقعوا الخصم في شر مكرهم، قبحهم الله.

وعلى كل حال استمر التتار بالسير حتى دخلوا مملكة (**اللَّانِ والقُفْجَاقَ**)، وهما مملكتان واسعتان من قبائل شتى ومساكنهم في جبال القوقاز أما اللان فمساكنهم حاليا في جمهورية أوسيتيا في الاتحاد الروسي وأما القفجاق ففي جنوب شرق روسيا وأراضيهم ممتدة من نهر الغولفا إلى شمال البحر الأسود في كازاخستان وشبه جزيرة القرم.

و(**القُفْجَاقَ**) الغالب عليهم الكفر، والمسلمون فيهم قلة، وأما اللَّانِ فهي مملكة وثنية، فاجتمعت هاتان المملكتان، واتفقوا على أن يتحدوا جميعًا لقتال التتار مع أنَّه قد كان بينهم قتال؛ لكن رأوا أنهَّم أمام عدو لن يترك منهم أحدا فاتفقوا أن يكونوا جيشًا واحدًا، ويقاتلوا التتار، وبالفعل كونوا جيشًا واحدًا،

وبدأ التتار بقتال هؤلاء، وكان القتل يشتد جدًا يومًا بعد يوم، فرأى التتار أنَّهم لا يستطيعون التغلب على هؤلاء مجتمعين فلجئوا إلى الحيلة والخديعة.

وكان القُفْجَاقَ من حيث النَّسب يرجعون إلى الترك الذين منهم التتار، فإن الترك قبائل شتى، والتتار أصلهم من قبائل الترك، وبلاد القوقاز وكثير من بلاد الصين، وبلاد الأناضول تركيا حاليا، وبلاد خراسان أفغانستان، وإقليم كرمان جنوب شرق إيران حاليا كلهم تعود أصولهم إلى القبائل التركية.

لذلك لما عجز التتار أن يقاتلوا هذا الجيش المجتمع قاموا بخطة ماكرة، فأرسلوا إلى الذين هم أقرب إليهم نسبًا، وهم القفجاق -بالجيم المعجمة من تحت ثم بالقاف- فأرسلوا إليهم، وقالوا لهم أنتم منا، ومن نسبنا، وهؤلاء لا ينتمون إليكم لا بدين، ولا بنسب، فكيف تقاتلون معهم؟!.

فاتركوهم ونحن نعاهدكم أننا لا نتعرض لكم، ولا ندخل بلادكم، وسنرسل إليكم بالمتاع والثياب، وبعض المؤن كبرهان على صدقنا، وعربون على صداقتنا، ونحن لا نريدكم إنما نريد اللَّانِ، فخلوا بيننا وبينهم.

فصدقهم القفجاق، وذهب عنهم ما فعلوه بالمسلمين من نقض العهود التي عاهدوهم عليها، والغدر بأبشع صوره.

فصدقهم القفجاق، وانعزلوا عن اللان تاركيهم يلاقون مصيرهم، ويقاتلون وحدهم، فلما صار اللان بمفردهم لم يقووا على مجابهة التتار فمن جهة قد قل

عددهم، ومن جهة أخرى قد أصابهم الوهن بتفرقهم، فإنه عندما يكون الجيش مجتمعًا، ثم يتفرق يحصل الوهن والضعف وتنهار المعنويات.

فانكسر اللان ولم يقووا على مواجهة التتار، وانهزموا من أول معركة، وفتك بهم التتار حتى كادوا أن يفنوهم، وشردوهم في الغياض، ورؤوس الجبال، وأخذوا من بلادهم من المغانم ما لا يحصى كثرة.

ولما انتهى التتار من قبائل اللان كان القفجاق قد أمنوا، لا سيما بعد أن أرسل إليهم التتار المتاع والأقمشة، وكانت بلاد القفجاق من أحسن البلدان في تلك البلاد من حيث أماكن الرعي والأعشاب والسهول الخضراء، يرعون فيها أنعامهم دوابهم وخيولهم، فلذلك طمع فيها التتار، فبينما هم آمنون في بلادهم، وقد تفرقوا ونزلت كل قبيلة في موطنها، وهم آمنون يظنون أن التتار لن يتعرضوا لهم كما وعدوهم، إذا بالتتار يشنون الغارات على بلاد القفجاق، ويكثفون الهجمات عليهم إلى مدنهم وقراهم، وصارت الحرب أشبه بحرب إبادة يأتون عليهم قبيلة قبيلة، ومدينة مدينة، حتى كادوا أن يفنوهم، وأثخنوا فيهم قتلًا وتشريدًا، وأخذوا من أموالهم أضعاف أضعاف ما أعطوهم حين فرقوهم عن اللان.

ومن ثم نزل التتار في بلاد القفجاق للاستراحة، واستمروا أشهرًا يريحون في بلادهم، ويرعون مواشيهم، وكانت بلادا طيبة المرعى متنوعة المناخ فيها أماكن

باردة في الصيف، وأماكن حارة في الشتاء، ثم واصلوا المسير في بقية بلاد القفجاق حتى وصلوا إلى مدينة **(سُودَاقَ)** في شبه جزيرة القرم وتقع حاليا في أوكرانيا، وهي حاضرة مدنهم، ففر الناس منهم إلى الغياض، ورؤوس الجبال ومنهم من ركب البحر إلى البلدان المجاورة حتى دخلت سنة عشرين وستمائة.

[غزو بلاد الروس]

لما دخلت سنة عشرين وستمائة، بدأ التتار بالتحرك نحو بلاد الروس، والروس ومن حولهم يدينون بالنصرانية على المذهب الأرثوذكسي، بينما كانت أوروبا تدين بالمذهب الكاثوليكي، وكان بين الكنيستين صراع كبير، فتحرك التتار، وبدأوا يتوغلون في بلاد روسيا، والعجيب أن بلاد روسيا بلاد واسعة جدًا، ومساحتها مثل مساحة اليمن قرابة خمسة وثلاثين مرة، فإن مساحتها سبعة عشر مليون كيلومتر مربع.



وهي أكبر دولة على الإطلاق بل أوروبا كلها مجتمعة لا تساوي نصف روسيا، ومع ذلك توغلوا في هذه البلاد، واستطاعوا خلال سنة واحدة، أن يستولوا على الجزء الغربي كاملا من بلاد روسيا، وليس هذا فحسب بل لما أكملوا الجزء الغربي من بلاد روسيا دخلوا إلى أوكرانيا، واستولوا على بلاد أوكرانيا، ثم بعد ذلك دخلوا إلى بولندا، وصاروا يزحفون في قلب أوروبا، فأخذوا بولندا، وبلاد المجر، وكرواتيا، وبعض المدن الأخرى هنالك حتى صار الجنوب الغربي من روسيا، والنصف الشرقي من أوروبا مع نصف العالم الإسلامي تقريبا بيد التتار وهذا كله خلال زمن قياسي جدا ما بين سنة سبعة عشر وستمائة إلى سنة عشرين وستمائة في سنتين وبضعة أشهر، وهذا شيء لم يتفق لأحد حتى الإسكندر المقدوني الذي قيل فيه بأنه ملك العالم في زمانه فقد استمرت حروبه أكثر من عشر سنوات، ولم يصفو له إلا أقل من هذه المساحة، وهؤلاء أخذوا هذه المساحة كاملة إضافة إلى بلادهم كل هذا خلال هذه السنوات اليسيرة، فكان هذا من عجائب الدهر، ومن الابتلاءات العظيمة التي ابتلى الله تعالى بها الناس في ذلك الزمان مسلمهم وكافرهم.

ومن عجيب مكرهم أنهم حين ساروا إلى بلاد الروس، وقد علموا بكثرة الروس وسعة بلادهم، واستعدادهم للقتال، وأنه لا يمكن هزيمتهم إلا بحيلة

فكان ما ذكره ابن الأثير رحمه الله بقوله: "ثم إنهم ساروا سنة عشرين وستمائة إلى بلاد الروس، فسمع الروس وقفجاق خبرهم، وكانوا مستعدين لقتالهم، فساروا إلى طريق التتر ليلقوهم قبل أن يصلوا إلى بلادهم ليمنعوهم عنها، فبلغ مسيرهم إلى التتر، فعادوا على أعقابهم راجعين، فطمع الروس وقفجاق فيهم، وظنوا أنهم عادوا خوفا منهم وعجزا عن قتالهم، فجدوا في اتباعهم، ولم يزل التتر راجعين، وأولئك يقفون أثرهم، اثني عشر يوما.

ثم إن التتر عطفوا على الروس وقفجاق، فلم يشعروا بهم إلا وقد لقوهم على غرة منهم، لأنهم كانوا قد أمنوا التتر، واستشعروا القدرة عليهم، فلم تتكامل عدتهم للقتال إلا وقد بلغ التتر منهم مبلغا عظيما، فصبر الطائفتان صبرا لم يسمع بمثله.

ودام القتال بينهم عدة أيام ثم إن التتر ظفروا واستظهروا، فانهزم قفجاق والروس هزيمة عظيمة بعد أن أثخن فيهم التتر، وكثر القتل في المنهزمين فلم يسلم منهم إلا القليل، ونهب جميع ما معهم، ومن سلم وصل إلى البلاد على أقبح صورة لبعد الطريق والهزيمة، وتبعهم التتر يقتلون وينهبون ويخربون البلاد حتى خلا أكثرها، فاجتمع كثير من أعيان تجار الروس وأغنيائهم، وحملوا ما يعز عليهم وساروا يقطعون البحر إلى بلاد الإسلام في عدة مراكب، فلما قاربوا المرسى الذي يريدونه انكسر مركب من مراكبهم فغرق إلا أن الناس نجوا".اهـ

قلت: فتدبر قضاء الله وحكمته التي تحار فيها العقول فإنه لا يعلم ما وراء هذا البلاء من المصالح إلا الله سبحانه وتعالى، فنعوذ بالله من سوء الحال.

[غزو بلاد البلغار]

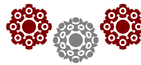
ثم إن التتار بعد أن أخذوا جزءا كبيرا من بلاد الروس حولوا وجهتم نحو بلاد أوروبا، فتوجهوا أولا إلى بلاد **(الْبُلْغَارِ)**، وأصولهم سلافية تركية والبلغار حاليا تعرف بجمهورية بلغاريا تقع جنوب شرق أوروبا.

وكان **(الْبُلْغَارُ)** قد علموا بما فعله التتار في هذه الممالك، وكيف سيطروا على هذه الدول دولة دولة، وبهذه السرعة الخاطفة، وكيف أنَّهم لم يقف أمامهم شيء، وكيف فتكوا بالنصارى في بلاد روسيا بما لا يقل عن فتكهم بالمسلمين في بلاد الإسلام، وكانت البلدان التي نهبوها وأحرقوها وقتلوا الآلاف من أهلها في بلاد الإسلام قد هدأت نسبيًا في هذه الفترة ، ورجع بعض أهلها إليها، وبدأوا يعمرونها شيئًا فشيئًا، فلما اقترب التتار من بلاد البلغار رأى البلغار أن قتال هؤلاء لا بد فيه من حيلة وخطة توقع بهم، وأن المواجهة المباشرة غير مجدية، لا سيما والبلغار ليسوا ذوي عدد كبير، فاتفق رأيهم على عمل حيلة على التتار.

وكان التتار بعد معاركهم السابقة يظنون أنَّه لن يقاومهم أحد لما قد قُذف في قلوب الناس من الرعب، فوصل التتار إلى بلاد البلغار، وكان البلغاريون قد فعلوا كمائن، فجهزوا جيوشهم، وجعلوها كمائن على جوانب الطريق الرئيسية

التي تمر عليها جيوش التتار، فجعل التتار يدخلون بلاد البلغار، ويتوغلون ولا يجدون أحدا أمامهم يقاومهم، والبلغار يقاتلونهم بمجموعة يسيرة وينسحبون حتى استدرجوهم إلى أوساط بلادهم، فبينما هم في تقدمهم لم يشعروا إلا بالكمائن التي وضعها البلغار على يمين وشمال الطرق قد انقضت عليهم، وصاروا خلفهم، وأحاط بهم البقية من كل جهة على حين غرة، فأحاطوا بهم ووضعوا فيهم السيف، وأمعنوا فيهم قتلًا، وانتقم الله جل وعلا للمظلومين من هؤلاء الفجرة على أيدي هؤلاء النصارى، فقتلوا فيهم قتلًا ذريعًا، ولم ينج منهم إلا قرابة أربعة آلاف استطاعوا بعد إياس أن يفروا على وجوههم تاركين كل شيء وراءهم، حتى تلك البلاد كلها التي قد أخذوها، وانطلقوا إلى جنكيز خان إلى بلاد (**الطَّالقَانِ**) في أفغانستان حاليا حيث كان مستقرًا هناك.

وهذا البلاء الكبير والفساد العريض إنما حصل من هذه الطائفة التي يقال لها التتار المغربة، أما الفرقة الأخرى التي يقال لها المشرقة، وهي التي وجهها اللعين جنكيز خان نحو المشرق، فلم تكن تقل سوء عن هذه الفرقة كما سيأتي إن شاء الله .



التتر المشرقة

لما جاءت التتر الأخبار أن سلطان الدولة الخوارزمية (**محمد بن خوارزم شاه**) فر باتجاه (**بحر طبرستان**) كما تقدم، ومات في تلك القلعة وسط البحر، وانتهى أمره انساح التتار في أراضي المملكة الخوارزمية للسيطرة عليها، وكان المقصد الأهم لجنكيز خان أن يصل إلى (**خوارزم**) عاصمة الدولة الخوارزمية، فبدأ بالتحرك، فأرسل أولًا جيشًا إلى مدينة (**بَلْخَ**).

ومدينة (**بَلْخَ**) تقع في أفغانستان حاليًا، فلما وصل جيش التتار إلى مدينة بَلْخَ، وعلم أهل بَلْخَ بما جرى للسلطان، وأنهم لا قوة لهم على قتال التتار، أرسلوا إلى جيش التتر يطلبون المصالحة، ويبذلون لهم الأموال، وأن يجعلوا عندهم حامية عسكرية يحكمون أهل (**بَلْخَ**).



بلخ



فوافق التتار على ذلك، وتم الصلح على هذا، وتحركوا باتجاه الطالقان، وهي تقع حاليا في جهة الشمال من أفغانستان، وهي بلاد واسعة، فقاتلهم أهلها وقاموا بعض المقاومة، فلم يقووا على الاستمرار في المواجهة فاقتحمها التتار، وتحصن في قلعتها جملة كبيرة من المقاتلة، وكانت قلعة كبيرة منيعة لا ترام علوا وارتفاعا، يقال لها:(**مَنْصُورْكُوهْ**).

فرفضوا الاستسلام، واستعدوا لمواصلة القتال، والاستمرار في المقاومة، واستمروا مع التتار في قتال، ومراماة وضرب التتار الحصار على القلعة؛ لأنه إذا لم تسقط هذه القلعة لا يمكن السيطرة الكاملة على بلاد الطَّالْقَانَ، وهي أهم قلعة في بلاد الطَّالْقَانَ، فلذا جد التتار في حصارها لمدة ستة أشهر، والقلعة صامدة بمن فيها، فلم يقدروا على اقتحامها، ولا على هدم سورها؛ بل كلما هدموا بعض الأماكن في سورها بالمنجنيقات سارع أهلها إلى إصلاحه، والرماة والجيوش على الأسوار يقاتلون كأشد القتال، فلم يستطع التتار أن يحققوا شيئا خلال ستة أشهر مع الحصار الشديد والرمي المتواصل.

فلما رأوا أنَّه لا يمكنهم أن يتجاوزوها كما تجاوزوا غيرها، وإذا تركوها وراءهم فإن الأهالي سيجتمعون خلف من بها القادة، لا سيما وقد اجتمع فيها كبار القادة مع جيوشهم الذين عندهم من الصلابة والقوة والشجاعة ما منعهم من الاستسلام رغم طول الحصار، فزادت هذه الأمور من مخاوف التتار؛ لذا قاموا بمراسلة جنكيز خان يخبرونه بأمر هذه القلعة، فغضب جنكيز خان وتحرك بنفسه ومعه جملة كبيرة من جيشه مددا لمن هنالك.

وتحرك باتجاه قلعة الطالقان وانضم إلى المحاصرين لها، واستخدم أسرى المسلمين في قتال إخوانهم، ومن امتنع منهم أمر بقتله، وحاول أن يشدد الحصار ويكثف الضرب؛ ولكن لا فائدة فإن أسوارها كانت عالية، وأحجار المنجنيقات لا تصل إلى داخل البلد، فلم يحصل كبير ضرر، وسرعان ما يصلحون ما تفسده هذه المنجنيقات، فقام هذا الخبيث لعنه بحيلة، وذلك أنه أمرهم بإصلاح ألواح كبيرة من الخشب، فكان يجعل طبقة من التراب، ويجعل فوقها طبقة من الخشب، وطبقة من التراب، وطبقة من الخشب حتى كوّن برجا كبيرًا بهذه الطريقة، ولم يجعلوه كله خشبًا؛ لأنَّه لو كان كله من الخشب فربما يُرمى ببعض النفط وبعض النار فيحترق كله، كما كان يحصل في بعض المعارك؛ لكن جعله طبقة من تراب، وطبقة من خشب بحيث لو رُمي بشيء يحترق الخشب الذي أصابته النار فقط، ولا يتعدى إلى ما تحته، أو إلى ما فوقه بسبب التراب، فجاء بهذه الحيلة، وهذا يدل على دهائه قبحه الله، واستطاع أن يصنع بهذه الطريقة

برجًا كبيرًا مستغلًا ما معه من الكثافة العددية، وملزما أهل الطالقان من أهل المدينة التي قد صار مسيطرًا عليها أن يعملوا مع جيشه في إعداد هذا البرج.

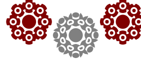
فإذا بأهل القلعة يتفاجؤون ببرج كبير عال أمام الأسوار؛ بل قد صار ارتفاعه يعلو الأسوار، وعلى هذا البرج بعض المنجنيقات التي ترمي إلى وسط القلعة مباشرة، واشتد الرمي



على أهل القلعة، وعجز من فيها عن المقاومة بعد أن أبلوا بلاء حسنا، وأعذروا أمام الله جل وعلا لكن الأمر اشتد عليهم، وصار فوق طاقتهم، فلما رأوا أن القلعة ستسقط ولا بد حاولوا أن يقوموا ببعض المقاومة لكن الضرب كان اشد عليهم.

قال ابن الأثير: "فاجتمع من بها وفتحوا بابها وخرجوا منها، وحملوا حملة رجل واحد، فسلم الخيالة منهم ونجوا وسلكوا تلك الجبال والشعاب، وأما الرَّجَّالَةُ، فقتلوا، ودخل التتر القلعة وسبوا النساء والأطفال، ونهبوا الأموال والأمتعة".اهـ.

وفرَّ من فرَّ من الأهالي، ومن أدركه التتار قضوا عليه، فلما رأى الخبيث جنكيز خان ما حصل عليه، وعلى جيشه من الخسائر مع طول المدة مع شجاعة المقاومين، أصدر أوامره إلى جيشه بقتل سائر من بقي من أهل القلعة، وألا يتركوا منهم صغيرًا ولا كبيرًا ولا طفلًا ولا امرأةً، فأبادوا من في القلعة، ثم بعد أن تركها خرابًا يبابًا تحرك لعنه الله من الطالقان بالجيش يقوده بنفسه متوجها إلى مدينة مرو.



فاجعة مرو



تعتبر مدينة (مَرْو) من أعظم حواضر مدن الإسلام في ذلك الحين، ومن أكبر المدن سكانًا وحضارةً، ويتوارد إليها التجار من كل مكان، فكانت من المدن العظيمة في بلاد الإسلام في زمن الغزنويين، ثم في زمن السلاجقة، ثم في زمن الخوارزميين، فكانت من أعظم المدن وأوسعها تجارة وازدهارا ومساحة.

وتقع حاليا في جمهورية تركمانستان على ضفاف نهر الْمَرْغَابِ، وهي العاصمة الاقتصادية لتركمانستان، ويقال لها أيضا **(مَرْو الكبرىٰ)** و**(مَرْو الشَّاهْجَانِ)**، ومعناها: روح الملك، لأنَّ **(مَرْو)** معناها: مرج، و**(الشَّاهْ)**: الملك و**(جَانِ)**: نفسه أو روحه.

ولما كانت مرو بهذه الأهمية قاد جنكيز خان جيشه متوجهًا إليها؛ لأنَّه كان يرى أن مرو هي المفتاح إلى خوارزم، فإن سقطت مرو و نَيْسَابُورَ سقطت خوارزم، فتوجه هذا الخبيث إلى مدينة مرو، وكان أهل مرو قد جاءتهم الأخبار

بأن جنكيز خان متوجه إليهم، وبلغهم ما فعله في الطالقان، وما فعله بغيرها من البلدان، وكان من فر من جيش محمد بن خوارزم شاه، ومن فر من غيرها من البلدان، قد تجمعوا في مرو، فاجتمع فيها من الجيوش والمتطوعة مئتا ألف مقاتل.

فلما بلغهم تحرك التتار نحوهم، تشاوروا في الطريقة التي يواجهون بها جيش التتار، فانتهى رأيهم أنَّهم لا ينتظرون داخل البلد، وإنَّما يخرجون لمقاتلة التتار خارج البلد، فإن انتصروا فذلك ما يرمونه، وإن هزموا تبقى البلدة مصونة والنساء والأطفال والأموال محروزة، وكان هذا رأيًا سديدًا، وخطة نافعة، فخرجوا وعسكروا بظاهر مرو، فجاء جنكيز خان بجيوشه، والمسلمون قد اجتمعوا بهذا العدد؛ لكن لم تكن عندهم تلك الروح المعنوية للقتال؛ لما كانوا يسمعونه من الأخبار والوحشية التي يستخدمها جنكيز خان، والجيش التتري فداخلهم من الرعب ما داخلهم، وأصابهم الوهن، وضعف روح الجهاد والمقاومة عندهم مع كثرتهم.

لذلك لما وصل التتار حصلت جولة من الحرب، وقاتل المسلمون؛ لكنه قتال المنهزم من الداخل، والتتار يقاتلون بقوة ووحشية، فلم يقوى المسلمون على هجمات التتار؛ لكثرتهم من جهة، وشهوة الانتصارات المتتالية من جهة، فما استطاع المسلمون أن يصبروا، فأصابهم الفشل، وأسرع إليهم الضعف،

فتصدعت صفوفهم، وتفرقوا لا يلوون على شيء كل يطلب لنفسه الخلاص، فتخطفتهم سيوف التتار حتى أفنوهم عن آخرهم، ولم يبق منهم مُخبِر.

فلما فرغ التتر من أمر الجيش المقاوم توجهوا إلى مدينة مرو، فلما اقتربوا من أسوارها إذا بهم يرون الأبواب مغلقة في وجوههم، وأهل مرو على الأسوار قد شاهدوا تلك المجزرة المروعة لمائتي ألف مسلم كان المعول عليهم بعد الله، لكنهم أُبيدوا تماما في ساعات معدودة في مصيبة من أعظم فواجع الدهر وغرائب الزمان، فإنا لله وإنَّا إليه راجعون.

فلما رأى التتار الأبواب مغلقة ضربوا عليها حصارًا خانقا، وحاول أهل مرو أن يقاتلوا ويدافعوا بعض المدافعة، وحاول التتار أن يقتحموا الأسوار، فلم يستطيعوا، فاستمر الحصار والقتال ثلاثة أيام، أولئك يقاتلون من خارج الأسوار، وأولئك يقاتلون من فوق الأسوار، ولم يستطع التتار أن يحققوا تقدما، فلجؤوا إلى الحيلة، وأرسلوا إلى أمير مرو ألا تهلك نفسك، واخرج إلينا وسلم لنا المدينة، وسنجعلك أميرا عليها وننصرف عنكم ولا نضركم بشيء، فصدق هذا المسكين، ولم يعتبر بما حصل لمن قبله، وما اعتاده هؤلاء من نقض العهود.

وهذا إن دلَّ على شيء، فإنما يدل على ضعف الإيمان، والغفلة السحيقة عن تدبر العواقب مع الحرص على الحياة، ولو كان حبل النجاة وهمًا، وإلا فالمؤمن الفطن يعتبر بغيره.

فصدقهم الغافل، واتفق مع أهل البلد على ذلك، وخرج إليهم في اليوم الرابع يطلب منهم أن يؤمنوه، ويؤمنوا أهل البلد، فاسقبلوه بحفاوة وإكرام حتى يأمن ويطمئن، ثم قالوا له: نريدك أن تكتب لنا أسماء التجار، وأهل الحرف وأهل الصنائع؛ ليستعين بهم الملك في أموره، فكتب لهم أسماء كبار التجار وأهل الصناعة والحِرَف، فطلبهم الخبيث، فخرجوا إليه جميعا، أما أهل الحرف وأهل الصنائع، فاصطفى منهم الحذاق، وأرسلهم إلى **(منغوليا)** حيث بلاده؛ ليستفيد منهم هنالك، وأما التجار فإنهم قاموا بتعذيبهم وبالغوا وتفننوا في تعذيبهم؛ ليستخلصوا منهم الأموال حتى يعترف كل تاجر بجميع أمواله ومخزوناته واستلبوا من أموالهم جميعا ما لا يحصر، وأما بقية وجهاء الناس الذين قد أخرجوهم على أساس أنهم يلتقون بملك التتار؛ ليتعرف عليهم ويكرمهم بالعطايا والولايات كما وعدهم.

فخرج هؤلاء جميعًا، ولم يبق في المدينة إلا العامة، فلما تأكد للفاجر خلو المدينة ممن يقود الناس ويسوسهم ويجهزهم أمر جنكيز خان أن يقيدوا ويؤسروا جميعًا، ونصب له في ساحة المدينة كرسيا من ذهب، وجلس عليه، وجعل يأمر جنوده أن يأتوا بهؤلاء الوجهاء من الجند والقادة والأمراء والقضاة،

ويقتلونهم بين يديه جماعة جماعة، واستمر على هذا الحال ثلاثة أيام، يقتل كبار القوم وصفوة أهل البلد، فما أصبح اليوم الرابع إلا وقد فرغ من هذه الفعلة الشنيعة، والفاجعة الأليمة غدرًا وخيانة.

والعجيب جدا في الأمر أن كان فيهم القضاة والأمراء والوجهاء، ولم يتفطنوا لما يحاك لهم، ولم يتأملوا ما حل بغيرهم من النَّكال، والله المستعان.

ويا ليت الأمر انتهى إلى هنا فحسب، بل عظمت الفاجعة حين أصدر الملعون أوامره إلى جيشه، أن يقتلوا كل من في البلد من صغير وكبير ، وبلاد مرو مدينة كبيرة يسكن فيها مئات الآلاف من الناس عامتهم من أهل الإسلام، فانطلق أولئك الفجرة بأشد ما يكون من القسوة، وأشد ما يكون من الهمجية والوحشية يقتلون من أمامهم صغيرا وكبيرا امرأة وعجوزا طفلًا ورضيعا لا يتركون أحدا إلا قتلوه في إبادة جماعية لكل سكان المدينة بلا استثناء ففعلوا فيها من الفضائع التي يشيب لها الرأس ما تناسى به المسلمون المصائب التي حصلت قبل ذلك، فإن الناس استعظموا الأمرعندما قتل التتار في بخارى خمسين ألفا، وفي سَمَرْقَنْدَ ثمانين ألفا، فكان هذا عددا كبيرا مستفظعا؛ لكن كانت القاصمة الكبرى، والفاجعة العظمى هي ما حصل في مدينة مرو، حيث أحصوا من قتل في مرو سبع مئة ألف إنسان، وربما كان العدد أكثر من ذلك، والله المستعان، وإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

وكانوا ربما ضربوا أحدهم بالسيف ضربة فلا يموت، وبعضهم كان يرتمي بين الجثث على أنه ميت، فبعد أن قتلوا هذه المقتلة حملوا ما استطاعوا أن يحملوه من الغنائم والنفائس، وما لم يقدروا عليه، وما لم يرغبوا فيه أشعلوا فيه النار وأحرقوه، ثم خرجوا تاركين المدينة ليس فيها إلا قتيل، أو حريق في منظر مؤلم مفزع، كأن لم يكن بها قبل إنسان ولا حيوان ولا حضارة ولا ملك والحال كما قيل:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ... أنيس ولم يسمر بمكة سامر

ولله في ذلك حكم وأسرار: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [سورة فصلت:٤٦].

ثم واصلوا زحفهم فتحركوا باتجاه مدينة نَيْسَابُور؛ ليفعلوا بها كما فعلوا بمدينة مرو، وجاءت الأخبار إلى جنكيز خان لعنه الله أن بعض من كان في مرو نجا من القتل فإن بعضهم يضرب بالسيف ضربة غير قاتلة وربما رمى نفسه بين القتلى فلما ذهب التتار قاموا وكتب الله لهم بقية حياة، فجاءت الأخبار أنه قد نجا أناس كثر بهذه الطريقة، فغضب جنكيز خان؛ فإنه كان يريد أن يقضي عليهم بحيث لا يبقي منهم أحدا قبحه الله.

ثم توجه إلى مدينة نَيْسَابُور، وحصرها خمسة أيام، وبعد اليوم الخامس استطاع أن يقتحمها، ويدخل المدينة بجيشه، وفعل فيها كما فعل بأهل مرو، فقتل الصغار والكبار والرجال والنساء، ولم يبقي أحدا، واحتياطا في جريمته

ووحشيته قبحه الله، فإنه أصدر الأوامر إلى جنوده أن من قتلوه يفصلون رأسه عن جسده؛ حتى يتأكدوا تماما أنه لن يبقى أحد حي قبحه الله.

فكانوا يفعلون ذلك حتى لا يبقى من يعيش كما حصل في(**مرو**)؛ إلا أن أهل نَيْسَابُور لم يكونوا بتلك الكثرة مثل أهل مرو، ومع ذلك فقد قتل عشرات الآلاف في (**مدينة نَيْسَابُور**) وتوالت الفجائع، والمفزعات على أهل الإسلام في هذا البلاد وليت الأمر توقف عند هذا فحسب، ومثل هذا الكلام يفتت الأكباد والله؛ ولكن الذي نريده أن نعتبر بما حصل، وأن نعلم أننا إذا لم نحفظ حدود الله تعالى ونحفظ أوامره ونواهيه لربما سلط علينا من لا يرحمنا ولا يعرفنا.

وقد كان من دعاء النبي عليه الصلاة والسلام، ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يرحمنا، فالمؤمن إذا لم يتق الله ويخف ربه سبحانه وتعالى عاقبه بمن شاء من عباده، كما تقدم معنا أثر الحسن البصري: "من عصى الله وهو يعرفه سلط الله عليه من لا يعرفه".

وبعد أن قضوا على (**مدينة نَيْسَابُور**) تحركوا باتجاه (**مدينة هَرَاةَ**)، وصالحهم أهلها على شيء، فتركوا هَرَاةَ، وتوجهوا نحو (**مدينة خوارزم**)، وهي أعظم مقصودهم فهي عاصمة الدولة الخوارزمية، والتي تعتبر أعظم مدينة للمسلمين بعد مدينة بغداد من حيث الازدهار والقوة والاقتصاد والتجارة؛ لأنَّها عاصمة أعظم سلطنة بعد الخلافة، وهي (**السلطنة الخوارزمية**)، فوصلوا إلى مدينة

خوارزم، وقد وصلتهم الأنباء، والفجائع إلا أن أهل خوارزم كانوا أناسا أشداء، وما قضى الله تعالى كائن لا محالة؛ فالمسألة ليست الشجاعة وحدها، وليس القتال وحده، أصل الأمر قوة الإيمان أو ضعفه، قوة الارتباط بالله أو بغيره.

وأهل مدينة خوارزم كانوا موصوفين بالشجاعة الفائقة حتى كان يقاتل رجالهم ونساؤهم وأطفالهم كلهم مقاتلة يتدربون على القتال لكثرة القتال الذي يحصل بينهم، وبين ما يليهم من الممالك، فكان الكل يقاتل لذلك لاقى التتار صعوبة شديدة واستمروا قرابة خمسة أشهر، وهم يحاصرون مدينة خوارزم، ولم يستطيعوا أن يقتحموها وكلما هدموا بعض أسوارها أصلحه أهل البلد، وكلما حاولوا أن يدخلوا من مكان تصدى لهم أهل البلد، فلم يزالوا يقاتلونهم حتى يخرجوهم، واشترك في القتال جميع الناس الرجال والنساء والأطفال والعبيد، فصعب الأمر عليهم، فعندئذ أرسل جنكيز خان لعنه الله إلى بقية جيشه يطلب قدوم أكثرهم فقدموا بأعداد كثيرة، وانضموا إلى جيش جنكيز مع كثرته أصلا فصاروا عددا هائلًا، وذلك أنه رأى لعنه الله أن هذه المدينة لن تسقط إلا بالمكاثرة بكثرة الجيش، وتوالي الهجمات التى لا تتوقف بحيث يحصل الإرهاق، والتعب على المدافعين عن المدينة، وفعلًا جاءته أمداد كثيرة جدا، ورتبهم في هجمات متتابعة فبدأوا بهجمات متتابعة والمنجنيقات تضرب، والجيوش تهجم كلما كلَّ الأولون تراجعوا وجاء من ينوبهم، وأهل خوارزم

ليس معهم مدد، وقد قتل منهم من قتل، واشتد فيهم الجوع للحصار المستمر لأشهر، ومع ذلك فقد صبروا صبرا عظيما فلم يستطع التتار أن يفعلوا كبير شيء

حتى فتحت في بعض أطراف المدينة، فجوة من السور بعد عناء شديد وقتال متواصل وهجمات لا تكاد تنقطع، فلما فتحت تلك الفتحة استطاع قطعة من جيش التتار أن يدخل من هذه الفجوة، فتلقاهم المسلمون من أهل المدينة، وجالدوا دونه أشد المجالدة لكن التتار غالبوهم بكثرتهم، وتدفقت أفواج الجيوش التتارية على ذلك المكان الذي فتح، فكاثروا المسلمين وغلبوهم بكثرتهم، وجعلوا يدخلون المدينة محلة محلة، والمسلمون يبذلون جهدهم في قتالهم، وكلما أخذ التتار محلة قاتلهم المسلمون على التي تليها واستحر القتل جدا في المسلمين، وفي التتار لكن التتار تأتيهم الأمداد والمسلمون ليس لهم مدد مع الإنهاك، والتعب الشديد ومع ما قد أصابهم من كثرة الحروب المستمرة والهجمات المتتالية، وقلة الزاد والمؤونة؛ لكنهم مع ذلك لم يستسلموا بل استمروا بالقتال حتى قاتل الرجال والنساء، وكل من يقدر على حمل السلاح، كأشد القتال واستمر الأمر حتى استطاع التتار بعد القتال المستمريوما بعد يوم وهم في كل وقت يأخذون جزءًا من المدينة والمسلمون يقاتلونهم على ما دونه ولا ينسحبون حتى يقتل من يتلقاهم عن آخرهم، ويأتي فوج آخر فيقاتلون حتى يموتون عن آخرهم حتى أفنى التتار المسلمين، واستقووا عليهم مع أنَّه قد قتل

من التتار عدد كثير جدا، فلما اشتد الأمر وضعف المسلمون، وقتلت مقدمات المسلمين واستحر القتل في أهل الإسلام، وأفنى التتار المسلمين قتلا ذريعًا، أصدر جنكيز خان لعنه الله أوامره ألا يبقوا على أحد، وذلك منه لعنه الله تغيظًا وانتقامًا لما رأى من شدة المقاومة، وكثرة القتلى في جيشه بما لم يحصل لهم قبل ذلك، فلما قُتل أكثر المسلمين سارع التتار إلى من بقي، فقتلوهم قتلا ذريعًا إلا من اختبأ في بعض السراديب، وفي بعض بيوت التبن، وفي بعض الحفر، وكان هذا قد حصل في بخارى وسمرقند حيث اختبأ بعضهم في بعض الأماكن، وكتب الله لهم النجاة.

إلا أن جنكيز خان كان خبيثًا إلى درجة لا توصف، وفيه من الإجرام ما لا يتوقع.


نهر جيحون

فلما رأى أنَّ المقاومة في هذه البلدة، قد قتلوا من جيشه عددا كثيرا أراد أن ينتقم منهم شر انتقام، فقام بإجرام لا يُعلم مثله لا في سابقة التاريخ ولا في لاحقته إلى يومنا هذا، فبعد أن أفنى أهل المدينة قتلا إلا من اختبأ، كان هناك نهر يسمى (**نهر جيحون**)، وكان هذا النهر يمر من جانب مدينة خوارزم، وله منافذ تدخل

إلى المدينة؛ إلا أنَّها مغلقة لا يفتحون منها إلا بقدر ما يحتاجونه، فقام هذا الفاجر وأمر بعض جنوده أن يفتحوا هذه القنوات المغلقة، ففتحوا القناة الكبيرة، فتدفق ماء النهر على المدينة بقوة، فطمها عن بكرة أبيها، فمن لم يمت بالسيف مات بالغرق، فلم يبق من أهل خوارزم أحد لا صغيرا ولا كبيرا لا عمران ولا بنيان، وصارت المدينة كأنها نهر جار، وكأن لم يكن بها بنيان، ولا أناس ولا صناعة ولا تجارة، ولا ازدهار وإلى الله المشتكى، وصار الحال كما قيل:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ... أنيس ولم يسمر بمكة سامر

قال ابن الأثير رحمه الله: "وهذا لم يسمع بمثله في قديم الزمان وحديثه نعوذ بالله من الحور بعد الكور، ومن الخذلان بعد النصر ،فلقد عمت هذه المصيبة الإسلام، وأهله فكم من قتيل من أهل خراسان وغيرها؛ لأن القاصدين من التجار وغيرهم كانوا كثيرا مضى الجميع تحت السيف، ولما فرغوا من خراسان، وخوارزم عادوا الى ملكهم بالطالقان".اهـ

فتركها خرابًا يبابًا، صار الناظر يراها يظن أنه لم يكن في هذا المكان مدينة! فحسبنا الله ونعم الوكيل من هذه المصيبة العظيمة التي نزلت بأهل الإسلام في ذلك الزمان، بينما هي مدينة كبيرة عظيمة بين عيشة وضحاها، إذا هي لا شيء، بفعل فاعل تنتهي وينتهي أهلها وكأن لم تكن شيئا!

فكانت هذه المصيبة أعظم مصيبة مرت على المسلمين منذ خروج التتار في عام سبعة عشر إلى هذا التاريخ، وكان هذا في عام تسعة عشر وستمائة، ثم بعد ذلك انساح جنكيز خان لعنه الله من مدينة خوارزم، واستكمل السيطرة على مملكة خوارزم كاملة في عام ستمائة وعشرين هجرية، والمسلمون في أشد ما يكونون من الضعف، والشيء المؤلم حقا مع أن ما تقدم أمور مؤلمة تفتت الأكباد، وتدمي القلوب، لكن الذي يؤلم فعلا أنه في ظل هذه الأحداث، وفي الوقت الذي تصل فيه مثل هذه الأخبارالمفزعة وتُتناقل فيه الفجائع المروعة وتصل إلى مسامع المسلمين في بلاد الإسلام شرقًا وغربًا، إلا أن عامة المسلمين لم يستيقظوا من سباتهم، ولم يتنبهوا من غفلتهم، بل زادت فيهم الغفلة، وصار عامتهم يدور حول بطنه وفرجه في سائر الأماكن التي لم يصل إليها التتار، كبلاد الشام ومصر والعراق والحجاز ونجد وبلاد المغرب وبلاد الأندلس.

وملوك المسلمين في هذه البلاد التي سلمت من غزو التتر يتنازع بعضهم مع بعض، يتقاتل الأخ مع أخيه، وابن العم مع ابن عمه، والجار مع جاره، وكل سلطان يحاول أن يتوسع على حساب السلطان الآخر، فوجهوا جيوشهم إلى بعضهم بعضا، ولم يحاولوا أن يجمعوا هذه الجيوش لإيقاف هذا الزحف التتري، وهذا الموج الهائل الذي يحمل الإجرام بكل معانيه؛ بل اكتفوا بسماع الفجائع التي يرتكبها التتار في سائر ممالك الإسلام، وهم منشغلون بملذاتهم

ويقتل بعضهم بعضا وينازع بعضهم بعضا والتتار على مقربة منهم حتى جاء الدور على أكثرهم والله المستعان، وصدق الله جل وعلا إذ يقول: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال:٤٦].

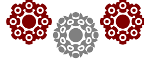
ومع هذا كله فإن مع العسر يسرا كما وعد ربنا في كتابه ولكنه يكون في الوقت المناسب الذي يختاره الله ويراه مناسبا ، وعلى قدر صلاح أهل الإسلام يتمخض من يقود المسلمين إلى الخير، وعلى قدر فسادهم يتمخض عن فسادهم من يقودهم إلى الشر، ويتسلط عليهم أعداؤهم، فكان المجتمع المسلم آنذاك إلا ما رحم ربي خاوٍ لا توجد عنده أدنى مقومات النصر، نعم قاتل بعض السلاطين، قاتلت بعض القبائل قاتل بعض أهل المدن، لكن لم يكن القتال لإعلاء كلمة الله، لم يكن القتال غيرة على الدين؛ إنما كان حبا في الحياة دفاعا عن أنفسهم، يريدون أن لا يقتلوا ألا يموتوا، فلذلك قاتل كثير منهم، وإن وجد منهم من كان يقاتل لله وحمية لدينه وغيرة على عرضه، لكن كان هذا قليل جدًا، وإذا كثر الخبث حصل الهلاك، كما قال عليه الصلاة والسلام لما سألته أم المؤمنين زينب رضي الله عنها كما في الصحيحين حين قال عليه الصلاة والسلام، بعد أن قام ذات ليلة من نومه فزعا قائلا: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ**» **وَعَقَدَ سُفْيَانُ بِيَدِهِ عَشَرَةً، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ:** «**نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ**»

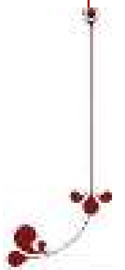
متفق عليه، فلما كثر الخبث في بلاد الإسلام سلط الله عليهم هذه الأمة الهمجية الوحشية التى لم ترقب في أحد ممن سواهم إلًّا ولا ذمة، فقتلوا مئات الآلاف من أهل الإسلام، ومئات الآلاف من النصارى في بلاد أوروبا وروسيا، وكان همهم سفك الدماء فحسب، ولا يهمهم أن تكون تابعا لهم، أو محاربا معهم، ولا يستقرون في مدينة يدخلونها، وإنما يقتلون أهلها ويحرقونها، وينطلقون إلى غيرها، فسطروا الهمجية بكل معانيها وبكامل صورها، لذلك لا يعلم في التاريخ منذ خلق الله آدم إلى يومنا هذا أناس بهذه الهمجية، وهذه الوحشية مثل هؤلاء، والله المستعان.

وهم بلاء ابتلى الله بهم عباده؛ لما حصل من البلاء والشر والإعراض والتوسع فيما يغضب الله سبحانه وتعالى، فينبغي علينا دائما أن نجعل قول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد:١١]. نصب أعيننا.

وسبحان الله كأن التاريخ يعيد نفسه!! فكم نرى اليوم في بلاد الإسلام من تنازع على الدنيا أضعف الأمة، وهد كيانها تتنازع الأحزاب، يتنازع أهل البدع يتنازع أهل الشر، ويتنازع الملوك والرؤساء والطوائف، وتحرق بلاد الإسلام وتدمر، والأعداء يشجعون ويدعمون ذلك، ولا يلتفت المسلمون إلى أعدائهم إنما يلتفت بعضهم إلى بعض، والله المستعان نسأل الله جل وعلا أن يهيئ لهذه الأمة من يقودها إلى بر الأمان، وأن يهيئ لها من أمرها رشدا، وأن يردنا

والمسلمين إلى دينه ردا جميلا، وألا يسلط علينا بذنوبنا من لا يخافه ولا يرحمنا.





بصيص أمل من غزنة



بعد هذا الفساد العظيم الذي قام به التتر في مدينة خوارزم، عادت الجيوش التترية إلى ملكهم جنكيز خان لعنه الله إلى بلاد الطالقان، والطالقان مدينة تقع شمال أفغانستان، وتسمى حاليا تالقان، وهي عاصمة ولاية تخار شمال أفغانستان.

ولم يرجعوا إلى هناك إلا وقد تم لهم القضاء على المملكة الخوارزمية في بلاد فارس وبلاد خراسان تقريبا، ومملكة خوارزم كانت تمثل أجزاء واسعة من بلاد الإسلام، فكانت تشمل أفغانستان، وشمال إيران، وبلاد ما وراء النهر، وهي الدول المعروفة الآن بأوزبكستان، وطاجكستان، وتركمانستان إلى حدود بلاد الصين.

ومع قضاء التتار على عامة مدن الدولة الخوارزمية إلا أن ابن السلطان خوارزم شاه، وهو السلطان (**جلال الدين ابن خوارزم شاه**)، والذي كانت عاصمة ملكه في أفغانستان في مدينة يقال لها (**غَزْنَة**) حيث ينتسب إليها السلاطين الغزنويين، وتعتبر مملكتهم من أولى الممالك الإسلامية التي استقلت بالحكم الذاتي في بلاد أفغانستان وبلاد الهند.

وبينما التتار يعيثون في سائر المملكة فسادًا، كان الأمير جلال الدين ابن السلطان لا يزال يحتفظ بجزء من المملكة في أفغانستان وشمال الهند، وكان السلطان خوارزم شاه في عهد ملكه وقوته قد جعل على هذه البلاد ابنه جلال الدين ، فلم يبق أمام التتر من مملكة خوارزم إلا التي البلاد التي يحكمها جلال الدين بن خوارزم شاه؛ لذلك قام جنكيز خان بتجهيز الجيوش للذهاب إلى غَزْنَة، وقتال جلال الدين ابن خوارزم شاه وكان أمره لهم إما أن يقتلوه أو يطاردوه حتى يخرج من جميع بلاده، بحيث يصير لا سلطان له ولا ملك، كما فعلوا بأبيه من قبل، فتحركت الجيوش التترية حتى اقتربوا من غَزْنَة، وكان جلال الدين على الرغم مما كان عنده من بعض الظلم، وشيء من المعاملة غير


غزنة

الحسنة مع جيرانه من السلاطين التي كان الحال يقتضيها في ذلك الزمان، إلا أنه كان يعتبر من خيرة السلاطين من حيث حبه الجهاد وحبه لنشر الإسلام، وكانت فيه أنفة فلا يرضى بالذلة والاستسلام بهذه السهولة.


قلعة غزنة

فلما جاءته الأخبار بما جرى، وكيف قضى التتار على مملكة أبيه وأنهم يريدونه، جعل يجهز الجيوش ويستعين ببعض الأمراء الذين هم من أقاربه في بعض الحصون والبلاد القريبة كهراة وغيرها، وبعض الملوك في شمال بلاد الهند، وأرسل إلى الذين استطاعوا الفرار من التتر ممن كان جيش أبيه، فتجمعوا ا حتى استطاع أن يجمع جيشا قوامه ستين ألفا.

ولم ينتظر التتار أن يقدموا إلى غَزْنَة، وإنما خرج من بلاد غَزْنَة إلى ظاهرها، وعسكر بجيشه خارج المدينة في مكان يقال له (**بلق**) بالقاف فلما علم الجيش الذي أرسله جنكيز خان بذلك توجهوا إليه ليلتقوا معه في ذلك المكان، وحصلت المصافة بين الجيشين، ثم كانت معركة عظيمة دامية عرفت في التاريخ بعد ذلك بموقعة بلق حتى إنها من ضرواتها استمرت لعدة أيام.

واشتد فيها القتال جدا، وصبر الفريقان صبرا عظيما، وكثر القتل من الطرفين، إلا أن القوم على مصافهم، وثبت جلال الدين ومن معه ثباتًا عظيما حتى استطاعوا أن يتصدوا للتتر، ثم لما كان اليوم الثالث منَّ الله تعالى على المسلمين بالنصر العظيم، وهو أول نصر يحققه المسلمون منذ خروج التتار من بلاد الصين إلى هذا التاريخ سنة تسعة عشر وستمائة للهجرة، فخلال سنتين والتتار يجوسون في بلاد الإسلام يحرقون المدن ويقتلون مئات الآلاف، ولم يحقق المسلمون أي نصر يذكر، وإن ثبتوا في بعض المعارك، وقاتلوا كما حصل من أهل مرو، وكما حصل من أهل خوارزم؛ لكن كان هذا أول نصر يحققه المسلمون على التتار في موقعة بلق.



فحصل نصر عظيم وقتل من التتار مقتلة عظيمة، واستطاع بعض فلولهم الفرار، والرجوع إلى الطالقان حيث ملكهم جنكيز خان.

ففرح المسلمون بذلك، وانطلقت البشائر إلى بلاد الإسلام، وعادت بعض الروح المعنوية إلى قلوب المسلمين؛ لأنهم كانوا قد وصلوا إلى مرحلة من اليأس، وأن التتار قوم لا يهزمون، ولا يمكن أن يقهرون ولا يتراجعون، فكانت هذه الهزيمة، وفرار من بقي منهم مما جلب للمسلمين بصيصا من الأمل.

أما بالنسبة للسلطان جلال الدين، ومعه جماعة من الأمراء وهم على كلمة سواء، فقام السلطان وأرسل إلى جنكيز خان رسالة يقول له: أين تريد أن يكون اللقاء بيني وبينك اختر أي موضع ونحن نأتي إليك، مستغلا ما حصل له من الانتصار، وما قد حصل لأولئك من الذعر، وأنه بقي من المسلمين من يقاتل ويثبت وينتصر، أما جنكيز خان فإنه قد عظم غضبه، واشتد حنقه؛ لأنه أول مرة يشعر بالتحدي والإهانة، ولأول مرة يكسر له جيش كبير بهذا المقدار أمام عدد يعتبر ليس بالكثير بالنسبة لجيشه، فقام وأعد جيشا كثيفا أعظم بكثير من الجيش الأول، ولكي يضمن النصر حسب ما يظن جعل قيادة هذا الجيش لأحد أبنائه فانطلق هذا الجيش ، وتوجه متوغلا في أراضي السلطان جلال الدين.

فلما علم السلطان جلال الدين بكثرة الجيش التتري، أراد أن يختار مكانًا بعيدًا عن غزنة التي هي عاصمة دولته، وأن يكون مكانا أيضا فيه سعة من جهة،

وفيه أماكن يسهل من خلالها الحيلة على العدو والإطاحة به، فوقع الاختيار على منطقة كَابُل.

وهي الآن مدينة عظيمة من أكبر مدن أفغانستان، ولا تزال تعرف بهذا الاسم حاليا، فنزل السلطان بالجيش في وادي كابل، فجاء الجيش التتري بتلك الأعداد الهائلة يقودهم ابن ملكهم حتى وصلوا إلى كابل، والتقوا بجيش جلال


كابل

الدين ابن خوارزم شاه رحمه الله تعالى، واصطفوا للقتال، ووقعت معركة أعظم من المعركة الأولى، واستمرت لعدة أيام، وبعد أن اشتد الأمر، وكثر القتلى فيهم وصبروا صبرا عظيما منَّ الله مرة أخرى على هذا الجيش المسلم بالنصر والظفر، وذلك إنما هو والله أعلم لما كان في قلوبهم من الصدق في الجهاد، واستنقاذ بلاد الإسلام، فإن من صدق الله صدقه الله، فمن الله بالنصر، وكان مع التتار في هذه المعركة أعداد كثيرة من أسرى المسلمين الذين اصطحبوهم معهم فإنهم كانوا يستعملون أسرى المسلمين لعدة أغراض، فتارة يجعلونهم أمامهم

يترسون بهم، وأحيانا كانوا يستعينون بهم في حفر الخنادق ونقب الأسوار والإعداد والمؤنة ونحو ذلك.

فاصطحبوا معهم أسرى كثر من أسرى المسلمين، فلذلك لما اشتد هذا القتال، ومنَّ الله بالنصر ومنح الله تعالى المسلمين رقاب الكافرين، وحصلت فيهم مقتلة عظيمة أعظم من الأولى، وفر المنهزمون إلى الطالقان مرة أخرى، حيث كان ملكهم قد جعل من الطالقان ومن قلعتها الشهيرة قاعدة لإعداد الجيوش وإطلاقها إلى ما حولها من البلدان.

وحصل في هذه المعركة العظيمة الكبيرة التي حققها المسلمون بقيادة السلطان جلال الدين حصل أن استنقذوا أولئك الأسرى، وكانوا أعدادا كثيرة بالآلاف حزرهم بعضهم ببضعة عشر ألفا، فاستنقذوا جميع أسرى المسلمين، وغنموا من الغنائم شيئا عظيمًا، فإن الجيش التتري جاء بأعداد هائلة فكانت أموالهم ومؤنهم غنيمة لأهل الإسلام.

فلما وقعت الهزيمة تركوا وراءهم كل شيء، فجمع المسلمون غنائم كثيرة جدا، وكان هذا النصر أعظم من الانتصار الأول، وإن كان الانتصار الأول أجل في أعين المسلمين؛ لأنه أول نصر يتحقق لهم بعد إياس، لكن كان هذا أعظم من حيث أنه قتل من التتار مقتلة هائلة، وغنم منهم غنائم كثيرة، واستُنقذ في هذه المعركة عدد كبير من أسرى المسلمين، فانتشر الخبر وطار في بلاد الإسلام، وسعد المسلمون بهذا حتى إن بعض المدن التي كانت قد استسلمت للتتر،

وصارت تدفع لهم المال، وكان فيها حامية من التتار ظنوا أن الأمر قد انتهى، وأنه قد دارت الدائرة على التتار، فقام أهل هراة وانتقضوا على التتار، وقتلوا من عندهم من الحامية، وأغلقوا الأبواب، واستعدوا للجهاد؛ لكن جنكيز خان لعنه الله لم يمهلهم حتى يأتيهم المدد، ولم يجعلهم يتمتعون بفرحة النصر بل أرسل إليهم جيشا، واستطاع هذا الجيش أن يحطم أسوار هراة، ويدخلها ويبيد أهلها، ويحرق أكثر مبانيها وديارها، والله المستعان.

أما بالنسبة للسلطان جلال الدين وما معه من الأمراء، فإنهم لما حصل لهم النصر الأول والثاني، واستبشر المسلمون بذلك، وبدأ السلطان جلال الدين يعد العدة ليكون هو المهاجم، ويبدأ باسترداد البلاد التي أخذها التتار، والتي كانت ضمن أملاك الدولة الخوارزمية، وفي هذه الأثناء كان التتار قد وصلتهم الأخبار، ورجعت إليهم فلول المنهزمين فقاموا بإعداد جيش جديد، وقد عظم حنقهم واشتد غيضهم، وأراد جنكيز خان أن يقود هذا الجيش بنفسه لكن حصلت فاجعة عظيمة ومصيبة كبيرة على المسلمين، حيث لم تستمر الفرحة لأهل الإسلام، وذلك أن الدنيا ما دخلت في قلوب المسلمين إلا أفسدتهم، وقد قال عليه الصلاة والسلام كما في الصحيحين عن عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه، قَالَ: «**صَلَّى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى قَتْلَى أُحُدٍ ، ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ كَالْمُوَدِّعِ لِلأَحْيَاءِ وَالأَمْوَاتِ ، فَقَالَ : إِنِّي فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ ، وَإِنَّ عَرْضَهُ كَمَا**

بَيْنَ أَيْلَةَ إِلَى الْجُحْفَةِ ، إِنِّي لَسْتُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا بَعْدِي ، وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا أَنْ تَنَافَسُوا فِيهَا ، وَتَقْتَتِلُوا ، فَتَهْلِكُوا ، كَمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ» .

فإنه لما تحصل هذا الجيش على تلك الغنائم العظيمة، وأرادوا قسمتها بدأ الخلاف بين الأمراء، وهذا علامة الفشل، وبيان ذلك أن أحد الملوك الذين قدموا من شمال الهند يقال له (**سيف الدين بغراق**)، وكان من الأتراك الذين لهم سلطنة، وإمارة في بعض تلك النواحي، وكان هذا الرجل من أحسن الأمراء المتواجدين في هذا الجيش، وكان خلفه عدد كبير ممن جاء بهم، وكان صادقا في الجهاد، وكانت أكثر رحى المعركة تدور عليه وعلى أصحابه، فإنه كان شجاعا مضحيا بنفسه وكان معه أحد إخوانه في هذه المعركة من الأمراء، وقد أبلى بلاء حسنا علم بذلك الجيش كله فوقع بين أخي سيف الدين بغراق، وبين أمير هراة وهو الملقب: بـ(**ملك خان**)، وهو من أقارب السلطان جلال الدين خلاف على الغنيمة، واشتد الأمر وارتفعت الأصوات، واشتبكوا حتى قُتِل أخو سيف الدين بغراق، فلما قتل أخوه تغيرت الأمور، وعمت الفوضى في الجيش، وانقسم الجيش قسمين، وكادت أن تكون فتنة وقتال بين المسلمين، فحاول السلطان جلال الدين أن يسيطر على الموقف، وبعد جهد كبير منه رحمه الله استطاع أن يوقف القتال بين الفريقين؛ لكنه لم يستطع أن يحل المسألة جذريا، فإن سيف الدين بغراق غضب من ذلك، وجعل يقول أنا أهزم الكفار، ثم تقتلون أخي من

أجل هذا السحت أي من أجل قليل من المال تقتلون أخي، وأنا الذي هزمت الكفار، وفعلت وفعلت.

فرأى أنه ليس من المناسب أن يقوم ويتقاتل مع إخوانه المسلمين بسبب مقتل أخيه؛ لكنه قرر قرارا خاطئا جدا، وكان السبب في نكسة كبيرة للمسلمين بعد ما حصل للمسلمين من بعث الأمل من جديد، عاد إليهم الانكسار مرة أخرى بسبب قراره الخاطئ وغضبه، فقرر أن ينسحب، ويرجع إلى بلاده ويترك جلال الدين، ومن معه يقاتلون التتار بمفردهم، وهو يرجع إلى بلاده، ولا يمكن أن يشارك في القتال مع جيش قام بقتل أخيه.

فلما انسحب من الجيش بمن معه من جيشه الذين جاءوا معه قامت مجموعة من الجيش، والذين كانوا من جيش جلال الدين مع بعض الأمراء الآخرين، فأخذتهم الغيرة والغضب لهذا الأمير الشجاع كيف أنهم يتركونه ينصرف، ولم يأخذوا له بحقه كما ينبغي، ولعل جلال الدين كان يريد أن يسيطر على الموقف، وتهدأ الأمور ثم ينظر في الأمر، لكنهم لم يتركوا له فرصة، فلما انسحب هذا الأمير انسحب معه قرابة نصف الجيش غيرة وحمية، ويذكر بعض المؤرخين أنه لما انسحب انسحب معه ثلاثون ألفا، وكان عدد الجيش كله ستون ألفا، وجملة من المتطوعة ممن شهد معهم المعركة في كابل، فلما خرج سيف الدين بغراق بهذا العدد الهائل من الجيش انهارت معنويات من بقي من

الجيش، والله المستعان، وشعروا بالضعف والانكسار، ودبت الهزيمة في نفوسهم، ورأوا أنهم قد قل عددهم، فحصل الضعف والوهن، فلذلك لم تعد عندهم تلك الهمة والعزيمة في مقاومة التتار، فحاول السلطان جلال الدين جاهدا أن يثني عزم بغراق عن الاستمرار في الانسحاب، ولحقه بنفسه على خيله، وجعل يذكره بالله، ويعظه ويترجاه ويتوسل إليه.

حتى ذكروا أن السلطان من كثرة توسله لهذا الأمير ومحاولته أن يرجع كان يبكي بين يديه يريد منه أن يرجع، لكن الأمير أخذته العزة بالإثم، واستحكم فيه الغضب، وأبى إلا أن يواصل السير إلى بلاده مع ذلك العدد الكبير نصف الجيش تقريبا، فلما يئس منه جلال الدين عاد إلى جيشه يحاول ترتيب صفوفه، وأراد أن يرسل إلى بعض البلدان التي ما زالت تحت سيطرته، ليجمع عددا من الجيش يعوض به هذا النقص، لكن جاءت الأخبار بأن جيش التتار قد جاء بأعداد كبيرة، وقد صار على مقربة من السلطان جلال الدين، ومن معه من بقية جيشه، فلما جاءهم الخبر أصابهم الوهن، ولم يحصل عندهم شيء من المكث والتأني ، فما إن وصلت الأخبار إلى جيش المسلمين بقرب جيش التتار سقط في أيديهم، فجعل كل أمير ينصرف بمن معه يبحث له عن مفر وملاذ آمن، وإذا بجلال الدين ما بقي إلا مع بعض الأمراء وجملة قليلة من الجيش، وجيش التتار قد صار قريبا جدا من السلطان جلال الدين، فعندئذ وقع في نفسه أنه لن يقدر على قتال التتار بهذا الجيش القليل، وقد تفرقت الكلمة وصارت النفوس

ضعيفة والعزائم قد خارت، فجعل يبحث لنفسه عن طريق للهرب، كما فعل غيره، فانطلق باتجاه بحر السند، وهي ما يسمى الآن بباكستان.


نهر السند

فانطلق باتجاه **(السند)** يريد أن يصل إلى ساحلها حيث الميناء، ويركب هناك السفن مع الجيش الذي تبقى معه، وينطلق به إلى بلاد الهند، وكانت بلاد الهند لا تزال تحت سلطنة الدولة الخوارزمية، وكان عليها بعض الأمراء، فانطلق لقصده، لكن الجيش التتري ما إن علم بذلك حتى سارع باللحاق به، وسار خلفه لا يمهله، وهو يمعن في الفرار، حتى وصل إلى ساحل بحر السند، فلما وصل إلى ساحل **(بحر السند)** كرر ما فعله أبوه تماما، إلا أن السلطان خوارزم شاه وصل إلى ساحل البحر، وركب البحر ووصل إلى قلعة داخل البحر، وبها مات في نفس السنة.

أما السلطان جلال الدين، فإنه وصل إلى ساحل بحر السند، فلم يجد السفن عندئذ، فجلس هو وجيشه ينتظرون مجيء السفن؛ ليركبوها ويفروا بعيدا عن

جيش التتار؛ ولكن لم يكن هناك متسع من الوقت حتى تأتي السفن، فبينما هم على ساحل بحر السند ينتظرون وصول السفن للفرار عليها إذ بجيش التتار يصل قبل أن تصل السفن، فكانت المفاجأة بأن جيش التتر قد صار خلفهم، فكان لا بد من القتال إذ لم يبق أمامهم خيار آخر؛ لأنَّهم إن لم يقاتلوا سيموتون على كل حال، فمن المستحيل أن يحصل تفاوض في ظل هذا الوضع الحرج والموقف الضعيف، ولا يُتوقع أبدًا من هذا الجيش الرحمة بعد أن هزموا أمامهم مرتين، فجيش التتار قد صار فيه من الحنق والغيظ والانتقام أمر عظيم، وذلك لما حصل لهم قبل ذلك على يد جلال الدين من الهزيمة، فكان لا بد من المواجهة؛ لذلك قام جلال الدين، وجمع من بقي معه من الجيش واصطدم بالجيش التتري، وهاجم هجوم المستميت الذي لا منعة له إلا سيفه، واستمر القتال بينهم ثلاثة أيام كأشد ما يكون من القتال.

قال ابن الأثير رحمه الله: " وكانوا في ذلك كالأشقر إن تأخر يقتل وإن تقدم يعقر، فتصافوا واقتتلوا أشد قتال، اعترفوا كلهم أن كل ما مضى من الحروب كان لعبا بالنسبة إلى هذا القتال، فبقوا كذلك ثلاثة أيام، فقتل الأمير ملك خان المقدم ذكره وخلق كثير، وكان القتل في الكفار أكثر، والجراح أعظم، فرجع الكفار عنهم، فأبعدوا، ونزلوا على بعد، فلما رأى المسلمون أنهم لا مدد لهم، وقد ازدادوا ضعفا بمن قتل منهم وجرح، ولم يعلموا بما أصاب الكفار من

ذلك، أرسلوا يطلبون السفن، فوصلت، وعبر المسلمون ليقضي الله أمرا كان مفعولا.

فلما كان الغد عاد الكفار إلى غزنة، وقد قويت نفوسهم بعبور المسلمين الماء إلى جهة الهند وبعدهم، فلما وصلوا إليها ملكوها لوقتها لخلوها من العساكر والمحامي، فقتلوا أهلها، ونهبوا الأموال، وسبوا الحريم، ولم يبق أحد، وخربوها وأحرقوها، وفعلوا بسوادها كذلك، ونهبوا وقتلوا وأحرقوا، فأصبحت تلك الأعمال جميعها خالية من الأنيس، خاوية على عروشها كأن لم تغن بالأمس ".اهـ

قلت: وقد ثبت جلال الدين مع قلة جيشه ثباتا عظيما، وكان قد أمعن في التتار قتلا، وقتل من التتار أعداد كثيرة؛ لكنهم لكثرتهم لم يظهر فيهم جليا كما ظهر في أهل الإسلام، وكان السلطان ومن معه قد بيتوا في نفوسهم الفرار، وربما لو صبروا لكان يحصل لهم شيء من النصر، ولتحقق لهم الظفر لكن لله الحكمة البالغة.

ولما علم الناس أن سلطانهم فر مع بعض الأمراء، والبعض الآخر من الأمراء قد اختلفوا عليه ضعُف الناس عندئذ، وخلت النفوس من التفكير بالمقاومة، فإن الناس إنما يحتاجون إلى رأس يقودهم، فلم يكن هناك رأس لا أمراء، ولا سلطان، ولا خليفة فصار الناس كالغنم بلا راع في ليلة شاتية ممطرة.

لذا رجعت التتار إلى بلاد غزنة التي تعتبر ثاني أعظم مدينة بعد مدينة خوارزم، فرجعوا إليها، وأبادوا أهلها إلا القليل ودمروها، وأحرقوها وأهلكوا محاسنها، وفعلوا فيها الأفاعيل بدافع الغضب والانتقام، وبما فيهم من الهمجية التي مارسوها في غير هذه البلاد، وأفسدوا في تلك البلاد، وما حولها فسادا عظيما، ثم رجعوا مرة أخرى إلى ملكهم، واجتمعوا إليه في تلك القلعة المنيعة في الطالقان؛ لإعداد العدة لكرة أخرى، ضمن مخطط جديد للقضاء على ما تبقى من بلاد الإسلام.

وبعد أن انتهى التتار من هذا الأمر، وحصلت هذه المصيبة العظيمة، وبعد أن بدأ المسلمون يتنفسون الصُعداء، ويشعرون بالأمل حلت هذه الكارثة الكبيرة من جديد، فرجع التتار إلى الطالقان، وتركوا فيها بعض الحامية، ثم تحركوا نحو (**الري**)، ونحوها من البلاد، فعاثوا فيها فسادا عظيما على عادتهم في القتل والحرق وإهلاك الحرث والنسل، في أخبار يتفتت لها الكبد ألما، ويحترق الفؤاد حزنا، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وإليك ما سطره ابن الأثير من تلك الأحداث المتسارعة المؤلمة حيث قال:

ثم دخلت سنة إحدىٰ وعشرين وستمائة

ذكر عود طائفة من التتر إلى الري وهمذان وغيرهما

أول هذه السنة أقبل طائفة من التتر من عند ملكهم جنكزخان وتوجهوا إلى الري ، وهؤلاء غير الطائفة المغربة التي ذكرنا أخبارها قبل وصول هؤلاء وكان من سلم من أهل الري قد عادوا إليها وعمروها، فلم يشعروا إلا بالتتر وقد باغتوهم ، فلم يقدروا أن يمتنعوا منهم، فوضعوا في أهلها السيف وقتلوهم كيف شاءوا، ونهبوا البلد وخربوه، وساروا إلى ساوة، ففعلوا بها كذلك ثم إلى قم وقاشان، وكانتا قد سلمتا من التتر أولا، فإنهم لم يقربوهما، ولا أصاب أهلهما أذى، فأتاهما هؤلاء وملكوهما، وقتلوا أهلهما، وخربوهما، وألحقوهما بغيرهما من البلاد الخراب.

ثم ساروا في البلاد يخربون ويقتلون وينهبون، ثم قصدوا همذان، وكان قد اجتمع بها كثير ممن سلم من أهلها، فأبادوهم قتلا وأسرا ونهبا، وخربوا البلد.

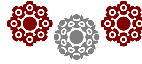
وكانوا لما وصلوا إلى الري رأوا بها عسكرا كثيرا من الخوارزمية، فكبسوهم وقتلوا منهم، وانهزم الباقون إلى أذربيجان، فنزلوا بأطرافها، فلم يشعروا إلا والتتر أيضا قد كبسوهم ووضعوا السيف فيهم، فولوا منهزمين، فوصل طائفة منهم إلى تبريز.

وأرسلوا إلى صاحبها أوزبك بن البهلوان يقولون له: إن كنت موافقنا فسلم إلينا من عندك من الخوارزمية، وإلا فعرفنا أنك غير موافق لنا، ولا في طاعتنا فعمد إلى من عنده من الخوارزمية، فقتل بعضهم وأسر بعضهم، وحمل الأسرى والرؤوس إلى التتر، وأنفذ معها من الأموال والثياب والدواب شيئا كثيرا، فعادوا عن بلاده نحو خراسان، فعلوا هذا وليسوا في كثرة، إنما كانوا نحو ستة آلاف فارس ولكنه الوهن، وكان الخوارزمية الذين انهزموا منهم نحو ستة آلاف راجل، وعسكر أوزبك أكثر من الجميع، ومع هذا فلم يحدث نفسه ولا الخوارزمية بالامتناع منهم.

نسأل الله أن ييسر للإسلام والمسلمين من يقوم بنصرتهم، فقد دفعوا إلى أمر عظيم من قتل النفوس، ونهب الأموال، واسترقاق الأولاد، وسبي الحريم وقتلهن، وتخريب البلاد".اهـ

أما بالنسبة لجلال الدين بن خوارزم شاه، فإنه لما دخل إلى الهند مكث فيها من سنة ستمائة وعشرين إلى ستمائة وثلاثة وعشرين، ولم يتفق مع أمراء الهند، وحصل بينه وبينهم خلافات ونزاعات، ولما رأى أنه لم يستطع الحصول على شيء من الملك الذي كان يروم أن يستقر فيه في بلاد الهند توجه شمالا حتى دخل إلى إيران، وكان قد حصل في بلاد إيران نزاع بين بعض الأمراء، لا سيما بعد ما حصل لهم من الضعف عند غزو التتار لبلادهم، فاستطاع بمن خرج معهم من الجيش أنه يقضي على الأمراء المسلمين في بلاد إيران، وبعضهم من

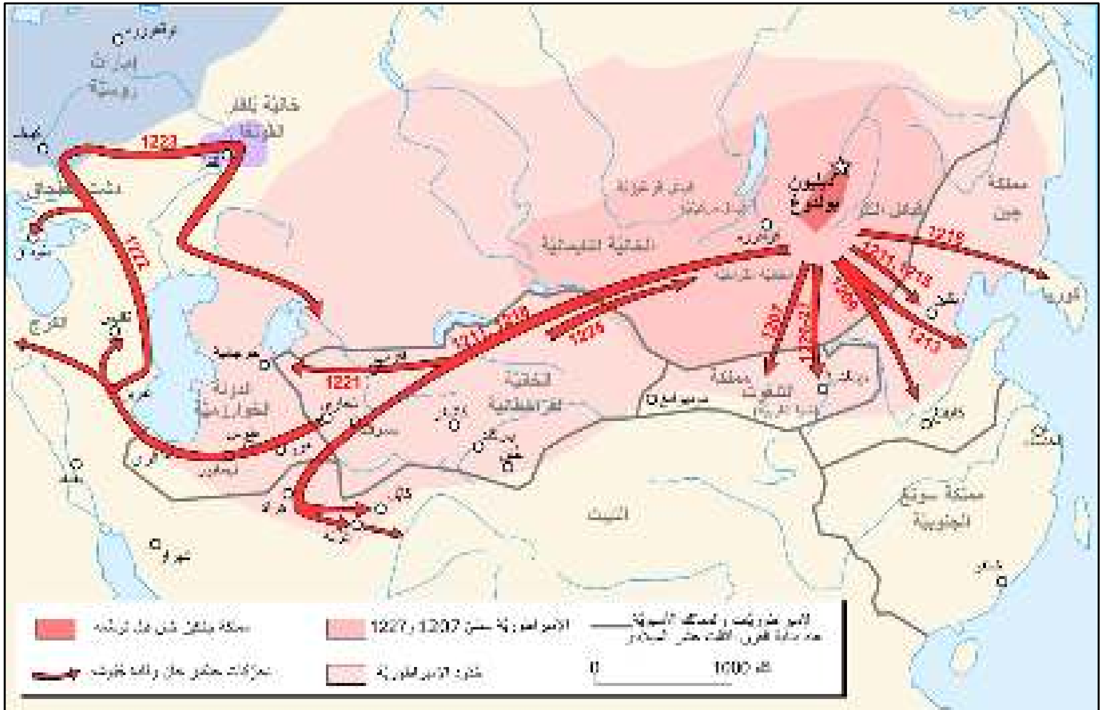
إخوانه، ومن أبناء عمومته، ويأخذ بلاد إيران، وإقليم فارس، ويؤسس له بها ملكا، وكان ذلك في سنة ستمائة وأربعة وعشرين، وخلال سنة اثنين وعشرين وثلاثة وعشرين إلى أربعة وعشرين كان قد حصل هدوء نسبي إذ لم يحصل من التتار زحف على أي بلد من بلاد الإسلام، وبدأ بعض المسلمين يعودون إلى بعض بلدانهم، ويصلحون ما استطاعوا مما أفسده التتار.



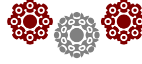
هلاك الطاغية

في سنة ستمائة وأربعة وعشرين هجرية هلك الطاغية اللعين كبير التتار جنكيز خان لعنه الله بعد أن أفسد في الأرض فسادا عظيما، وقتل بسببه مئات الألوف بل الملايين من الناس، ودمرت عشرات المدن بكاملها، وطار الخبر بذلك، واستبشر الناس عربا وعجما مؤمنهم وكافرهم بهلاكه، فاستقرت الأمور مدة.

ثم إن التتار اجتمعوا لاختيار خانا جديدا خلفا للملعون جنكيز، فأجمع أمرهم على رجل منهم يقال له: أوكتاي.



وقد قام أوكتاي هذا بادئ أمره بإصلاحات داخلية استمرت لبضع سنوات، وخلال انشغال التتار بإصلاحاتهم الداخلية كانت الأوضاع هادئة في بلاد الإسلام، وفي بلاد أوروبا وفي بلاد روسيا بعد أن حصل فيها ما حصل من الفساد، إلى قرابة سنة ستمائة وخمسة وعشرين هجرية، والأوضاع هادئة نسبيا.



مصيبة وأي مصيبة

في هذه الأثناء حصلت مصيبة عظيمة على المسلمين، وقد تقدم معنا أن التتار وهم في هذا الحال، وفي هذا الهجوم الشرس، وهذا الدمار الواسع والهمجية الكبيرة، والقتل الشديد والإبادة الجماعية لأهل الإسلام في بلدان شتى، إلا أن المسلمين في البلدان الأخرى كالعراق والشام ومصر واليمن والحجاز، ممن لم يصل إليهم التتار كانوا مكتفين بسماع الأخبار، وما يأتيهم من الأنباء، فلم يتحرك أحد من السلاطين ولا القادة ولا المتطوعة، حتى على الأقل للمشاركة في القتال وإعانة أهل الإسلام؟!!

فكان المسلمون في جمود شديد في مشاعرهم وإيمانهم؛ بسبب إغراقهم في الترف وملذات الحياة الدنيا، واكتفى كثير منهم بسماع الأخبار كم قتل في مدينة كذا وماذا فعلوا وأفسدوا في مدينة كذا، وأحسنهم من يتألم بقلبه ويتأوه بلسانه؛ لكن ليس هناك أي مبادرة أو تحرك جاد.

راية الأيوبيين

ولك أن تتخيل أنَّه وفي هذه الأثناء الشديدة، والمسلمون ما زالوا بجراحاتهم، إذا بأمراء الشام وأمراء مصر، الذين هم أحفاد السلطان الفاتح صلاح الدين الأيوبي رحمه الله تعالى فإنه ورث مملكة كبيرة تضم الجزيرة والشام ومصر والحجاز واليمن، فقسم هذه السلطنة بين أولاده وإخوانه، فنزغ الشيطان بينهم وبين أبنائهم، ودبت النزاعات بين أحفاد السلطان صلاح الدين، فأمير حلب مع أمير دمشق، وأمير مصر وأمير دمشق مع أمير حمص، وأمير دمشق مع أمير مصر، وهكذا نزاعات مستمرة تخللها الحروب والدماء، حتى وصل الأمر والسوء والبلاء بهؤلاء الأمراء أحفاد السلطان الناصر صلاح الدين رحمه الله تعالى، أن تحالف أمراء الشام مع أمراء الفرنجة النصارى الذين استطاعوا أخذ جملة من مدن وقلاع الساحل الشامي؛ بسبب تنازع الأمراء الأيوبيين.

فتحالف أمراء الشام الأيوبيون مع أمراء الفرنجة ضد أبناء عمومتهم في مصر، وكان أمير الأيوبين في مصر هو السلطان الصالح نجم الدين أيوب، وكان خيرا منهم، فتحالفوا مع الفرنجة؛


قلعة صلاح الدين

من أجل أن يعينونهم بالمال والجند لقتال ابن عمهم في مصر وانتزاع مصر منه، ولم يلتفتوا حولهم كيف أفسد التتار في البلاد القريبة منهم؟!!

بل استمروا في غيِّهم، وصاروا يعدون الجيوش، وينفقون النفقات لقتال بعضهم بعضا، حتى وصل الأمر في سنة ستمائة وستة وعشرين إلى أن اتفق أمراء الشام أن يسلموا مدينة بيت المقدس للنصارى باستثناء المسجد الأقصى فيكون بأيدي المسلمين، مقابل أن النصارى يساعدونهم على قتال أبناء عمومتهم في مصر.

وبكل برودة يتم تسليم هذه المدينة المقدسة لأجل مطامع الدنيا وحظوظ النفس تباع المقدسات، وتذوب المبادئ والقيم والمرؤة حتى!! فوا أسفاه!! فتحل هذه المصيبة بل قل الفاجعة، بعد أن بذل صلاح الدين عمره من أجل استنقاذ بيت المقدس من يد النصارى، وسالت على أبوابها دماء، وتقطعت

أشلاء، وأزهقت أرواح، فيأتي أحفاده من أمراء الشام، فيسلمونها لعباد الصليب؛ مقابل التعاون معم على قتال ابن عمهم المسلم أمير مصر.

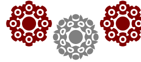


فتأمل أيها القارئ الكريم ماذا تفعل المطامع وحب الدنيا بأصحابها، فإن عبد المصالح والمطامع لا يعرف إلا لغة المصلحة، لا دين يردعه، ولا قرابة ترده، ولا رحم تكفه، ولا مروؤة تزجره، فقد استسلم لطمعه وشهوته حتى ضاعت منه جميع المبادئ، والقيم وإلى الله المشتكى.

وتم بالفعل تسليم بيت المقدس، واجتمعت جيوش النصرانية، وجيوش أمراء الشام لقتال أمير مصر الصالح الأيوبي، وشاء الله تعالى أن يبور كيدهم، ويرد عليهم مكرهم، ويوقعهم في شر أعمالهم، فدارت رحى الحرب في معركة شديدة أسفرت عن نصر عظيم للمصريين بقيادة أميرهم الصالح نجم الدين أيوب، ورد الله حلفاء الشر أذلة صاغرين، ومع هذا النصر إلا أن بيت المقدس استمرت بيد النصارى، من ستمائة وستة وعشرين، إلى ستمائة وثلاثة وأربعين،

أي قرابة سبعة عشر سنة تقريبا، حتى عاد الصالح نجم الدين أيوب مرة أخرى، وقاتل أمراء الشام وأخذ منهم الشام، واستنقذ بيت المقدس من أيدي النصارى.

هذا الاستطراد الذي يبدوا خارجًا عن موضوعنا تعمدت ذكره؛ حتى يتبين للقارئ الحالة السيئة التي كان يعيشها المسلمون في تلك الفترة من الزمن، حكامًا ومحكومين في حالة من الانحطاط، والغفلة، والإغراق في الملذات، والمصالح الشخصية والأنانية، دون النظر إلى المصالح والمفاسد، وما سينتج عن ذلك من عواقب، والعدو على قاب قوسين أو أدنى منهم، ويسمعون جرائمه، وما يقوم به من المذابح، والكوارث التي لا مثيل لها وهم في جالهم هذا وإلى الله المشتكى.



عودة التتار



بعد سنوات من الهدوء النسبي، وعودة الناس إلى بلدانهم، وبدأ الناس بعمارة بلادهم مرة أخرى، وعادت جملة من مظاهر الحياة في البلدان التي دمرها التتار، وما إن بدأ الناس تستقر أحوالهم، إلا وعاد طوفان الشر من جديد؛ لكن هذه المرة كانت وجهتهم ما تبقى من بلاد روسيا وشرق أوروبا، ففي سنة ستمائة وأربعة وثلاثين هجرية، أرسل التتار جيشا كبيرا بقيادة أحد كبار قاداتهم رجل يقال له: **(بَاتُو)** إلى روسيا، وكانوا قد أخذوا جملة من غرب روسيا كما تقدم.

ووصل هذا الزحف الهائل إلى بلاد روسيا الواسعة، فتساقطت أمامهم كورق الشجر، فلم يشفع لها كثرة أهلها ولا سعة مساحتها! وخلال سنتي خمسة وثلاثين وستة وثلاثين استطاع الجيش التتري الاستيلاء على بلاد روسيا كاملة

من غربها إلى شرقها، مع كونها أكبر دولة في العالم قديما وحديثا، فإن مساحتها تبلغ سبعة عشر مليون كيلومتر مربع بما يعادل تقريبا مساحة قارة أوروبا وقارة استراليا مجتمعتين، ومع هذه المساحة الشاسعة يستولي عليها التتار في حدود سنتين فقط والعجيب ليس في المساحة فقط بل أيضا في الديانة، فقد كانت روسيا نصرانية، ومن حولهم ملايين النصارى في أوروبا، وفي روسيا أعداد هائلة من البشر وهي مملكة قوية، فكيف سقطت بهذه السرعة كل هذا من جملة العجائب التي حصلت في ذلك الزمان، والتي تدل على أن لله حكمة في ذلك، ولقد أصاب النصارى في تلك البلاد على أيدي التتار من تدمير كنائسهم، والذبح، والقتل الذريع فيهم شيء في غاية الفظاعة، ومع هذا لم يتوقفوا ولم يكتفوا بما أخذوه من البلاد؛ بل ما إن أكملوا بلاد روسيا حتى توجهوا نحو أوروبا، وكانوا قد أخذوا أوكرانيا قبل ذلك، ومن ثم أخذوا بلاد المجر، وبلاد كرواتيا، وبلاد النمسا حتى وصلوا إلى حدود إيطاليا، وأخذوا بعض البلدان من إيطاليا، واقتربوا جدا من أعظم كنيسة للنصارى في روما.

فعظم الأمر على نصارى أوروبا فاجتمع جيشان من أقوى جيوش أوروبا حينئذ، وهما الجيش الكرواتي، والجيش الألماني، وحصل اللقاء بينهم وبين الجيش التتري، فكانت معركة دامية من أشرس المعارك حاول فيها الألمان والكروات صد التتر لكن دون فائدة، فقد خرج التتار من هذه المعركة بانتصار كبير، وتمَّ القضاء على جيش مملكتين كبيرتين في ساحة واحدة وساعات

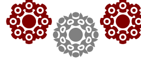
معدودة؛ بل تم سحقهم تماما، واستولى التتارعلى كرواتيا، فسبحان الذي يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء.

فكانت هذه السنوات سنوات عجاف على نصارى روسيا وأوروبا، وكاد التتار أن يأتوا على أوروبا كاملة، إلا أن التتار جاءتهم الأخبار سنة خمس وعشرين وستمائة أن السلطان جلال الدين الخوارزمي الذي جرعهم مرارة الهزيمة مرات قد أخذ إقليم فارس واستوثق له، فأحس التتار بالخطر لا سيما أنه السلطان الوحيد الذي استطاع أن يقاومهم، وحقق بعض الانتصارات عليهم، فبدأت استعداداتهم لملاقاة السلطان جلال الدين؛ لكنهم أرادوا التخلص منه بالكلية، حتى لا يبقى في المنطقة أي تهديد لهم، فمرت الأيام، وكان التتر كلما مات ملك للتتر استخلفوا عليهم غيره، فمات أوكتاي، وملكوا بعده ابنه (**كويك**)، ثم مات كويك، وبقيت زوجته على العرش مدة.



ثم إنهم في عام ستمائة وتسعة وأربعين هجرية، ملكوا عليهم رجلا من أحفاد جنكيز خان يقال له (**منكو خان**)، وكان على همجية جده جنكيز خان في

الوحشية والهمجية، وحط نظره على بلاد الإسلام، فأرسلوا جيشا بقيادة **(هولاكو)**، وهو أحد إخوان ملك المغول منكو خان، وكان له أخ ثالث أرسله باتجاه الغرب نحو بلاد روسيا وأوروبا، وأرسل أخاه **(هولاكو)** باتجاه بلاد الإسلام.



]المعارك الأخيرة بين جلال الدين والتتر[

ظهرت طائفة من التتر سنة خمس وعشرين وستمائة في بعض الجهات التي يحكمها السلطان جلال الدين فحصلت بينهم وبين جلال الدين عدة وقائع تارة ينتصر وتارة يهزم، وكان بين جلال الدين وبين جيرانه من الأمراء في بلاد فارس والعراق اختلاف ومعاداة؛ بل بلغ به الأمر أن اختلف مع الخليفة العباسي في بغداد، وأراد محاصرة بغداد وقتل الخليفة، فخرج بجيشه وحاصر مدينة **(خِلَاط)** القريبة من العراق حتى قيل بإن الخليفة الناصر البغدادي هو الذي راسل التتار، وطلب قدومهم ليخلصوه من السلطان جلال الدين، فكانت هذه الحال الغالبة على المسلمين حكاما ومحكومين، كل يوالي أعداء الدين، ويوالي الكفرة مع ما يعلم من فسادهم لتبقى له مصلحته، ولو مؤقتا فانطمست البصائر، وأعماهم حب الدنيا، والله المستعان، فجاء التتار فعلا وتخلصوا من جلال الدين، وحصلت بينهم وبينه وقائع متكررة، وكان الأمر فيها تارة وتارة.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

" ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةُ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ وَسِتِّمِائَةٍ

فِيهَا كَانَتْ حُرُوبٌ كَثِيرَةٌ بَيْنَ جَلَالِ الدِّينِ وَالتَّتَارِ، كَسَرُوهُ غَيْرَ مَرَّةٍ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ كَسَرَهُمْ كَسْرَةً عَظِيمَةً، وَقَتَلَ مِنْهُمْ خَلْقًا وَأُمَمًا لَا يُحْصَوْنَ كَثْرَةً، وَكَانَ

هَؤُلَاءِ التَّتَارُ قَدِ انْفَرَدُوا وَعَصَوْا عَلَى جِنْكِزْخَانَ، فَكَتَبَ ابْنُ جِنْكِزْخَانَ إِلَى جَلَالِ الدِّينِ يَقُولُ: إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيْسُوا مِنَّا وَنَحْنُ أَبْعَدْنَاهُمْ، وَلَكِنْ سَتَرَى مِنَّا مَا لَا قِبَلَ لَكَ بِهِ". اهـ

وأما ابن الأثير رحمه الله فقد ذكر الحال بأطول من ذلك فقال:

"وعاد جلالُ الدين إلى التتر فلقيهم، فبينما هم مصطفُّون، كلُّ طائفةٍ مقابلَ الأخرى، انفرد غياثُ الدين أخو جلال الدين، فيمن وافقه من الأمراء، على مفارقة جلال الدين، واعتزلوا وقصدوا الجهةَ التي ساروا إليها. فلما رآهم التتر قد فارقوا العسكر ظنُّوا أنهم يريدون أن يأتوهم من وراء ظهورهم ويقاتلوهم من جهتين، فانهزم التتر لهذا الظن، وتبعهم صاحبُ بلاد فارس.

وأما جلالُ الدين، فإنه لما رأى مفارقةَ أخيه إياه، ومن معه من الأمراء، ظنَّ أن التتر قد رجعوا خديعةً ليستدرجوه، فعاد منهزمًا، ولم يجسر أن يدخل أصفهان؛ لئلا يحصروه، فمضى إلى (**سميرم**).

وأما صاحبُ فارس، فلما أبعد في أثر التتر، ولم يرَ جلالَ الدين ولا عسكره معه، خاف التتر فعاد عنهم.

وأما التتر، فلما لم يروا في آثارهم أحدًا يطلبهم، وقفوا ثم عادوا إلى أصفهان، فلم يجدوا في طريقهم من يمنعهم، فوصلوا إلى أصفهان فحصروها، وأهلُها يظنون أن جلالَ الدين قد عُدم.

فبينما هم كذلك، والتتر يحاصرونهم، إذ وصل قاصدٌ من جلال الدين إليهم يعرِّفهم سلامته، ويقول: إني متعوقٌ حتى يجتمع إليَّ من سلم من العسكر، وأقصدكم ونتفق أنا وأنتم على إزعاج التتر وترحيلهم عنكم، فأرسلوا إليه يستدعونه إليهم، ويعدونه النصرة والخروج معه إلى عدوِّه، وفيهم شجاعة عظيمة.

فسار إليهم واجتمع بهم، وخرج أهل أصفهان معه، فقاتلوا التتر، فانهزم التتر أقبحَ هزيمة، وتبعهم جلال الدين إلى الري يقتل ويأسر.

فلما أبعدوا عن الري أقام بها، وأرسل إليه ابنُ جنكزخان يقول: إن هؤلاء ليسوا من أصحابنا، إنما نحن أبعدناهم عنا، فلما أمن جانبَ جنكزخان اطمأنَّ وعاد إلى أذربيجان.

ثم في سنة ثمانٍ وعشرين وستمائة قدم جيشُ التتار إلى الجزيرة وديار بكر، فعاثوا فيها فسادًا قتلًا ونهبًا وحرقًا على عادتهم، لعنهم الله".اهـ

قال ابن الأثير رحمه الله: "ثم دخلت سنة ثمان وعشرين وستمائة

ذكر خروج التتر إلى أذربيجان وما كان منهم

في هذه السنة وصل التتر من بلاد ما وراء النهر إلى أذربيجان، وقد ذكرنا قبل كيف ملكوا ما وراء النهر، وما صنعوه بخراسان وغيرها من البلاد، من النهب، والتخريب، والقتل، واستقرّ ملكهم بما وراء النهر، وعادت بلاد ما وراء النهر

فانعمرت، وعمروا مدينة تقارب مدينة خوارزم عظيمة، وبقيت مدن خراسان خرابا لا يجسر أحد من المسلمين أن يسكنها.

وأمّا التتر فكانوا تغير كلّ قليل طائفة منهم ينهبون ما يرونه بها، فالبلاد خاوية على عروشها، فلم يزالوا كذلك إلى أن ظهر منهم طائفة سنة خمس وعشرين وستّمائة، فكان بينهم وبين جلال الدين ما ذكرناه، وبقوا كذلك، فلمّا كان الآن، وانهزم جلال الدين من علاء الدين كيقباذ ومن الأشرف، كما ذكرناه سنة سبع وعشرين [وستّمائة]، أرسل مقدّم الإسماعيليّة الملاحدة إلى التتر يعرّفهم ضعف جلال الدين بالهزيمة الكائنة عليه، ويحثّهم على قصده عقيب الضعف، ويضمن لهم الظفر به للوهن الّذي صار إليه.

وكان جلال الدين سيّئ السيرة، قبيح التدبير لملكه، لم يترك أحدًا من الملوك المجاورين له إلّا عاداه، ونازعه الملك، وأساء مجاورته، فمن ذلك أنّه أوّل ما ظهر في أصفهان وجمع العساكر قصد **(خُوزِسْتَانَ)**، فحصر مدينة **(شُشْتَرَ)**، وهي للخليفة، وسار إلى **(دَقُوقَا)** فنهبها، وقتل فيها فأكثر، وهي للخليفة أيضا، ثمّ ملك أَذْرَبِيجَانَ، وهي لِأُوزْبَكَ، وقصد الْكُرْجَ وهزمهم وعاداهم، ثمّ عادى الملك الأشرف، صاحب خِلَاطَ، ثمّ عادى علاء الدين، صاحب بلاد الروم، وعادى الإسماعيليّة، ونهب بلادهم، وقتل فيهم فأكثر، وقرّر عليهم وظيفة من المال كلّ سنة، وكذلك غيرهم، فكلّ من الملوك تخلّى عنه، ولم يأخذ بيده.

فلمّا وصلت كتب مقدّم الإسماعيليّة إلى التتر يستدعيهم إلى قصد جلال الدين بادر طائفة منهم، فدخلوا بلادهم واستولوا على الرّيّ وهمذان، وما بينهما من البلاد، ثمّ قصدوا أذربيجان فخرّبوا ونهبوا وقتلوا من ظفروا به من أهلها، وجلال الدين لا يقدم على أن يلقاهم، ولا يقدر أن يمنعهم عن البلاد، قد مليء رعبا وخوفا، وانضاف إلى ذلك أنّ عسكره اختلفوا عليه، وخرج وزيره عن طاعته في طائفة كثيرة من العسكر.

وكان السبب غريبا أظهر من قلّة عقل جلال الدين ما لم يسمع بمثله، وذلك أنّه كان له خادم خصيّ، وكان جلال الدين يهواه، واسمه قَلِجُ، فاتّفق أنّ الخادم مات، فأظهر من الهلع والجزع عليه ما لم يسمع بمثله، ولا لمجنون ليلى، وأمر الجند والأمراء أن يمشوا في جنازته رجّالة، وكان موته بموضع بينه وبين تِبْرِيز عدّة فراسخ، فمشى الناس رجّالة، ومشى بعض الطريق راجلا، فألزمه أمراؤه ووزيره بالركوب، فلمّا وصل إلى تِبْرِيز أرسل إلى أهل البلد، فأمرهم بالخروج عن البلد لتلقّي تابوت الخادم، ففعلوا، فأنكر عليهم حيث لم يبعدوا، ولم يظهروا من الحزن والبكاء أكثر ممّا فعلوا، وأراد معاقبتهم على ذلك، فشفع فيهم أمراؤه فتركهم.

ثمّ لم يدفن ذلك الخصيّ، وإنّما يستصحبه معه حيث سار، وهو يلطم ويبكي، فامتنع من الأكل والشرب، وكان إذا قدّم له طعام يقول: احملوا من هذا

إلى فلان، يعني الخادم، ولا يتجاسر أحد أن يقول إنّه مات، فإنّه قيل له مرّة إنّه مات، فقتل القائل له ذلك، إنّما كانوا يحملون إليه الطعام، ويعودون فيقولون: إنّه يقبّل الأرض ويقول: إنّني الآن أصلح ممّا كنت، فلحق أمراءه من الغيظ والأنفة من هذه الحالة ما حملهم على مفارقة طاعته والانحياز عنه مع وزيره، فبقي حيران لا يدري ما يصنع، ولا سيّما لمّا خرج التتر، فحينئذ دفن الغلام الخصيّ، وراسل الوزير واستماله وخدعه إلى أن حضر عنده، فلمّا وصل إليه بقي أيّاما وقتله جلال الدين، وهذه نادرة غريبة لم يسمع بمثلها".اهـ

قلت: إن صح هذا فغريب جدا كما قال ابن الأثير، وربما كانت هذه الأمور المنكرة إن صحت إليه هي سبب زوال ملكه على يدي شر خلق الله التتر.

وها أنا ذا أنقل لك أخي الكريم شاهد حال ممن عاصر هذه الأحداث القاسية عن قرب، وهو ابن الأثير رحمه، فقد سرد تلك الأحداث سردا موجزا مفيدا أنقله بنصه.

قال رحمه الله: "وفي هذه السنة حصر التتر مَرَاغَةَ من أذربيجان، فامتنع أهلها، ثمّ أذعن أهلها بالتسليم على أمان طلبوه، فبذلوا لهم الأمان، وتسلّموا البلد وقتلوا فيه إلّا أنّهم لم يكثروا القتل وجعلوا في البلد شحنة، وعظم حينئذ شأن التتر، واشتدّ خوف الناس منهم بأذربيجان، فالله تعالى ينصر الإسلام والمسلمين نصرا من عنده، فما نرى في ملوك الإسلام من له رغبة في الجهاد، ولا في نصرة الدين، بل كلّ منهم مقبل على لهوه ولعبة وظلم رعيّته، وهذا

أخوف عندي من العدوّ، وقال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٥﴾ [سورة الأنفال:٢٥]، وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً".

ذكر وصول جلال الدين إلى آمد وانهزامه عندها، وما كان منه لمّا رأى جلال الدين ما يفعله التتر في بلاد أذربيجان، وأنّهم مقيمون بها يقتلون، وينهبون، ويأسرون، ويخرّبون البلاد، ويجبون الأموال، وهم عازمون على قصده، ورأى ما هو عليه من الوهن والضعف، فارق أذربيجان إلى بلاد خلاط، وأرسل إلى النائب بها عن الملك الأشرف يقول له: ما جئنا للحرب ولا للأذى، إنّما خوف هذا العدوّ حملنا على قصد بلادكم.

وكان عازمًا على أن يقصد ديار بكر والجزيرة، ويقصد باب الخليفة يستنجده وجميع الملوك على التتر، ويطلب منهم المساعدة على دفعهم، ويحذرهم عاقبة إهمالهم، فوصل إلى خلاط، فبلغه أنّ التتر يطلبونه، وهم مجدّون في أثره، فسار إلى آمِدَ، وجعل له (الْيَزَكَ) في عدّة مواضع خوفا من البيات، فجاءت طائفة من التتر يقصّون أثره، فوصلوا إليه وهم على غير الطريق الّذي فيه الْيَزَك، فأوقعوا به ليلا وهو بظاهر مدينة (آمِدَ)، فمضى منهزما على وجهه، وتفرّق من معه من العسكر وتمزّقوا في كلّ وجه، فقصد طائفة من عسكره حَرَّانَ، فأوقع بهم الأمير صواب ومن معه من عسكر الكامل بحرّان، فأخذوا ما معهم من مال،

وسلاح، ودوابّ، وقصد طائفة منهم (نَصِيبِينَ وَالْمَوْصِلَ، وَسِنْجَارَ، وإِرْبِلَ)، وغير ذلك من البلاد، فتخطّفهم الملوك والرعايا، وطمع فيهم كلّ أحد، حتّى الفلّاح، والكردي، والبدويّ، وغيرهم، وانتقم منهم وجازاهم على سوء صنيعهم، وقبيح فعلهم في خلاط وغيرها، وبما سعوا في الأرض من الفساد، وَاللهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ، فازداد جلال الدين ضعفا إلى ضعفه، ووهنا إلى وهنه بمن تفرّق من عسكره، وبما جرى عليهم.

فلمّا فعل التتر بهم ذلك، ومضى منهزما منهم، دخلوا ديار بكر في طلبه، لأنّهم لم يعلموا أين قصد، ولا أيّ طريق سلك، فسبحان من بدّل أمنهم خوفا، وعزّهم ذلّا، وكثرتهم قلّة، فتبارك الله ربّ العالمين الفعّال لما يشاء.

ذكر دخول التتر ديار بكر والجزيرة وما فعلوه في البلاد من الفساد

لمّا انهزم جلال الدين من التتر على آمد نهب التتر سواد (آمِدَ وَأَرْزَنَ ومَيَّافَارِقِينَ)، وقصدوا مدينة (أَسْعَرْدَ)، فقاتلهم أهلها، فبذل لهم التتر الأمان، فوثقوا منهم واستسلموا، فلمّا تمكّن التتر منهم، وضعوا فيهم السيف وقتلوهم حتّى كادوا يأتون عليهم، فلم يسلم منهم إلّا من اختفى، وقليل ما هم.

حكى لي بعض التجار، وكان قد وصل آمد، أنّهم حزروا القتلى ما يزيد على خمسة عشر ألف قتيل، وكان مع هذا التاجر جارية من أَسْعَرْد، فذكرت أنّ سيدها خرج ليقاتل، وكان له أمّ، فمنعته، ولم يكن لها ولد سواه، فلم يصغ إلى

قولها، فمشت معه، فقتلا جميعا، وورثها ابن أخ للأمّ فباعها من هذا التاجر، وذكرت من كثرة القتلى أمرا عظيما، وأنّ مدّة الحصار كانت خمسة أيّام.

ثمّ ساروا منها إلى مدينة (**طَنْزَة**) ففعلوا فيها كذلك، وساروا من طَنْزَة إلى واد بالقرب من طَنْزَة يقال له (**وادي الْقُرَيْشِيَّةِ**)، فيه مياه جارية، وبساتين كثيرة، والطريق إليه ضيّق، فقاتلهم أهل الْقُرَيْشِيَّة فمنعوهم عنه، وامتنعوا عليهم، وقتل بينهم كثير، فعاد التتر ولم يبلغوا منهم غرضا، وساروا في البلاد لا مانع يمنعهم، ولا أحد يقف بين أيديهم، فوصلوا إلى مَارِدِينَ فنهبوا ما وجدوا من بلدها، واحتمى صاحب ماردين وأهل (**دُنَيْسِرَ**) بقلعة ماردين، وغيرهم ممّن جاور القلعة احتمى بها أيضا.

ثمّ وصلوا إلى (**نصيبين الجزيرة**)، فأقاموا عليها بعض نهار، ونهبوا سوادها وقتلوا من ظفروا به، وغلقت أبوابها، فعادوا عنها، ومضوا إلى بلد (**سِنْجَارَ**)، ووصلوا إلى الجبال من أعمال سنجار، فنهبوها ودخلوا إلى (**الْخَابُورِ**)، فوصلوا إلى عرابان، فنهبوا، وقتلوا، وعادوا.

ومضى طائفة منهم على طريق الموصل، فوصل القوم إلى قرية تسمّى (**الْمُؤْنِسَةَ**)، وهي على مرحلة من نصيبين، بينها وبين الموصل، فنهبوها واحتمى أهلها وغيرهم بِخَانٍ فيها، فقتلوا كلّ من فيه.

وحكي لي عن رجل منهم أنّه قال: اختفيت منهم ببيت فيه تِبْنٌ، فلم يظفروا بي، وكنت أراهم من نافذة في البيت، فكانوا إذا أرادوا قتل إنسان، فيقول، لا بالله، فيقتلونه، فلمّا فرغوا من القرية، ونهبوا ما فيها، وسبوا الحريم، رأيتهم وهم يلعبون على الخيل، ويضحكون، ويغنون بلغتهم يقول: لا بالله!

ومضى طائفة منهم إلى نصيبين الروم، وهي على الفرات، وهي من أعمال آمد، فنهبوها، وقتلوا فيها، ثمّ عادوا إلى آمد، ثمّ إلى بلد بَدْلِيسَ، فتحصّن أهلها بالقلعة وبالجبال، فقتلوا فيها يسيرا، وأحرقوا المدينة.

وحكى إنسان من أهلها قال: لو كان عندنا خمس مائة فارس لم يسلم من التتر أحد لأنّ الطريق ضيّق بين الجبال، والقليل يقدر على منع الكثير.

ثم ساروا من بَدْلِيسَ إلى خِلَاطَ، فحصروا مدينة من أعمال خلاط يقال لها: بَاكْرَى، وهي من أحصن البلاد، فملكوها عنوة، وقتلوا كلّ من بها، وقصدوا مدينة أَرْجِيشَ من أعمال خلاط، وهي مدينة كبيرة عظيمة، ففعلوا كذلك، وكان هذا في ذي الحجّة.

ولقد حكي لي عنهم حكايات يكاد سامعها يكذب بها من الخوف الّذي ألقى الله سبحانه وتعالى في قلوب الناس منهم، حتّى قيل إنّ الرجل الواحد منهم كان يدخل القرية أو الدرب وبه جمع كثير من الناس، فلا يزال يقتلهم واحدا بعد واحد، لا يتجاسر أحد أن يمدّ يده إلى ذلك الفارس.

ولقد بلغني أنّ إنسانا منهم أخذ رجلا، ولم يكن مع التتريّ ما يقتله به، فقال له: ضع رأسك على الأرض ولا تبرح، فوضع رأسه على الأرض، ومضى التتريّ فأحضر سيفا وقتله به.

وحكى لي رجل قال: كنت أنا ومعي سبعة عشر رجلا في طريق، فجاءنا فارس من التتر وقال لنا حتّى يكتف بعضنا بعضا، فشرع أصحابي يفعلون ما أمرهم، فقلت لهم: هذا واحد فلم لا نقتله ونهرب؟ فقالوا: نخاف.

فقلت: هذا يريد قتلكم الساعة، فنحن نقتله، فلعلّ الله يخلّصنا، فو الله ما جسر أحد أن يفعل، فأخذت سكينا وقتلته وهربنا فنجونا، وأمثال هذا كثير.

ذكر وصول طائفة من التتر إلى إِرْبِلَ وَدَقُوقَا

في هذه السنة، في ذي الحجّة، وصل طائفة من التتر من أذربيجان إلى أعمال إربل، فقتلوا من على طريقهم من (**التُّرْكُمَانِ الْإِيوَانِيَّةِ وَالْأَكْرَادِ الْجُوزْقَانِ**) وغيرهم إلى أن دخلوا بلد إربل، فنهبوا القرى، وقتلوا من ظفروا به من أهل تلك الأعمال، وعملوا الأعمال الشنيعة التي لم يسمع بمثلها من غيرهم.

وبرز مظفّر الدين، صاحب إربل، في عساكره، واستمدّ عساكر الموصل فساروا إليه، فلمّا بلغه عود التتر إلى أذربيجان أقام في بلاده ولم يتبعهم، فوصلوا إلى بلد (**الْكَرْخِينِيِّ**)، وبلد (**دَقُوقَا**)، وغير ذلك، وعادوا سالمين لم يذعرهم أحد، ولا وقف في وجوههم فارس.

وهذه مصائب وحوادث لم ير الناس من قديم الزمان وحديثه ما يقاربها، فالله سبحانه وتعالى يلطف بالمسلمين، ويرحمهم، ويردّ هذا العدوّ عنهم، وخرجت هذه السنة ولم نتحقّق لجلال الدين خبرا، ولا نعلم هل قتل، أو اختفى، لم يظهر نفسه خوفا من التتر، أو فارق البلاد إلى غيرها، والله أعلم.

ذكر طاعة أهل أذربيجان للتتر

في أواخر هذه السنة أطاع أهل بلاد أذربيجان جميعها للتتر، وحملوا إليهم الأموال والثياب الْخِطَائِيَّ، وَالْخُوَيِّيَّ، وَالْعِتَابِيَّ، وغير ذلك، وسبب طاعتهم أنّ جلال الدين لمّا انهزم على آمد من التتر، وتفرّقت عساكره، وتمزّقوا كلّ ممزّق، وتخطّفهم الناس، وفعل التتر بديار بَكر والجزيرة وإربل وخلاط ما فعلوا، ولم يمنعهم أحد، ولا وقف في وجوههم واقف، وملوك الإسلام منجحرون في الأثقاب، وانضاف إلى هذا انقطاع أخبار جلال الدين، فإنّه لم يظهر له خبر، ولا علموا له حالة، سقط في أيديهم، وأذعنوا للتتر بالطاعة، وحملوا إليهم ما طلبوا منهم من الأموال والثياب".

ثم قال: "وأما جلال الدين فإلى آخر سنة ثمان وعشرين لم يظهر له خبر وكذلك الى سلخ صفر سنة تسع لم نقف له على حال والله المستعان".اهـ

قلت: رحم الله الحافظ أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني الجزري ابن الأثير، فقد انتهى في كتابة تاريخه الكامل إلى هذه السنة سنة ثمان وعشرين

وستمائة، ثم وافته المنية بعدها بسنة وبضعة أشهر، فإنه توفي سنة ثلاثين وستمائة رحمه الله ورفع درجته في عليين.

وقد لخص ابن كثير رحمه الله تلك الأحداث المؤلمة بقوله في البداية والنهاية: "فَلَمَّا جَاءَتِ التَّتَارُ اشْتَغَلَ بِهِمْ، وَأَمَرَ بِدَفْنِ قِلْجٍ، وَهَرَبَ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ، وَامْتَلَأَ قَلْبُهُ خَوْفًا مِنْهُمْ، وَجَعَلَ كُلَّمَا سَارَ إِلَى قُطْرٍ لَحِقُوهُ إِلَيْهِ، وَخَرَّبُوا مَا اجْتَازُوا بِهِ مِنَ الْأَقَالِيمِ وَالْبُلْدَانِ، حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى الْجَزِيرَةِ، وَجَاوَزُوهَا إِلَى سِنْجَارَ وَمَارِدِينَ وَآمِدَ، يُفْسِدُونَ مَا قَدَرُوا عَلَيْهِ قَتْلًا وَأَسْرًا وَنَهْبًا. وَتَمَزَّقَ شَمْلُ جَلَالِ الدِّينِ، وَتَفَرَّقَ عَنْهُ جَيْشُهُ، فَصَارُوا شَذَرَ مَذَرَ، وَبُدِّلُوا بِالْأَمْنِ خَوْفًا، وَبِالْعِزِّ ذُلًّا، وَبِالِاجْتِمَاعِ تَفْرِيقًا، فَسُبْحَانَ مَنْ بِيَدِهِ الْمَلَكُوتُ! وَانْقَطَعَ خَبَرُ جَلَالِ الدِّينِ فَلَا يُدْرَى أَيْنَ سَلَكَ وَلَا أَيْنَ ذَهَبَ. وَتَمَكَّنَتِ التَّتَارُ مِنَ النَّاسِ فِي سَائِرِ الْبِلَادِ لَا يَجِدُونَ مَنْ يَمْنَعُهُمْ وَلَا مَنْ يَرْدَعُهُمْ، وَأَلْقَى اللهُ تَعَالَى الْوَهْنَ وَالضَّعْفَ فِي قُلُوبِ النَّاسِ مِنْهُمْ، كَانُوا كَثِيرًا مَا يَقْتُلُونَ النَّاسَ، فَيَقُولُ الْمُسْلِمُ: لَا بِاللهِ، لَا بِاللهِ. فَكَانُوا يَلْعَبُونَ عَلَى الْخَيْلِ، وَيُغَنُّونَ وَيُحَاكُونَ النَّاسَ: لَا بِاللهِ لَا بِاللهِ. وَهَذِهِ طَامَّةٌ عُظْمَى وَدَاهِيَةٌ كُبْرَى، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ.

وَحَجَّ النَّاسُ فِي هَذِهِ السَّنَةِ مِنَ الشَّامِ، وَكَانَ فِيمَنْ خَرَجَ الشَّيْخُ تَقِيُّ الدِّينِ أَبُو عَمْرِو بْنُ الصَّلَاحِ، ثُمَّ لَمْ يَحُجَّ النَّاسُ بَعْدَ هَذِهِ السَّنَةِ أَيْضًا لِكَثْرَةِ الْحُرُوبِ وَالْخَوْفِ مِنَ التَّتَرِ وَالْفِرِنْجِ، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ".اهـ

أما الإمام الذهبي في تاريخه فقد ذكر تفصيلا لبعض الوقائع بما لم يذكره غيره حيث قال: "سنة أربعٍ وعشرين وستمائة

فيها جرت وقعةُ بين جلال الدِّين الخُوارزْميّ وبين التّتار، وكان بتبريز فجاءه الخبرُ أنّ التتار قد قصدوا (أَصْبَهَانَ)، فجمع عسكره، وتهيَّأ للملتقى؛ لكون أولاده وحُرَمِهِ فيها، فلمّا وصلها، وأزاح عِلل الجند بما احتاجوا، جرَّد منهم أربعة آلاف صوب الرَّيّ بدَامَغَان يَزَكًا، فكانتِ الأخبار تَرِدُ من جهتهم وهم يتقهقرون، والتّتار يتقدَّمون، إلى أن جاءه اليَزَكُ، وأخبروه بما في عسكر التّتار من الأبطال المذكورين مثل باجي نويل، وباقو نويل، وأَسَر طَغَان، ووصلت التّتار، فنزلوا شرقيّ إصْبَهان.

وكان المنجمون أشاروا على السُّلطان جلال الدِّين بمصابرتهم ثلاثة أيام، والتقائهم في اليوم الرابع، فلزِم المكان مرتقبَ اليوم الموعود، وكان أمراؤه وجيشه قد انزعجوا من التّتار، والسُّلطان يتجلَّدُ، ويظهر قوَّة، ويشجّع أصحابَه، ويُسهل الخطب، ثمّ استحلفهم أن لا يهربوا، وحَلَفَ هو، وأحضر قاضي إصْبَهانَ ورئيسها وأمرهما بعرض الرّجّالة في السِّلاح.

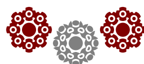
فلمّا رأى التّتارُ تأخّرَ السُّلطان عن الخروج إليهم، ظنُّوا أنَّه امتلأ خوفًا، فجرّدوا ألفي فارس إلى الجبال يغارون ويجمعون ما يقوتهم مُدَّة الحصار، فدخلوا الجبال وتوسَّطوها، فجهز السُّلطانُ وراءهم ثلاثةَ آلاف فارس، فأخذوا عليهم المضايق والمسالك، وواقعوهم، وقتلوا فيهم وأسروا.

ثمّ خرج في اليوم الموعود، وعبَّى جيشه للمصافّ، فلمّا تراءى الجمعان خذله أخوه غياث الدِّين وفارقه بعسكره، فتبِعه جَهان بهلوان، لوحشةٍ حدثت له ذلك الوَقْت، وتغافلَ السُّلطان عنه، ووقف التّتار كراديس متفرّقة مترادفة، فلمّا حاذاهم جلالُ الدِّين أمر رجَّاله إصْبَهان بالعَوْدِ، ورأى عسكره كثيرًا، وتباعدَ ما بين ميمنة السُّلطان وميسرته حَتّى لم تعرف الواحدة منهما ما حالُ الأخرى، فحملت ميمنتُه على مَيْسَرة التّتار هزمتها، وفعلت ميسرتُه.

فلمّا أمسى السُّلطانُ، ورأى انهزامَ التّتار نزل، فأتاه أحدُ أمرائه وقال له: قد تمنيّنا دهرًا نُرزق فيه يومًا نفرحُ فيه، فما حصل لنا مثلُ هذا اليوم وأنت جالسٌ، فلم يزل به حَتّى رَكِبَ وعَبَرَ الْجُرف، وكان آخِرَ النّهار، فلمّا شاهد التّتار السّواد الأعظم، تجرّد جماعةٌ من شجعانهم، وكَمَنُوا لهم، وخرجوا وقت المغرب على ميسرة السُّلطان كالسَّيل وحملوا حملةً واحدة، فزالت الأقدام، وانهزموا، وقتل من الأمراء ألب خان، وأُرتق خان، وكوج خان، وبولق خان، وماج الفريقان، وحمي الوطيسُ واشتدّ القتال، وأُسر علاءُ الدَّولة آناخان صاحب يزد، ووقف السُّلطان في القلب وقد تبدَّد نظامُه، وتفرّقت أعلامُه، وأحاط به التّتار، وصار المخلص من شدَّة الاختلاط أضيقَ من سَمِّ الخِياط، ولم يبق معه إلّا أربعة عشر نفسًا من خواصّ مماليكه، فانهزم على حميّة، فطعن لولا الأجلُ لهلك.

ثمّ أفرج له الطّريق، وخلص من المضيق، ثمّ إنّ القلب والميسرة تمزّقت في الأقطار، فمنهم من وقع إلى فارس، ومنهم من وصل كِرمان، ومنهم من قصد تبريز. وعادت الميمنة بعد يومين.

فلم نسمع بمثله مصافًّا لانهزام كِلا الفريقين، وذلك في الثّاني والعشرين من رمضان، ثمّ لجأ السُّلطانُ إلى إصْبَهان، وتحصَّن بها، فلم تصل التّتار إليه، وحاصروا إصْبَهان، ورَدّوا إلى خُراسان".اهـ



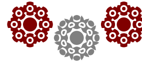
نهاية السلطان جلال الدين الخوارزمي وزوال الدولة الخوارزمية

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في وفيات سنة ثمان وعشرين وستمائة:

"ثُمَّ سَاقُوا وَرَاءَ جَلَالِ الدِّينِ هَذَا حَتَّى مَزَّقُوا عَسَاكِرَهُ شَذَرَ مَذَرَ، وَتَفَرَّقُوا عَنْهُ أَيْدِي سَبَا، وَانْفَرَدَ هُوَ وَحْدَهُ، فَلَقِيَهُ فَلَّاحٌ مِنْ قَرْيَةٍ بِأَرْضِ مَيَّافَارِقِينَ، فَأَنْكَرَهُ لِمَا عَلَيْهِ مِنَ الْجَوَاهِرِ وَالذَّهَبِ، وَعَلَى فَرَسِهِ، فَقَالَ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ: أَنَا مَلِكُ الْخُوَارَزْمِيَّةِ. وَكَانُوا قَدْ قَتَلُوا لِلْفَلَّاحِ أَخًا، فَأَنْزَلَهُ وَأَظْهَرَ إِكْرَامَهُ، فَلَمَّا نَامَ قَتَلَهُ بِفَأْسٍ كَانَتْ عِنْدَهُ، وَأَخَذَ مَا عَلَيْهِ، فَبَلَغَ الْخَبَرُ إِلَى شِهَابِ الدِّينِ غَازِيِّ بْنِ الْعَادِلِ، صَاحِبِ مَيَّافَارِقِينَ فَاسْتَدْعَى بِالْفَلَّاحِ، فَأَخَذَ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْجَوَاهِرِ وَالْحُلِيِّ، وَأَخَذَ الْفَرَسَ أَيْضًا، وَكَانَ الْمَلِكُ الْأَشْرَفُ يَقُولُ: هُوَ سَدٌّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ التَّتَارِ، كَمَا أَنَّ السَّدَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ.).

قلت: وبموت السلطان جلال الدين كان زوال الدولة الخوارزمية، وانتهاء عهدها بعد أن حكمت مناطق واسعة في المشرق الإسلامي وبلاد الهند قرابة مائة عام، فإنها تأسست سنة ستة وثلاثين وخمسمائة، وانتهت سنة ثمان وعشرين وستمائة، وقد كانت من أعظم سلطنات الإسلام، فسبحان الذي يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء وصدق الله إذ يقول: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ

ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ [آل عمران:٢٦].



الطريق إلى بغداد

بعد موت السلطان جلال الدين، وزوال الدولة الخوارزمية التي كانت تمثل سدا منيعا لعاصمة الخلافة الإسلامية، وبلاد الشام ومصر والمغرب صار الطريق مفتوحا أمام التتار إلى هذه البلدان، والبقية الباقية من العالم الإسلامي، فازداد طمع التتار في ذلك، وبدأت استعداداتهم الكبيرة للقضاء على بغداد عاصمة الخلافة؛ لعلمهم أنه بسقوط بغداد ستسقط الشام وغيرها من البلاد، لا سيما، وأنه لا شيء يمنعهم، فقد صاروا على مقربة من العراق بعد أن انتهوا من مملكة خوارزم.

وعاصمة الخلافة بغداد آنذاك تعتبر أعظم مدينة في العالم، ويسكنها عدد كبير جدًا من الناس، قدر بعضهم عددهم وقتئذ بثلاثة ملايين، وهذه صورة تقريبية.



بغداد القديمة

وكان اللعين هولاكو قد وصلته الأخبار بذلك، فعلم أن غزوه لبغداد ليس بالأمر السهل، فبغداد مدينة عريقة، وهي عاصمة الخلافة الإسلامية منذ أكثر من خمسمائة سنة، وفيها من التحصينات والأسوار والقلاع ما يزيد في أهميتها وصعوبة الاستيلاء عليها، وغزوها ربما يتسبب بإيقاظ روح الجهاد عند المسلمين في أرجاء المعمورة، فلن يتحملوا ذلك، لأن القضاء على بغداد معناه القضاء على بلاد الإسلام بالكلية، فحسب الخبيث كل هذه الحسابات فرأى أن يتريث ليعد خطة شيطانية محكمة يضمن بها النصر، ولو طالت مدتها لذلك جعل خطته تسير على مراحل لفترة طويلة، ولم يستعجل التتار في هذا الأمر على خلاف عوائدهم، لذلك طالت مدة الإعداد لسنوات حتى تم لهم دخول بغداد.

فمن سنة ستمائة وتسعة وأربعين إلى ستمائة وخمسة وخمسين أي قرابة ست سنوات، وهو يجهز الجيوش، ويُعِد العدة ويرسم الخطط مع أهل الرأي والمشورة من أهل مملكته، وهذا كله لما كان في صدورهم من التهيب الكبير لاجتياح عاصمة الخلافة بغداد، والعجيب أن الأخبار تصل إلى المسلمين في الشام ومصر والمغرب واليمن والحجاز بل وتصل أخبار الاستعدادات الكبيرة التي يقوم بها التتار إلى العراق، وبالتحديد إلى أهالي بغداد بل إلى مسامع الخليفة ورجال دولته، وكأن الأمر لا يعنيهم ولا يخصهم، وخلال ست سنوات لم يحصل أي تحرك ولا إعداد، ولا حتى رسم خطة ولو لمواجهة محتملة لا

من الخليفة ولا من غيره من الأمراء والقادة وسلاطين الممالك، حتى الإعداد المعنوي من بث روح الجهاد وتحريض المؤمنين على القتال كل ذلك لم يكن!!!

فقد كان المسلمون يعيشون في سبات عميق، وغفلة سحيقة وبعد عن الله جل وعلا، وإعراض عن الاستقامة على شرعه إلا من رحم الله وقليل ما هم، والسواد الأعظم للمسلمين قد انشغلوا بشهوات الدنيا وترفها، وانصرفت هممهم لذلك وما شابهه، والله المستعان.

واشتهر في بغداد التنافس على شراء الجواري لا سيما من كانت تحسن الرقص والغناء والضرب على العود، ويُشترين بأغلى الأثمان مع ظهور ما هو أسوأ من هذا كله، وهو عقيدة الرافضة وكثرتهم وإظهار سب الصحابة؛ بل الأدهى والأمر أن وزير الدولة كان رافضيا محترقا. فهذه الأمور وغيرها بلا شك أنها من أسباب الزوال والهلاك وتسلط الأعداء، وهو ما وقع بعد ذلك كما سيأتي.

ومع هذا البلاء إلا أنه كان يوجد من الفقهاء والقضاة والعلماء والقراء والمحدثين والصالحين والراغبين في الجهاد؛ لكنهم قليل بالنسبة لمن عداهم، فصار الحال كما قال عليه الصلاة والسلام لما سألته أم المؤمنين زينب رضي الله عنه: أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: «**نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ**». متفق عليه.

والأمر الأشد غرابة وعجبا، أن الخليفة تصل إليه هذه الأخبار من استعداد التتار للزحف نحوه، ولم يقم بأي إعداد بل قام بالعكس من ذلك فإنه لما توفي الناصر، وجاء بعده الخليفة العباسي الظاهر، وكان من خيرة خلفاء بني العباس، كما تقدمت معنا الإشارة إليه صلحت الأحوال في زمنه، لكن لم يستمر في الحكم إلا تسعة أشهر، ثم وافته المنية فجاء بعده المستنصر، ثم جاء المعتصم الذي هو آخر خلفاء بني العباس في تلك الفترة، وتولى المعتصم الخلافة في ست مئة وواحد وأربعين، وبعد سنتين تماما من خلافته اتخذ وزيرا رافضيا يقال له (**ابن العلقمي**)، وكان يلقب نفسه بمؤيد الدين قبحه الله، وإنما كان دمارا لأهل الدين والدنيا، والعراق يكثر فيها الرافضة من زمن، وقد كانت تحصل بينهم وبين أهل السنة بين الحين والآخر ضرب وقتال؛ بسبب إقامة الرافضة لبعض البدع فلما تولى هذا الرافضي الوازرة مكن لأهل الرفض، فأظهروا من البدع والكفر ما لم يقدروا على إظهاره من قبل، لا سيما سب الصحابة رضي الله عنهم.

واستمر ابن العلقمي في وزارته من سنة ثلاثة وأربعين، إلى أن سقطت بغداد ست وخمسين، أي قرابة أربعة عشر سنة، وهو وزيرا للدولة العباسية بما يحمله من الفكر الخبيث.

وعلىٰ كل حال فقد قام هولاكو خلال هذه السنوات الست بجمله من الخطط التمهيدية لإسقاط بغداد، منها:

أولًا: تقوية الجيش من حيث العدد والعدة والتدريب.

ثانيًا: قام بجملة من التحالفات التي عقدها مع بعض ملوك النصارى كالأرمن وغيرهم، وبعض ملوك النصارى الذين كانوا على ساحل الشام ممن بقيت معهم بعض القلاع في ساحل الشام.

ثالثًا: قام بتحالفات مع بعض أمراء المسلمين، وكانت هذه المصيبة بحق فتحالف مع أمير دمشق وحلب، ومع أمير حمص، ومع أمير الموصل، وهؤلاء الأمراء بعضهم من بقايا الدولة الأيوبية من أحفاد صلاح الدين رحمه الله، وبعضهم من أحفاد الدولة السلجوقية، فعقد معهم تحالفات حتى لا يكونوا عائقًا أمامه، ولا يقومون بنصرة الخليفة إن استنجد بهم، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

رابعًا: قام بإصلاح الطرق وتوسعتها من الصين إلى فارس إلى قرب العراق، ولذلك من المصالح ما لا يخفى على المتأملّ:

فمنها: حتى يستطيع نقل الجنود دون عوائق، ولا يرهق الجند أثناء سيرهم بالإصلاحات؛ كي يدخروا كامل قوتهم لاجتياح العاصمة.

ومنها: حتى يمر بها أكبر عدد ممكن من الجيش.

خامسًا: أمر بإخلاء الطرق التي ستكون ممرا للجيش، وألا ترعى فيها وما حولها المواشي؛ حتى تنمو الحشائش والنباتات، وتكون مرعى للخيول والمواشي التي يأخذونها معهم.

سادسًا: قام ببث حرب نفسية بالغارات على بعض أطراف بلاد المسلمين والفتك بها وبأهلها؛ حتى تصل الأخبار إلى مسامع المسلمين، فيزداد رعبهم من التتار.

واستطاع أن يجمع حوله بعض أهل النفاق: من مرتزقة الأدباء والشعراء يكتبون له الأشعار الفصيحة، والرسائل البلاغية بالعربية الفصيحة على لسانه، ويصفون ما عنده من القوة والعظمة، ويرسلونها إلى أمراء بلاد الإسلام ورعاياهم حتى يعظم في أعين المسلمين، فيحصل عندهم الرعب والانهيار، ولا يفكرون بالمقاومة، وفعلا أثرت هذه الحرب النفسية كثيرا، لا سيما مع ما كان عليه غالب المسلمين، من ضعف أصلا سواء ضعف حسي، أو ضعف معنوي، لكن هذه الحرب النفسية تسببت في انهيار ما عند البعض من بقية باقية من روح قتالية، وإلى الله المشتكى.

سابعًا: قام هولاكو بالتواصل مع الوزير الرافضي ابن العلقمي، وكان سبب ذلك أنه في سنة خمسة وخمسين قبل أن تسقط بغداد بسنة واحدة حصل خلاف بين الرافضة والسنة في بغداد، واشتد الأمر حتى وصل إلى القتال، وتمكن أهل السنة، فقتلوا مجموعة من الرافضة ونكلوا بآخرين.

قال ابن كثير رحمه الله: "وَفِيهَا كَانَتْ فِتْنَةٌ عَظِيمَةٌ بِبَغْدَادَ بَيْنَ الرَّافِضَةِ وَأَهْلِ السُّنَّةِ، فَنُهِبَتِ الْكَرْخُ وَدُورُ الرَّافِضَةِ حَتَّى دُورُ قَرَابَاتِ الْوَزِيرِ ابْنِ الْعَلْقَمِيِّ، وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ أَقْوَى الْأَسْبَابِ فِي مُمَالَأَتِهِ التَّتَار". اهـ

فغضب لذلك ابن العلقمي، فاستغل هولاكو هذا، وراسل ابن العلقمي، وجعل يعده ويمنيه بأنه سيمكن له في بغداد إذا سهل له الدخول إليها، وسيجعله حاكما على بغداد.

واستمرت بينهما المراسلات السرية التي انكشفت، وانفضحت بعد ذلك على الملأ، وكانت من جملة الاتفاقيات بينهما قبحهما الله: أن يقوم الوزير ابن العلقمي بإقناع الخليفة بتقليل الجند، وذلك أن عدد الجند في بغداد في سنة ست مئة وخمسة وخمسين بلغ مائة ألف هؤلاء الذين هم جند الخلافة غير جنود السلاطين، فما زال ابن العلقمي يزين للخليفة أن هؤلاء الجند لا يحتاج إليهم جميعا، وأنهم يكلفون الدولة نفقات كثيرة، مع كونهم لا يقومون بحروب ولا شيء من ذلك، وأن من المصلحة أن الخليفة يصرفهم إلى الصناعات والزراعة التي فيها تنمية للبلد وتقوية لاقتصاده.

والعجيب جدا أن الخليفة اقتنع بهذا الأمر، وأوكل أمر الجند إلى هذا الوزير الخبيث، فلم يزل يقلل الجند تناقص عددهم خلال سنة واحدة من مئة ألف إلى عشرة آلاف.

وهذا الترتيب العجيب، والخطط المحكمة من هولاكو لعنه الله تدل على ما كان عند التتار من التهيب والتخوف من القتال المباشر مع جيش الخلافة؛ ولكن للأسف كان الأمر أهون من ذلك، فالخليفة ومن دونه حكومة وشعبًا كانوا أقل وأضعف من أن تجهز لهم كل هذه التجهيزات، فلو سار التتار من ساعتهم من دون هذا الإعداد لما وجدوا من يقف في طريقهم لغفلة المسلمين السحيقة عن أمر دينهم وصيانة مملكتهم، والله المستعان.

فلما اكتملت خطة اللعين هولاكو بدأ بالزحف بجيوش جرارة، وأعداد كثيرة جدا إلى بغداد، والخليفة ومن معه في غفلة تامة، وتأمل فظاعة هذاه الغفلة، وهذه الإهمال أن يسير التتار من الصين، ومن سائر ممالكهم، ويقطعون مئات الكيلوهات ليس لهم مقصد إلا العاصمة بغداد، والخليفة والمسلمون في بغداد لم يحصل منهم أدنى استعداد للمواجهة، مع أنهم قد جاءتهم الأخبار بخروج التتار أول بروزهم من همذان.

قال ابن كثير رحمه الله:" وَكَانَ قُدُومُ **(هُولَاكُو)** قَانَ بِجُنُودِهِ كُلِّهَا - وَكَانُوا نَحْوَ مِائَتَيْ أَلْفِ مُقَاتِلٍ - إِلَى بَغْدَادَ فِي ثَانِي عَشَرَ الْمُحَرَّمِ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ، وَهُوَ شَدِيدُ الْحَنَقِ عَلَى الْخَلِيفَةِ بِسَبَبِ مَا كَانَ تَقَدَّمَ مِنَ الْأَمْرِ الَّذِي قَدَّرَهُ اللهُ وَقَضَاهُ وَأَنْفَذَهُ وَأَمْضَاهُ، وَهُوَ أَنَّ هُولَاكُوقَانَ لَمَّا كَانَ أَوَّلُ بُرُوزِهِ مِنْ هَمَذَانَ مُتَوَجِّهًا إِلَى الْعِرَاقِ أَشَارَ الْوَزِيرُ مُؤَيِّدُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ الْعَلْقَمِيِّ عَلَى الْخَلِيفَةِ بِأَنْ يَبْعَثَ إِلَيْهِ بِهَدَايَا سَنِيَّةٍ؛ لِيَكُونَ ذَلِكَ مُدَارَاةً لَهُ عَمَّا يُرِيدُهُ مِنْ قَصْدِ بِلَادِهِمْ، فَخَذَّلَ الْخَلِيفَةَ

عَنْ ذَلِكَ دُوَيْدَارُهُ الصَّغِيرُ أَيْبَكُ وَغَيْرُهُ، وَقَالُوا: إِنَّ الْوَزِيرَ إِنَّمَا يُرِيدُ بِهَذَا مُصَانَعَةَ مَلِكِ التَّتَارِ بِمَا يَبْعَثُهُ إِلَيْهِ مِنَ الْأَمْوَالِ، وَأَشَارُوا بِأَنْ يَبْعَثَ بِشَيْءٍ يَسِيرٍ، فَأَرْسَلَ شَيْئًا مِنَ الْهَدَايَا، فَاحْتَقَرَهَا هُولَاكُوقَانَ، وَأَرْسَلَ إِلَى الْخَلِيفَةِ يَطْلُبُ مِنْهُ دُوَيْدَارَهُ الْمَذْكُورَ، وَسُلَيْمَانَ شَاهْ، فَلَمْ يَبْعَثْهُمَا إِلَيْهِ، وَلَا بَالَى بِهِ حَتَّى أَزِفَ قُدُومُهُ، وَوَصَلَ بَغْدَادَ بِجُنُودِهِ الْكَثِيرَةِ الْكَافِرَةِ الْفَاجِرَةِ الظَّالِمَةِ الْغَاشِمَةِ، مِمَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ. فَأَحَاطُوا بِبَغْدَادَ مِنْ نَاحِيَتِهَا الْغَرْبِيَّةِ وَالشَّرْقِيَّةِ، وَجُنُودُ بَغْدَادَ فِي غَايَةِ الْقِلَّةِ وَنِهَايَةِ الذِّلَّةِ".اهـ

فلم يشعر أهل بغداد إلا وجيش التتار بأعداده الهائلة قد صار على مقربة منهم، ليس بينه وبين بغداد إلا خمسين كيلو تقريبا!!! عندئذٍ اجتمع الخليفة بوزيره وقاداته، يستشيرهم ماذا يصنع، وكيف يواجهة هذه المصيبة التي حلت بهم وهم في غفلة؟؟

واختلفت الأراء، وزاغت العقول عن الرشد لقوة الصدمة التي نزلت بهم، فإن اختار الصلح مع التتار، فتاريخهم معروف فما تصالح معهم أهل بلد إلا نقضوه، ودمروا البلاد، وقتلوا أهلها بل أبادوهم، فهؤلاء قوم ليس لهم عهد ولا ذمة، وإن اختاروا القتال، فكيف يقاتلون والجند بهذا العدد القليل، وإن حاولوا تجهيز جيشا آخر فالوقت لا يسعفهم، فتجيهز الجيوش يحتاج إلى اختيار من

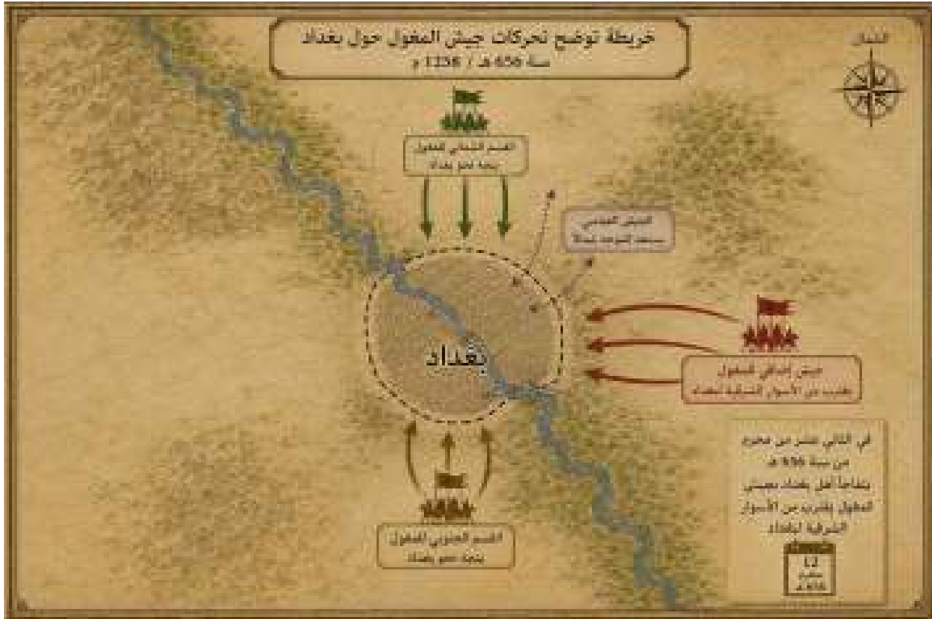
يصلح، وإلى تدريب وممارسة ومؤنة، وهذا يتطلب وقتا وجهدا، والعدو قد صار على مقربة منهم.

فكانت كل هذه الخيارات غير مجدية بالنسبة لهم وهي في الحقيقة كذلك.

لذلك كانت الفكرة الوحيدة التي يمكن اللجوء إليها هي: إغلاق أبواب المدينة والاختباء خلف الأسوار، على أن تقوم القلة الباقية من الجيوش، وبعض المتطوعة بالصعود على الأسوار؛ لمنع اقترابهم منها إن أمكن، فأغلقت الأبواب وصارت العاصمة في حالة استنفار وهلع، لا يدرون ماذا ينتظرهم، وكيف ستكون النهاية وإلى الله المشتكى.

أما الوزير ابن العلقمي الرافضي الخبيث، فإنه أشار على الخليفة بالمسالمة والموادعة، وجهد جهده في اقناع الخليفة بذلك، وأنه ليس ثمة حل آخر إذ لا يمكن القتال والحال هذه، وإنما نسالمهم ونوادعهم، ونرسل إليهم في طلب الصلح، وبينما ابن العلقمي يحاول اقناع الخليفة بالصلح مع التتار، كان هناك من مستشاري الخليفة اثنان أحدهما يقال له: مجاهد الدين أيبك، والآخر يقال له سليمان شاه، وليس بسليمان شاه جد العثمانيين بل هذا آخر، كان فيهما حمية وغيرة، فقاما بتحريض الخليفة على القتال، وذكراه بأنه التتار لا عهد لهم، ولو صالحهم وتاريخهم حافل بالغدر ونقض العهود، فكيف تصالحهم ولنا عبرة فيما مضى مع المسلمين في الممالك الأخرى، كيف فعلوا بهم لما سلموا لهم البلاد.

فاحتار الخليفة في أمره، ثم قرر أخيرا أن يسمح لمجاهد الدين، وسليمان شاة بتكوين جيش، والخروج للقاء التتار، فقام مجاهد الدين أيبك، وسليمان شاه وحاولوا أن يجمعوا ما تبقى من الجيش الضعيف، وجمعوا بعض المتطوعة، وغالبهم غير مدرب على القتال؛ لأن الناس انصرفوا إلى الدنيا والأعمال والترف وجمع الأموال، وتركوا الجهاد والتدريب والقتال، فخرجت جيوش ضعيفة مدربة، وجيوش غير نظامية ليست مدربة بأعداد قليلة لم يبلغ عددهم حتى عشرة آلاف، وكانت خطتهم أن يكون اللقاء بجيش هولاكو شمال بغداد.



فلما خرجوا إذا بهم يتفاجؤون أن هولاكو قد قسم جيشه ثلاثة أقسام ليحيطوا ببغداد من جميع الجهات، فبينما هم يستعدون للتوجه شمالا جاءهم الخبر بأن هناك جيش آخر يقترب من الأسوار الشرقية لبغداد، حتى تفاجأ أهل بغداد في الثاني عشر من محرم من سنة ستة وخمسين وستمائة للهجرة بجيش المغول يقترب من الأسوار الشرقية لبغداد، فجاءت الأخبار إلى مجاهد الدين ومن معه فتحولوا من جهة الشمال إلى جهة الشرق؛ لملاقاة الجيش الذي جاء من تلك الجهة حيث وقد صار قريبا من بغداد، ولما وصلوا إلى الأنبار طال اللقاء بالتتار، وقعت هناك معركة غير متكافئة تماما أعداد هائلة من التتار يقاتلون بضعة آلاف من المسلمين الغير مستعدين لا ماديا ولا معنويا، وإنما حملتهم الحماسة والغيرة، ولم يكن عندهم الاستعداد الكافي حتى إيمانيا إلا أفراد منهم،



فحصلت معركة غير متكافئة لساعات قضي فيها على جيش المسلمين تماما، واستطاع مجاهد الدين أيبك أن يفر، ويخلص بنفسه مع عدد يسير، ويرجع إلى بغداد، وقضي على عامة ذلك الجيش، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وكان هذا الجيش هو البقية الباقية من الأمل للمسلمين، وقد علقت الآمال عليه عساه أن يحقق شيئًا، لكن هذا الأمل تبخر وصار في خبر كان، وصدق الله إذ يقول: "﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [سورة النحل:١١٨].

فماذا تتوقع أن تكون النتيجة أمام هذا التخاذل!؟ ثلاثة ملايين داخل بغداد لا يخرج منهم حتى عشرة آلاف!! تُرى ماذا يفعل البقية؟ ماذا يريدون؟ ماذا ينتظرون؟ ولا يفسر ذلك إلا شيء واحد هو ما قاله عليه الصلاة والسلام: «**يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الْأُمَمُ، كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا**» ، فَقَالَ قَائِلٌ: أَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «**بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزِعَنَّ اللهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهَنَ**» ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا الْوَهَنُ؟ قَالَ: «**حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ**» . رواه أبو داود وغيره عن ثوبان وهو حديث صحيح .

إنما هي إحدى الحسنيين النصر أو الشهادة تموت عزيزا أو تعيش كريما، أما الرضى بالذلة والمهانة، ثم الموت بعد ذلك على هذا الحال، فتفكير أهل الخسة والضعف ينتظر أحدهم أن يأتي من يقتله وينتهك عرضه أمام عينيه وأخبار هؤلاء وفظائعهم قد صكت الأسماع كثرة؟!!

فسبحان الله! كيف أوصلهم حب الدنيا إلى هذا الحال وكيف أصمهم الحرص على الحياة ولو مع القهر والإذلال!!

فيخرج أقل من عشرة آلاف من ثلاثة ملايين، فكانت النتيجة أن قضى عليهم، ورجع أفراد قلة مع مجاهد الدين أيبك إلى بغداد، فعندئذ انطفأ بصيص الأمل، وحصل اليأس عند أهل بغداد من جدوى المقاومة في قتال مباشر، وصار معولهم كله على بقائهم خلف الأسوار، والاستعداد لحصارطويل.

أما هولاكو، فبعد القضاء على ذلك الجيش، فقد واصل تقدمه حتى وصل إلى أسوار بغداد، وضرب عليها الحصار من ثلاث جهات، وكان عدد الذين حاصروا بغداد فيما قدّره بعض المؤرخين مئتي ألف من دون الذين في المؤخرة، والذين ما زالوا في الطرقات والذين لهم مهام أخرى، فهؤلاء لا يعلم عددهم إلا الله.



فلما أطبق التتار الحصار على بغداد، وجهزوا المنجنيقات وآلات الحصار، والمراسلات مستمرة بين هولاكو، وابن العلقمي قبحهما الله إذ بابن العلقمي الرافضي يزين للخليفة مصالحة التتار، وتسليم

المدينة والدخول تحت طاعتهم حقنا للدماء، وحفاظا على البلد، ولا سيما في ظل قلة الجيش، وضعفه وعدم استعداد أهل بغداد للقتال، ومع حصل من القضاء على الجيش الذي خرج للقتال، فجعل يبث سمومه، ويهول الأمر على الخليفة، ويقذف في قلبه اليأس وأنه لم يتبق أمامهم إلا الذهاب للمفاوضات والاتفاق على بنود الصلح حتى صور للخليفة أنه لا يوجد حل آخر.

ومن العجائب المحزنة بل المبكية في حصار بغداد، أنه وبينما التتار مطوقون مدينة بغداد، يرمون أسوارها بالمنجنيقات حتى اقتربوا من السور القريب من القصر، وظهر لهم قصر الخلافة وجعلوا يرمون بالسهام الحارقة إلى داخل القصر، والخليفة في قصره ومعه بعض حاشيته، وبعض الجواري يلعبن ويرقصن للخليفة كما ذكر ذلك ابن كثير وغيره، فجاء سهم ودخل من بعض النوافذ، وأصاب جارية من حظايا الخليفة كانت تلعب بين يديه، فأصابها السهم فقتلها فحزن الخليفة وتشاؤم وتطيّر بذلك!!

فإنا لله وإنا إليه راجعون يحزن يضطرب على جارية قتلت، وهي ترقص ولم يحزن على أمة ستضيع، وعلى بلاد ستدمر، وعلى أرواح ستزهق، فانظر أين وصل الحال، وكيف صارت الشعوب، وكيف صار حال السلاطين، ولا غرابة فهكذا يكون الحال عندما يبتعد الإنسان عن تعظيم دين الله جل وعلا في سائر أموره.

فأمر الخليفة بأن تغلق النوافذ، وترد ستائر دار الخلافة، ويبالغ في الاحتراز ثم قام في الحال.

قال ابن كثير رحمه الله: "وَأَحَاطَ التَّتَارُ بِدَارِ الْخِلَافَةِ يَرْشُقُونَهَا بِالنُّشَّابِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، حَتَّى أُصِيبَتْ جَارِيَةٌ كَانَتْ تَلْعَبُ بَيْنَ يَدَيِ الْخَلِيفَةِ وَتُضْحِكُهُ، وَكَانَتْ مِنْ جُمْلَةِ الْحَظَايَا، وَكَانَتْ مُوَلَّدَةً تُسَمَّى عَرَفَةَ،جَاءَهَا سَهْمٌ مِنْ بَعْضِ الشَّبَابِيكِ فَقَتَلَهَا وَهِيَ تَرْقُصُ بَيْنَ يَدَيِ الْخَلِيفَةِ، فَانْزَعَجَ الْخَلِيفَةُ مِنْ ذَلِكَ، وَفَزِعَ فَزَعًا شَدِيدًا، وَأَحْضَرَ السَّهْمَ الَّذِي أَصَابَهَا بَيْنَ يَدَيْهِ، فَإِذَا عَلَيْهِ مَكْتُوبٌ: إِذَا أَرَادَ اللهُ إِنْفَاذَ قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ سَلَبَ ذَوِي الْعُقُولِ عُقُولَهُمْ. فَأَمَرَ الْخَلِيفَةُ عِنْدَ ذَلِكَ بِزِيَادَةِ الِاحْتِرَازِ، وَكَثْرَةِ السَّتَائِرِ عَلَى دَارِ الْخِلَافَةِ ". اهـ

واستغل ابن العلقمي ذلك، واستطاع أن يقنع الخليفة بالذهاب للتفاوض مع التتار، وأن يخرج هو أولا كي يأخذ أمانا للخليفة، ثم يذهب مع الخليفة للقاء هولاكو والاتفاق معه.

فوافق الخليفة على ذلك والسؤال الذي يُستغرب منه حقيقة: هل كان الخليفة فعلا بهذه السذاجة؟ أم ماذا؟! هل عمي بصره تماما عن مكايد وزيره وهو يجد هذه البلايا كلها بسبب هذا الوزير الفاسد، ومع ذلك لا زال يمشي خلف خططه.

ورحم الله الإمام الذهبي حيث يصف الخليفة بقوله:" ثم ركن إلى وزيره ابن العلقمي، فأهلك الحرث والنسل، وحسن له جمع الأموال، والاقتصار على

بعض العساكر، وقطع الأكثر، فوافقه على ذلك، وكان فيه شح، وقلة معرفة، وعدم تدبير، وحب للمال، وإهمال للأمور، وكان يتكل على غيره، ويقدم على ما لا يليق، وعلى ما يستقبح، وكان يلعب بالحمام، ويهمل أمر الإسلام، وابن العلقمي يلعب به كيف أراد، ولا يطلعه على الأخبار، وإذا جاءته نصيحة في السر أطلع عليها ابن العلقمي ليقضي الله أمراً كان مفعولا".اهـ

فكان اقتراح ابن العلقمي أن يخرج للمفاوضات مع بعض حاشيته، ويأخذ معه كبير بطارقة النصارى الذين في بغداد ممثلا للنصارى، ومن العجب ألا يتنبه لهذا أحد لا الخليفة، ولا من معه إذ كيف يخرج ليفاوض عن مدينة المسلمين وعن عاصمة خلافتهم كبير الرافضة وكبير النصارى، وإذا كان هؤلاء هم رأس الوفد المفاوض فما ظنك بالنتائج؟! وكلاهما يحملان العداء للإسلام وأهله، حتى إنه لم يسمح لأحد ممن جاء معهم من الحاشية لحضور المفاوضة مع هولاكو إلا لهما، والبقية لا يدرون ماذا حصل، وراء تلك الجدران من اتفاقيات.

وأترك القارئ الكريم مع الحافظ ابن كثير ليحكي لك حقيقة الحال بكلام مؤلم يدمي القلب ويفتت الكبد، قال رحمه الله: "وَلِهَذَا كَانَ –أي ابن العلقمي قبحه الله– أَوَّلُ مَنْ بَرَزَ إِلَى التَّتَارِ هُوَ، فَخَرَجَ فِي أَهْلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَخَدَمِهِ وَحَشَمِهِ، فَاجْتَمَعَ بِالسُّلْطَانِ هُولَاكُوقَانَ، لَعَنَهُ اللهُ تَعَالَى، ثُمَّ عَادَ فَأَشَارَ عَلَى الْخَلِيفَةِ

بِالْخُرُوجِ إِلَيْهِ وَالْمُثُولِ بَيْنَ يَدَيْهِ لِتَقَعَ الْمُصَالَحَةُ عَلَى أَنْ يَكُونَ نِصْفُ خَرَاجِ الْعِرَاقِ لِهَمْ وَنِصْفُهُ لِلْخَلِيفَةِ، فَاحْتَاجَ الْخَلِيفَةُ إِلَى أَنْ خَرَجَ فِي سَبْعِمِائَةِ رَاكِبٍ مِنَ الْقُضَاةِ وَالْفُقَهَاءِ وَالصُّوفِيَّةِ وَرُءُوسِ الْأُمَرَاءِ وَالدَّوْلَةِ وَالْأَعْيَانِ، فَلَمَّا اقْتَرَبُوا مِنْ مَنْزِلِ السُّلْطَانِ هُولَاكُوقَانَ حُجِبُوا عَنِ الْخَلِيفَةِ إِلَّا سَبْعَةَ عَشَرَ نَفَسًا، فَخَلَصَ الْخَلِيفَةُ بِهَؤُلَاءِ الْمَذْكُورِينَ، وَأُنْزِلَ الْبَاقُونَ عَنْ مَرَاكِبِهِمْ وَنُهِبَتْ، وَقُتِلُوا عَنْ آخِرِهِمْ، وَأُحْضِرَ الْخَلِيفَةُ بَيْنَ يَدَيْ هُولَاكُو فَسَأَلَهُ عَنْ أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ، فَيُقَالُ: إِنَّهُ اضْطَرَبَ كَلَامُ الْخَلِيفَةِ مِنْ هَوْلِ مَا رَأَى مِنَ الْإِهَانَةِ وَالْجَبَرُوتِ.

ثُمَّ عَادَ إِلَى بَغْدَادَ وَفِي صُحْبَتِهِ خَوَاجَا نَصِيرٌ الطُّوسِيُّ، لَعْنَةُ اللهِ عَلَيْهِ وَالْوَزِيرُ ابْنُ الْعَلْقَمِيِّ وَغَيْرُهُمَا، وَالْخَلِيفَةُ تَحْتَ الْحَوْطَةِ وَالْمُصَادَرَةِ، فَأَحْضَرَ مِنْ دَارِ الْخِلَافَةِ شَيْئًا كَثِيرًا مِنَ الذَّهَبِ وَالْحُلِيِّ وَالْمَصَاغِ وَالْجَوَاهِرِ وَالْأَشْيَاءِ النَّفِيسَةِ، وَقَدْ أَشَارَ أُولَئِكَ الْمَلَأُ مِنَ الرَّافِضَةِ، لَعْنَةُ اللهِ عَلَيْهِمْ، وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ عَلَى هُولَاكُوقَانَ أَنْ لَا يُصَالِحَ الْخَلِيفَةَ، وَقَالَ الْوَزِيرُ: مَتَى وَقَعَ الصُّلْحُ عَلَى الْمُنَاصَفَةِ لَا يَسْتَمِرُّ هَذَا إِلَّا عَامًا أَوْ عَامَيْنِ، ثُمَّ يَعُودُ الْأَمْرُ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ قَبْلَ ذَلِكَ. وَحَسَّنُوا لَهُ قَتْلَ الْخَلِيفَةِ، فَلَمَّا عَادَ الْخَلِيفَةُ إِلَى السُّلْطَانِ هُولَاكُو أَمَرَ بِقَتْلِهِ، وَيُقَالُ: إِنَّ الَّذِي أَشَارَ بِقَتْلِهِ الْوَزِيرُ ابْنُ الْعَلْقَمِيِّ وَالنَّصِيرُ الطُّوسِيُّ". اهـ

ثم قال رحمه الله: "فَلَمَّا قَدِمَ هُولَاكُوقَانَ، وَتَهَيَّبَ مِنْ قَتْلِ الْخَلِيفَةِ هَوَّنَ عَلَيْهِ الْوَزِيرَانِ ذَلِكَ، فَقَتَلُوهُ رَفْسًا وَهُوَ فِي جُوَالِقَ، لِئَلَّا يَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ شَيْءٌ مِنْ دَمِهِ، خَافُوا أَنْ يُؤْخَذَ بِثَأْرِهِ فِيمَا قِيلَ لَهُمْ، وَقِيلَ: بَلْ خُنِقَ. وَيُقَالُ: غُرِّقَ، فَاللهُ أَعْلَمُ، فَبَاءُوا بِإِثْمِهِ وَإِثْمِ مَنْ كَانَ مَعَهُ مِنْ سَادَاتِ الْعُلَمَاءِ وَالْقُضَاةِ وَالْأَكَابِرِ وَالرُّؤَسَاءِ وَالْأُمَرَاءِ وَأُولِي الْحَلِّ وَالْعَقْدِ بِبِلَادِ بَغْدَادَ - وَسَتَأْتِي تَرْجَمَةُ الْخَلِيفَةِ فِي الْوَفَيَاتِ - وَمَالُوا عَلَى الْبَلَدِ، فَقَتَلُوا جَمِيعَ مَنْ قَدَرُوا عَلَيْهِ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ وَالْمَشَايِخِ وَالْكُهُولِ وَالشُّبَّانِ.



وَدَخَلَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فِي الْآبَارِ وَأَمَاكِنِ الْحُشُوشِ، وَقُنِيِّ الْوَسَخِ، وَكَمَنُوا كَذَلِكَ أَيَّامًا لَا يَظْهَرُونَ، وَكَانَ الْفِئَامُ مِنَ النَّاسِ يَجْتَمِعُونَ فِي الْخَانَاتِ، وَيُغْلِقُونَ عَلَيْهِمُ الْأَبْوَابَ، فَتَفْتَحُهَا التَّتَارُ إِمَّا بِالْكَسْرِ أَوْ بِالنَّارِ، ثُمَّ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ فَيَهْرُبُونَ مِنْهُمْ إِلَى أَعَالِي الْمَكَانِ، فَيَقْتُلُونَهُمْ فِي الْأَسْطِحَةِ، حَتَّى تَجْرِيَ الْمَيَازِيبُ مِنَ الدِّمَاءِ فِي الْأَزِقَّةِ، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، وَكَذَلِكَ فِي الْمَسَاجِدِ وَالْجَوَامِعِ

وَالرُّبَطِ، وَلَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ أَحَدٌ سِوَى أَهْلِ الذِّمَّةِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَمَنِ الْتجَأَ إِلَيْهِمْ وَإِلَى دَارِ الْوَزِيرِ ابْنِ الْعَلْقَمِيِّ الرَّافِضِيِّ، وَطَائِفَةٍ مِنَ التُّجَّارِ أَخَذُوا لَهُمْ أَمَانًا بَذَلُوا عَلَيْهِ أَمْوَالًا جَزِيلَةً حَتَّى سَلِمُوا وَسَلِمَتْ أَمْوَالُهُمْ. وَعَادَتْ بَغْدَادُ بَعْدَمَا كَانَتْ آنَسَ الْمُدُنِ كُلِّهَا كَأَنَّهَا خَرَابٌ لَيْسَ فِيهَا أَحَدٌ إِلَّا الْقَلِيلُ مِنَ النَّاسِ، وَهُمْ فِي خَوْفٍ وَجُوعٍ وَذِلَّةٍ وَقِلَّةٍ.

وَكَانَ الْوَزِيرُ ابْنُ الْعَلْقَمِيِّ قَبْلَ هَذِهِ الْحَادِثَةِ يَجْتَهِدُ فِي صَرْفِ الْجُيُوشِ وَإِسْقَاطِ أَسْهُمِهِمْ مِنَ الدِّيوَانِ، فَكَانَتِ الْعَسَاكِرُ فِي آخِرِ أَيَّامِ الْمُسْتَنْصِرِ قَرِيبًا مِنْ مِائَةِ أَلْفِ مُقَاتِلٍ، مِنْهُمْ مَنَ الْأُمَرَاءِ مَنْ هُوَ كَالْمُلُوكِ الْأَكَابِرِ، فَلَمْ يَزَلْ يَجْتَهِدُ فِي تَقْلِيلِهِمْ إِلَى أَنْ لَمْ يَبْقَ إِلَّا عَشَرَةُ آلَافٍ، ثُمَّ كَاتَبَ التَّتَارَ، وَأَطْمَعَهُمْ فِي أَخْذِ الْبِلَادِ، وَسَهَّلَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ، وَجَلَّى لَهُمْ حَقِيقَةَ الْحَالِ، وَكَشَفَ لَهُمْ ضَعْفَ الرِّجَالِ، وَذَلِكَ كُلُّهُ طَمَعًا مِنْهُ أَنْ يُزِيلَ السُّنَّةَ بِالْكُلِّيَّةِ، وَأَنْ يُظْهِرَ الْبِدْعَةَ الرَّافِضِيَّةَ، وَأَنْ يُقِيمَ خَلِيفَةً مَنَ الْفَاطِمِيِّينَ، وَأَنْ يُبِيدَ الْعُلَمَاءَ وَالْمُفْتِينَ، وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ، وَقَدْ رَدَّ كَيْدَهُ فِي نَحْرِهِ، وَأَذَلَّهُ بَعْدَ الْعِزَّةِ الْقَعْسَاءِ، وَجَعَلَهُ حُوشْكَاشًا لِلتَّتَارِ بَعْدَمَا كَانَ وَزِيرًا لِلْخُلَفَاءِ، وَاكْتَسَبَ إِثْمَ مَنْ قُتِلَ بِمَدِينَةِ بَغْدَادَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْأَطْفَالِ، فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ رَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ. "اهـ

ثم قال رحمه الله: "وَقَدِ اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي كَمِّيَّةِ مَنْ قُتِلَ بِبَغْدَادَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَقِيلَ: ثَمَانُمِائَةِ أَلْفٍ، وَقِيلَ: أَلْفُ أَلْفٍ وَثَمَانُمِائَةِ أَلْفٍ. وَقِيلَ: بَلَغَتِ

الْقَتْلَى أَلْفَيْ أَلْفِ نَفْسٍ، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

وَكَانَ دُخُولُهُمْ إِلَى بَغْدَادَ فِي أَوَاخِرِ الْمُحَرَّمِ، وَمَا زَالَ السَّيْفُ يَقْتُلُ أَهْلَهَا أَرْبَعِينَ صَبَاحًا، وَكَانَ قَتْلُ الْخَلِيفَةِ الْمُسْتَعْصِمِ بِاللهِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ الْأَرْبِعَاءِ رَابِعَ عَشَرَ صَفَرٍ، وَعَفَا قَبْرُهُ، وَكَانَ عُمْرُهُ يَوْمَئِذٍ سِتًّا وَأَرْبَعِينَ سَنَةً وَأَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ، وَمُدَّةُ خِلَافَتِهِ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً وَثَمَانِيَةُ أَشْهُرٍ وَأَيَّامٌ، وَقُتِلَ مَعَهُ وَلَدُهُ الْأَكْبَرُ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ، وَلَهُ خَمْسٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً، ثُمَّ قُتِلَ وَلَدُهُ الْأَوْسَطُ أَبُو الْفَضْلِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَلَهُ ثَلَاثٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً، وَأُسِرَ وَلَدُهُ الْأَصْغَرُ مُبَارَكٌ، وَأُسِرَتْ أَخَوَاتُهُ الثَّلَاثُ؛ فَاطِمَةُ وَخَدِيجَةُ وَمَرْيَمُ، وَأُسِرَ مِنْ دَارِ الْخِلَافَةِ مِنَ الْأَبْكَارِ مَا يُقَارِبُ أَلْفَ بِكْرٍ فِيمَا قِيلَ، وَاللهُ أَعْلَمُ، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ. وَقُتِلَ أُسْتَاذُ دَارِ الْخِلَافَةِ الشَّيْخُ مُحْيِي الدِّينِ يُوسُفُ بْنُ الشَّيْخِ أَبِي الْفَرَجِ بْنِ الْجَوْزِيِّ، وَكَانَ عَدُوَّ الْوَزِيرِ، وَقُتِلَ أَوْلَادُهُ الثَّلَاثَةُ؛ عَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَعَبْدُ اللهِ، وَعَبْدُ الْكَرِيمِ، وَأَكَابِرُ الدَّوْلَةِ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ، مِنْهُمُ الدُّوَيْدَارُ الصَّغِيرُ مُجَاهِدُ الدِّينِ أَيْبَكُ، وَشِهَابُ الدِّينِ سُلَيْمَانُ شَاهْ، وَجَمَاعَةٌ مِنْ أُمَرَاءِ السُّنَّةِ وَأَكَابِرِ الْبَلَدِ.

وَكَانَ الرَّجُلُ يُسْتَدْعَى بِهِ مِنْ دَارِ الْخِلَافَةِ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ، فَيَخْرُجُ بِأَوْلَادِهِ وَنِسَائِهِ وَجَوَارِيهِ، فَيُذْهَبُ بِهِ إِلَى مَقْبَرَةِ الْخَلَّالِ، تُجَاهَ الْمَنْظَرَةِ، فَيُذْبَحُ كَمَا تُذْبَحُ الشَّاةُ، وَيُؤْسَرُ مَنْ يَخْتَارُونَ مِنْ بَنَاتِهِ وَجَوَارِيهِ.

وَقُتِلَ شَيْخُ الشُّيُوخِ مُؤَدِّبُ الْخَلِيفَةِ صَدْرُ الدِّينِ عَلِيُّ بْنُ النَّيَّارِ، وَقُتِلَ الْخُطَبَاءُ وَالْأَئِمَّةُ، وَحَمَلَةُ الْقُرْآنِ، وَتَعَطَّلَتِ الْمَسَاجِدُ وَالْجَمَاعَاتُ وَالْجُمُعَاتُ مُدَّةَ شُهُورٍ بِبَغْدَادَ، وَأَرَادَ الْوَزِيرُ ابْنُ الْعَلْقَمِيِّ، قَبَّحَهُ اللهُ وَلَعَنَهُ، أَنْ يُعَطِّلَ الْمَسَاجِدَ وَالْمَدَارِسَ وَالرُّبَطَ بِبَغْدَادَ، وَيَسْتَمِرَّ بِالْمَشَاهِدِ وَمَحَالِّ الرَّفْضِ، وَأَنْ يَبْنِيَ لِلرَّافِضَةِ مَدْرَسَةً هَائِلَةً يَنْشُرُونَ عِلْمَهُمْ وَعَلَمَهُمْ بِهَا وَعَلَيْهَا، فَلَمْ يُقَدِّرْهُ اللهُ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ، بَلْ أَزَالَ نِعْمَتَهُ عَنْهُ، وَقَصَفَ عُمْرَهُ بَعْدَ شُهُورٍ يَسِيرَةٍ مِنْ هَذِهِ الْحَادِثَةِ، وَأَتْبَعَهُ بِوَلَدِهِ فَاجْتَمَعَا - وَاللهُ أَعْلَمُ - بِالدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ.

وَلَمَّا انْقَضَى أَمَدُ الْأَمْرِ الْمَقْدُورِ، وَانْقَضَتِ الْأَرْبَعُونَ يَوْمًا بَقِيَتْ بَغْدَادُ خَاوِيَةً عَلَى عُرُوشِهَا، لَيْسَ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا الشَّاذُّ مِنَ النَّاسِ، وَالْقَتْلَى فِي الطُّرُقَاتِ كَأَنَّهَا التُّلُولُ، وَقَدْ سَقَطَ عَلَيْهِمُ الْمَطَرُ، فَتَغَيَّرَتْ صُوَرُهُمْ، وَأَنْتَنَتِ الْبَلَدُ مِنْ جِيَفِهِمْ، وَتَغَيَّرَ الْهَوَاءُ، فَحَصَلَ بِسَبَبِهِ الْوَبَاءُ الشَّدِيدُ، حَتَّى تَعَدَّى وَسَرَى فِي الْهَوَاءِ إِلَى بِلَادِ الشَّامِ، فَمَاتَ خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنْ تَغَيُّرِ الْجَوِّ وَفَسَادِ الرِّيحِ، فَاجْتَمَعَ عَلَى النَّاسِ الْغَلَاءُ وَالْوَبَاءُ وَالْفَنَاءُ وَالطَّعْنُ وَالطَّاعُونُ، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ.

وَلَمَّا نُودِيَ بِبَغْدَادَ بِالْأَمَانِ خَرَجَ مَنْ كَانَ تَحْتَ الْأَرْضِ بِالْمَطَامِيرِ وَالْقُنِيِّ وَالْمَغَايِرِ كَأَنَّهُمُ الْمَوْتَى إِذَا نُبِشُوا مِنْ قُبُورِهِمْ، وَقَدْ أَنْكَرَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَلَا يَعْرِفُ الْوَالِدُ وَلَدَهُ، وَلَا الْأَخُ أَخَاهُ، وَأَخَذَهُمُ الْوَبَاءُ الشَّدِيدُ، فَتَفَانَوْا وَلَحِقُوا بِمَنْ سَلَفَ مِنَ الْقَتْلَى، وَاجْتَمَعُوا فِي الْبِلَى تَحْتَ الثَّرَى، بِأَمْرِ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى، اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى.

وَكَانَ رَحِيلُ السُّلْطَانِ الْمُسَلَّطِ هُولَاكُوقَانَ عَنْ بَغْدَادَ فِي جُمَادَى الْأُولَى مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ إِلَى مَقَرِّ مُلْكِهِ، وَفَوَّضَ أَمْرَ بَغْدَادَ إِلَى الْأَمِيرِ عَلَيٍّ بَهَادُرَ، فَوَّضَ إِلَيْهِ الشِّحْنَكِيَّةَ بِهَا وَإِلَى الْوَزِيرِ مُؤَيِّدِ الدِّينِ بْنِ الْعَلْقَمِيِّ، فَلَمْ يُمْهِلْهُ اللهُ وَلَا أَهْمَلَهُ بَعْدُ، بَلْ أَخَذَهُ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ، فِي مُسْتَهَلِّ جُمَادَى الْآخِرَةِ عَنْ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ سَنَةً، وَكَانَ عِنْدَهُ فَضِيلَةٌ فِي الْإِنْشَاءِ، وَلَدَيْهِ فَضِيلَةٌ فِي الْأَدَبِ، وَلَكِنَّهُ كَانَ شِيعِيًّا جَلْدًا خَبِيثًا رَافِضِيًّا، فَمَاتَ كَمَدًا وَغَمًّا وَحُزْنًا وَنَدَمًا، إِلَى حَيْثُ أَلْقَتْ رَحْلَهَا أُمُّ قَشْعَمٍ، فَوَلِيَ بَعْدَهُ الْوِزَارَةَ وَلَدُهُ عِزُّ الدِّينِ أَبُو الْفَضْلِ مُحَمَّدٌ، فَأَلْحَقَهُ اللهُ بِأَبِيهِ فِي بَقِيَّةِ هَذَا الْعَامِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

وَذَكَرَ أَبُو شَامَةَ وَشَيْخُنَا أَبُو عَبْدِ اللهِ الذَّهَبِيُّ وَقُطْبُ الدِّينِ الْيُونِينِيُّ، أَنَّهُ أَصَابَ النَّاسَ فِي هَذِهِ السَّنَةِ بِالشَّامِ وَبَاءٌ شَدِيدٌ، وَذَكَرُوا أَنَّ سَبَبَ ذَلِكَ مِنْ فَسَادِ الْهَوَاءِ وَالْجَوِّ، فَسَدَ مِنْ كَثْرَةِ الْقَتْلَى بِبِلَادِ الْعِرَاقِ، وَانْتَشَرَ حَتَّى تَعَدَّى إِلَى بِلَادِ الشَّامِ. فَاللهُ أَعْلَمُ".اهـ

وقال الإمام الذهبي رحمه الله في تاريخه: "وبلغنا أن آخر جمعة خطب فيها الخطيب ببغداد كانت الخطبة" الحمد لله الذي هدم بالموت مشيد الأعمار، وحكم بالفناء على أهل هذه الدار".

وكان السيف يعمل في الجمعة الأخرى، فإنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرنا في مصيبتنا التي لم يصب الإسلام وأهله بمثلها.

ولتقي الدين إسماعيل بن أبي اليسر قصيدة مشهورة في بغداد، هي:

لسـائل الـدَّمع عـن بغـداد أخبـارُ ... فما وقوفُـك والأحبـاب قـد سـاروا
يـا زائـرين إلـى الـزَّوراء لا تفـدوا ... فمـا بـذاك الحمـى والـدّار ديّـارُ
تـاجُ الخلافـة والرّبـع الّـذي شـرُفَتْ ... بـه المعـالم قـد عفّـاه إقفـارُ
أضـحى لعصـف البِلَـى في ربْعـه أثـر ... وللـدُّموع علـى الآثـار آثـارُ
يـا نـار قلبـي مـن نـارٍ لحـربِ وَغَـى ... شـبَّتْ عليـه ووافى الرَّبْـعَ إعصـارُ
عـلا الصّـليبُ علـى أعلـى منابرهـا ... وقـام بـالأمر مـن يحويـه زنّـارُ
وكـم حـريم سَـبَتْهُ التُّـرْكُ غاصـبةٌ ... وكـان مـن دون ذاك السّـتْر أسـتارُ
وكـم بُـدُور علـى البدريّـة انخسـفت ... ولـم يعـد لبُـدور الحـيّ إبـدارُ
وكـم ذخـائر أضْـحَت وهـي شـائعةٌ ... مـن النُّهّـاب وقـد حازتـه كفَّـارُ
وكـم حـدود أقيمـت مـن سـيوفهم ... علـى الرّقـاب وحُطّـت فيـه أوزارُ
ناديـت والسَّـبْيُ مهتـوكٌ تجـرّهم ... إلـى السِّـفاح مـن الأعـداء ذعّـارُ
وهـم يسـاقون للمـوت الّـذي شـهدوا ... النّـار يـا ربّ مـن هـذا ولا العـارُ
والله يعلـم أنّ القـوم أغفلهـم ... مـا كـان مـن نِعـم فـيهنّ إكثـارُ
(فـأهملوا جانـب الجبّـار إذ غفلـوا ... فجـاءهم مـن جنـود الكُفْـر جبّـارُ
يـا للرجـال بأحـداثٍ يحـدّثنا ... بمـا غـدا فـيهم إعـذار وإنـذارُ
مـن بعـد أسْـرِ بنـي العبّـاس كلّهـم ... فـلا أنـار لِوجـه الصُّـبع إسـفارُ
مـا راق لـي قـطُّ شـيءٌ بعـد بَيْـنهِم ... إلاّ أحاديـث أرْويهـا وآثـارُ
لـم يبـقَ للـدّين والـدّنيا وقـد ذهبـوا ... شـوقٌ لمجـدٍ وقـد بـانوا وقـد بـاروا
إنّ القيامـة في بغـدادَ قـد وُجِـدتْ ... وحـدّها حـين للإقبـال إدبـارُ
آل النّبِـيّ وأهـل العِلْـم قـد سُـبيوا ... فَمَـنْ تـرى بعـدهم يحويـه أمصـارُ

مـا كنـتُ آمُـلُ أن أبقـى وقـد ذهبـوا   لكـنْ أتـت دون مـا اختـار أقـدارُ

في أبيات أخر، وجملتها ستة وستون بيتا.

قال ابن الكازروني وغيره: ما زالوا في قتل وسبي وتعذيب عظيم لاستخراج الأموال مدة أربعين يوما، فقتلوا النساء والرجال والأطفال أهل البلد، وأهل سائر القرى ما عدا النصارى، عين لهم شحاني حرسوهم، وانضم إليهم خلق فسلموا. وكان ببغداد عدة من التجار سلموا لفرمانات والتجأ إليهم خلق، وسلم من بدار ابن العلقمي، ودار ابن الدامغاني صاحب الديوان، ودار ابن الدوامي الحاجب، وما عدا ذلك ما سلم إلا من اختفى في بئر أو قناة، وأحرق معظم البلد، وكانت القتلى في الطرق كالتلول، ومن سلم وظهر خرجوا كالموتى من القبور خوفـًا وجوعـًا وبرداً.

وسلم أهل الحلة والكوفة، أمنهم القان، وبعث إليهم شحاني، وسلمت البصرة وبعض واسط، ووقع الوباء فيمن تخلف، فلا حول ولا قوة إلا بالله". اهـ

وقال رحمه الله: " وأما الوزير ابن العلقمي فلم يتم له ما أراد، وما اعتقد أن التتر يبذلون السيف مطلقا، فإنه راح تحت السيف الرافضة والسنة وأمم لا يحصون، وذاق الهوان والذل من التتار، ولم تطل أيامه بعد ذلك".

إلىٰ أن قال: "وعزم ابن العلقمي على أن يحسن لهولاكو أن يقيم ببغداد خليفة علويًّا فلم يتهيأ ذلك له، واطرحته التتار، وبقي معهم على صورة بعض الغلمان، ثم مات كمدا لا رحمه الله، ولا خفف عنه".

قلتُ: وكان هولاكو قد اصطحب معه رجلا من طوس يلقب بنصير الدين الطوسي، كان يقال له (**الخواجة**)، وهو شيعي أيضا من شيعة طوس، وكان يعمل وزيرا لبعض الأمراء السلاجقة، ثم لحق بهولاكو وصار معه كالوزير يدله على عورات المسلمين، فزينوا له هذه الأمور ومنها قتل الخليفة، وكان المستعصم آخر خليفة عباسي في بغداد.

وبموته انتهى عهد العباسيين في بغداد بعد أن حكموا بلاد الإسلام لأكثر من خمسمائة سنة من سنة اثنين وثلاثين ومائة هجرية، إلى سنة ست وخمسين وستمائة هجرية، فكان التتار هم من سطروا آخر الأحرف في تاريخها، وذلك يوم الأربعاء الثامن عشر من شهر الله المحرم لسنة ست وخمسين وستمائة هجرية، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وانتشرت الأنباء وطار الخبر في بغداد بمقتل الخليفة وابنيه ، وسائر الوفد الذين معه، وأسرت أخوات الخليفة الثلاث، والله أعلم ماذا حصل لهن بعد ذلك من أمور، فكان يومًا عصيبًا على المسلمين من أعظم المبكيات والمحزنات في تاريخ الإسلام.

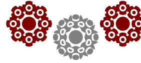
وبينما طائفة من التتار يعيثون في بغداد فسادًا قتلا ونهبا وانتهاكً للأعراض، كانت هناك طائفة أخرى قد توجهوا إلى دار الحكمة مكتبة بغداد العظيمة التي أعظم مكتبة في العالم تقريبًا، وفيها من نفائس الكتب والمخطوطات في سائر فنون العلم الدينية والدنيوية مئات الآلاف من المخطوطات الكبيرة والصغيرة من كل فن، وهي عصارة علوم أهل الإسلام لقرابة نصف قرن من الزمن منذ أن أسسها الخليفة العباسي هارون الرشيد رحمه الله.

فقام هؤلاء الرعاع بإيعاز من الطوسي قبحه الله، وأخذوا كل ما يمكنهم أن يستفيدوا منه في أمور دنياهم، وأحرقوا وأغرقوا كل ما كان من علوم الشريعة في كارثة علمية قل أن يكون لها نظير، حتى صار لون ماء نهر دجلة كأنه مداد أسود لأيام؛ لكثرة ما أغرق فيه من كتب المكتبة العامرة الضخمة التي كانت تحوي آلاف الكتب ونفائس المخطوطات، وتم القضاء عليها تماما نهبا وغرقا وحرقا، وإلى الله المشتكى.



وصارت تلك المدينة العامرة خالية إلا من قلة قليلة من الناس، ودفنت تلك الجثث، وارتفع الوباء بعد أن ألحق الباقين بالسابقين إلا القليل، وصارت تلك المدينة التي كانت مليئة بالأنس صارت خاوية ليس فيها إلا القلة من الناس.

وصار ابن العلقمي يمشي في شوارع بغداد نائبا للتتار راكبا على برذون، وهو في غاية الذلة والقلة والتتار يتحكمون به، ويذلونه ويهينونه حتى إنه مر في بعض طرق بغداد، وهو على هذا الحال فرأته امرأة من بغداد، فقالت له أهكذا كان يعاملك بنو العباس؟!! فذكرته بما كان عليه من الجاه والرفعة حين كان وزيرا للخلافة الإسلامية، فوقعت هذه الكلمة كالسهم في قلبه، فأخذه الغيظ والكمد، فرجع إلى بيته مريضا محموما من الكمد، فمات قهرا في تلك السنة، ولم يتهنأ بولاية ولا برئاسة، فجعل التتار مكانه ابنه، فألحقه الله بأبيه قبحهما الله، وقد تقدم ذكر ذلك من كلام الذهبي وابن كثير رحمهما الله، وعند الله تجتمع الخصوم.



اجتياح الشام


ميافارقين تركيا

لما فرغ هولاكو من بغداد، رجع إلى قاعدة ملكه في همذان بفارس، بعد أن جعل على بغداد نائبا له، وطال مكثه في همذان إلى آخر تلك السنة، فلما دخلت سنة سبع وخمسون وستمائة خرج من همذان بجيوشه نحو حران والجزيرة وبلاد الشام، فطار الخبر وعظم الخوف والهلع، واشتد الخطب على من بتلك البلدان من المسلمين.

وكان **(أشموط بن هولاكو)** قد قام بحصار **(مِيافارِقِين)** من سنة ستة وخمسين، واستمر حصارها لمدة سنة ونصف، وجميع أمراء الشام قد اكتفوا بمجرد المراقبة، ولم يحركوا ساكنا للدفاع عن المسلمين هناك حتى جاء الدور عليهم جميعا.

ثم إن الفاجر هولاكو لعنه الله بدأ بالتخطيط والتفكير بمشورة من النصارى، وبعض الخونة من أهل الإسلام الذين يتقربون إلى الطغاة، وإلى الجبابرة وإلى الظلمة من أجل تحقيق بعض المصالح الدنيوية، فجاءت المشورات على هولاكو بأنه يواصل زحوفه ما دامت قد سقطت عاصمة الخلافة، فليس في المسلمين قوة، وما سواها من البلاد أسهل منها بكثير، فزين له أن يزحف باتجاه بلاد الشام، ثم باتجاه بلاد مصر والمغرب، ثم يكون آخر مطافه الحجاز واليمن، فتصير بلاد الإسلام كلها في حوزته، وبدأ بالتفكير الجاد مع أن أمراء الشام كانوا قد بذلوا كلهم له الطاعة وهو ما زال محاصرا لبغداد بل في طريقه إلى بغداد، وقد جاءته وفود أمراء الشام أمير دمشق، وحلب وسائر ملوك الشام أحفاد صلاح الدين الأيوبي رحمه الله، وأمراء الموصل أحفاد السلاجقة كلهم أرسلوا إليه بالولاء والطاعة والهدايا، بل أرسل بعض الملوك بعض الكتائب لمساعدة هولاكو في حصار بغداد.

وكان الملك الكامل محمد بن المظفر يحكم منطقة يقال لها ميافارقين، وهي الآن تقع في ديار بكر في جنوب تركيا إلى الشرق قليلا، مع أجزاء من شمال العراق، وأجزاء من شمال سوريا، وما يسمى بالجزيرة ما بين دجلة والفرات فكانت منطقة وإقليم واسع يحكمها الملك الكامل، فبعد أن سقطت بغداد انطلق الكامل بنفسه، وتوجه إلى منغوليا، ثم إلى مستقر عاصمة المغول يبذل الطاعة لمنكوخان ملك التتار وذهب معه بالهدايا على أنه يدخل في ولايته

وطاعته، وبينما هو راجع من هناك جاءت الأخبار بأن هولاكو يفكر بضم الشام إلى مملكته، ولم يكتف بمجرد الولاء، فعلم الكامل أن هؤلاء ما ينفع معهم مصانعة، ولا بذل أموال، وأنه سيقتل سواء كان معهم أو عليهم، فقرر أن يقاوم وأن يتخلى عما بذله لهم من الولاء والطاعة، وأرسل إلى ابن عمه الملك الناصر وكان أعظم ملوك الشام؛ لأنه كان يملك دمشق وحلب وحصونا أخرى في بلاد الشام أرسل إليه على أن يتفق معه على أن يكونوا يدا واحدة، وجيشا واحدا لمقاومة التتار، ويذكره بأن هؤلاء لا تجدي معهم الهدايا، ولا إعلان الولاء، وجعل يذكره بأنهم من سنة ثلاثة وأربعين قبل سقوط بغداد بأكثر من عشر سنين، والملك الناصر يرسل إليهم الأموال والضرائب، ولم يجد ذلك نفعا فلم يجد من الناصر استجابة، ولا من ملوك الشام، وتركوه بمفرده فقرر أن يقوم بالمقاومة وإن كان وحده، وكان في خطابه للناصر أن قال: أما أنا فأنا مقتول كنت معهم، أو كنت عليهم، فإن هؤلاء لا عهد لهم، قتلوا من دخل في طاعتهم، ومن لم يدخل في طاعتهم.

فبدأ الكامل بتحصين بلاده وتسويرها، وإعداد العدة وبث الروح المعنوية في الناس، للاستعداد للجهاد، فلقى استجابة واسعة من أهل تلك البلاد، واستعدوا للقاء التتار، وحصنوا المدينة والبلاد غاية التحصين، واستعدوا للقاء التتار، فلما علم بذلك هولاكو، وكان يتلمس أدني عذر للإغارة على بلاد الشام، وإن كانوا

قد أبدوا الطاعة له، وصاروا عبارة عن نواب في بلاد الشام لهولاكو، فعندئذ سارع اللعين بإرسال الجيوش بقيادة ابنه أشموط، لقتال الكامل في ميافارقين، وهي بلدة واسعة، وقام بعض أمراء الشام كأمير حمص، وأمير الموصل، وأمير دمشق، وحلب بإرسال كتائب من الجيوش لتشارك ملك التتار في محاصرة المسلمين في ميافارقين، التي أميرها وملكها أحد أبناء عمومتهم من أحفاد الأيوبيين؛ لكي يتقربون بذلك إلى هولاكو- بل سار هولاء الملوك بأنفسهم فذهب بدر الدين لؤلؤ ملك الموصل بنفسه ومعه جيشه وصاحب حماة ومعه جيشه وملك حمص ومعه جيش يشاركون في حصار المسلمين في ميافارقين.

أما الناصر صاحب دمشق وحلب، فإنه أرسل ولده الملقب بالعزيز، وكان صغيرا، وأرسل معه كتيبة من الجيش، وحمله بالهدايا الثمينة، والتحف الطريفة لهولاكو يسترضيه، ويتقرب إليه بذلك والعياذ بالله.

فلما وصل العزيز ابن صاحب دمشق وحلب إلى هولاكو، غضب هولاكو جدا، ورأى أن هذا لا يليق به إذ يرسل له ولده الصغير، ولم يحضر بنفسه، فجعل من هذا عذرا لكي يأخذ دمشق وحلب من يد الناصر، وقال أنا أسير إلى بلاده بنفسي، ثم أراد أن يتوجه إلى دمشق، ودمشق في جنوب سوريا قريبة من فلسطين وحلب في شمال سوريا، وبينهما مسافة، وكان الناصر يحكم هاتين المدينتين مع أنهما منفصلتان، فبينهما حمص وحماة، فأسرع هولاكو وجعل على حصار ميافارقين ابنه المسمى بأشموط مع جملة كبيرة من الجيش، وأخذ

قطعة من الجيش، وتوجه باتجاه حلب، فلما علم أمير حلب **(توران شاه)** عم صلاح الدين وكان نائب حلب عن الناصر صاحب دمشق وحلب، لما علم أن هولاكو قد قدم إليهم بجيوشه رأى أنه لا بد من المقاومة، فسارع بالتجهز والاستعداد، وحرض الناس على القتال، وأغلق الأسوار، وجمع المقاتلة وعلم أن هؤلاء لا عهد لهم ولا ذمة، وهم قد بذلوا الطاعة ودفعوا الضرائب، وأرسلوا جيوشهم يقاتلون معه.

فلما اقترب هولاكو من **(حلب)**، وجاءته الأخبار بأن أهل حلب قد أصلحوا الأسوار وأغلقوا الأبواب، واستعدوا للقتال وهو لا يريد أن يضيع الوقت يريد أن يصل إلى دمشق، ولا يريد أن يتأخر في حلب للقتال، فأرسل إليهم حيلة منه أننا لا نريدكم إنما نريد أن نضع عندكم شحنة يعني حامية من الجند، فإن أخذنا



قلعة حلب

دمشق، فأنتم تبع لنا وإن هزمنا، فإن شئتم أخرجتم الذين عندكم من أصحابنا، وإن شئتم أبقيتموهم فرفض توران شاه، وقال: ليس لك عندنا إلا السيف، وكانت هذه إجابة شجاعة وجريئة؛ لكن لو كان معه رجال، لأنها جاءت في وقت متأخر، ولم يكونوا قد أخذوا العدة واستعدوا على ما ينبغي، فإنهم إلى قبلها بأيام يسيرة، وهم يدينون بالولاء للتتار، ويبذلون لهم الطاعة، ولم يفكروا بالمقاومة إلا في وقت متأخر، فلم يكن الوقت كافيا لإعداد العدة الكافية.

لذلك لما خرجت بعض الكتائب للقتال، والتتار في كثرة كاثرة كادوا أن يقضوا عليهم، فرجعوا منهزمين إلى حلب، وأغلقوا عليهم الأبواب، فأمر توران شاه أمير حلب ألا يخرج أحد من المدينة، ويكتفون بالقتال على الأسوار، ويمنعونهم من دخول المدينة إلا أن بعضهم لم يصبر، فاستمر الحصار سبعة أيام فقط، فقام بعض المتحمسين، وأراد الخروج للقتال خارج المدينة، ولم يكن هذا ليس بالرأي السديد، ولم يبالوا بكلام الأمير.

وهذا من مفاسد الحماسة المفرغة عن العلم والحكمة في ميادين القتال، وعدم النظر إلى ما يكون وراء ذلك من أمور ومفاسد وعواقب، فلما فتحت الأبواب انجفل الناس والمقاتلة يريدون الخروج للقتال، وذلك عندما رأوا بعض الفرسان وبعض الكتائب قد خرجت، فعندئذ خرجت المقاتلة وقاتلوا قتالا شديدا، ولكن التتار كانوا أكثر منهم بكثير وليس المشكلة هنا، فإن هولاكو لما رأى استماتة أهل حلب في القتال، وأنهم لا ينوون الانهزام قام ودبر مكيدة،

وهي مكيدة معروفة في الحروب، ولا يُدرى كيف غفل عنها أهل حلب، ومن معهم من القادة الذين خرجوا في ذلك الحين، فبدأ بالانسحاب مظهرا الهزيمة حتى جرهم بعيدا من الأبواب والأسوار، ثم رجع وكر عليهم بجيشه كله، فتفاجؤوا من الكرة عليهم، وقد ظنوه منهزما، فاختلطت عليهم الأمور، واضطربت الصفوف، وعادت أولاهم على أخراهم، فرجعوا منهزمين إلى المدينة، وأرادوا أن يغلقوا الأبواب، فما استطاعوا أن يغلقوا سائر الأبواب، ونصبت المنجنيقات وضربت الأسوار، ودخل من دخل من الأبواب، ودخل هولاكو حلب بعد أن أعطاهم أمانا مقابل أن يفتحوا بقية الأبواب، ولهم الأمان أن لا يُصاب أحد منهم بسوء.

فصدقوه ونسوا تاريخ التتار الحافل بالغدر من بدء خروجهم من شرق الصين إلى أن وصلوا إلى الشام، وكيف أنهم يعطون أهل المدينة الأمان، ثم يقتلونهم عن بكرة أبيهم، ورفض أمير البلد توران شاه ذلك، لكنه غلب على أمره غلبه من معه من الأمراء والقادة والناس، ولم يبق له كلمة معهم، والأمر شديد، وأصروا أن يخرجوا إلى هولاكو لأخذ الأمان، ويفتحوا له مدينة حلب.

فقام توران شاه وصعد مع بعض الفرسان والمقاتلة إلى قلعة حلب، وتحصن بها، وأخذ من الأقوات والمؤن ما يكفيه، وأبى أن يستسلم، ففتح الناس أبواب حلب، فدخلها هولاكو بجيوشه، فلما دخلها كان أول ما قام به

حصار قلعة حلب، ونصب المنجنيقات عليها، وصارت المنجنيقات تضرب دون توقف وأحجارها تنزل علي القلعة كالمطر، واستمروا على ذلك أياما حتى عجز من فيها عن المدافعة، وعلموا أنه لا يمكنهم أن يصمدوا أكثر، فاضطروا إلى تسليم القلعة ونزل توران شاه، والعجيب أن هولاكو لم يقتله؛ لأنه كان كبيرا في السن، ولذلك خرج من حلب متوجها إلى دمشق، ولم يعش إلا أياما ومات رحمه الله تعالى.

ولما سقطت القلعة، وصارت المدينة بأيديهم، أظهروا الوجه القبيح الحقيقي، فنقضوا العهد وبدأوا بالغدر، وأذن هولاكو لجيشه بقتل أهل المدينة، فقتلوا عشرات الآلاف، ودمرت القلعة، وهدمت أسوار حلب، وكانت هذه عادتهم في المدن التي تقاوم يقتلون أهلها، ويهدمون أسوارها لأن الناس في المدن إنما يستعينون بالتحصن بالأسوار، فإذا صارت لا أسوار لها صعُب التفكيربالمقاومة، فهدمت الأسوار، وأحرقت بعض المساجد، وقُتل من الناس في حلب مقتلة عظيمة، حتى قال ابن كثير وقع على أهل حلب قريبا مما وقع على أهل بغداد أي من كثرة القتل، والله المستعان.

وتأمل متحسرا لما سطره ابن كثير عن تلك الفاجعة بقوله رحمه الله:" وَبَيْنَمَا النَّاسُ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ، وَقَدْ تَوَاتَرَتِ الْأَخْبَارُ بِقَصْدِ التَّتَارِ بِلَادَ الشَّامِ، إِذْ دَخَلَ جَيْشُ الْمَغُولِ صُحْبَةَ مَلِكِهِمْ هُولَاكُو، وَجَازُوا الْفُرَاتَ عَلَى جُسُورٍ عَمِلُوهَا، وَوَصَلُوا إِلَى حَلَبَ فِي ثَانِي صَفَرٍ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ، فَحَاصَرُوهَا سَبْعَةَ أَيَّامٍ، ثُمَّ

افْتَتَحُوهَا بِالْأَمَانِ، وَغَدَرُوا بِهِمْ، فَقَتَلُوا مِنْ أَهْلِهَا خَلْقًا لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَنَهَبُوا الْأَمْوَالَ وَسَبَوُا النِّسَاءَ وَالْأَطْفَالَ، وَجَرَى عَلَيْهِمْ قَرِيبٌ مِمَّا جَرَى عَلَى أَهْلِ بَغْدَادَ، فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ، وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ.

وَامْتَنَعَتْ عَلَيْهِمْ قَلْعَتُهَا شَهْرًا، ثُمَّ تَسَلَّمُوهَا بِالْأَمَانِ، وَخُرِّبَتْ أَسْوَارُ الْبَلَدِ وَأَسْوَارُ الْقَلْعَةِ، وَبَقِيَتْ حَلَبُ كَأَنَّهَا حِمَارٌ أَجْرَبُ، وَكَانَ نَائِبُهَا الْمَلِكُ الْمُعَظَّمُ تَوْرَانْشَاهُ بْنُ صَلَاحِ الدِّينِ، وَكَانَ عَاقِلًا حَازِمًا، لَكِنَّهُ لَمْ يُوَافِقْهُ الْجَيْشُ عَلَى الْمَصْلَحَةِ، وَلَكِنْ سَرِعُوا وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَقْدُورًا.

وَقَدْ كَانَ السُّلْطَانُ هُولَاكُو أَرْسَلَ إِلَى أَهْلِ الْبَلَدِ يَقُولُ لَهُمْ حِينَ قَدِمَ بِجَحَافِلِهِ: نَحْنُ إِنَّمَا جِئْنَا لِقِتَالِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ بِدِمَشْقَ، وَنَحْنُ نُرِيدُ مِنْكُمْ أَنْ تَجْعَلُوا بِالْقَلْعَةِ شِحْنَةً، فَإِنْ كَانَتِ النُّصْرَةُ لَنَا فَالْبِلَادُ كُلُّهَا فِي حُكْمِنَا، وَإِنْ كَانَتْ عَلَيْنَا فَإِنْ شِئْتُمْ قَبِلْتُمُ الشِّحْنَةَ وَإِنْ شِئْتُمْ أَطْلَقْتُمُوهُ.

فَأَجَابُوهُ: مَالَكَ عِنْدَنَا إِلَّا السَّيْفُ. فَتَعَجَّبَ مِنْ ضَعْفِهِمْ وَجَوَابِهِمْ بِهَذَا، فَزَحَفَ حِينَئِذٍ إِلَيْهِمْ، وَأَحَاطَ بِالْبَلَدِ، وَكَانَ مَا كَانَ بِقَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ، وَلَمَّا فُتِحَتْ حَلَبُ أَرْسَلَ صَاحِبُ حَمَاةَ بِمَفَاتِيحِهَا إِلَيْهِ، فَاسْتَنَابَ عَلَيْهَا رَجُلًا مِنَ الْعَجَمِ يَدَّعِي أَنَّهُ مِنْ ذُرِّيَّةِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ يُقَالُ لَهُ: خُسْرُوشَاهْ، فَخَرَّبَ أَسْوَارَهَا كَمَا فُعِلَ بِمَدِينَةِ حَلَبَ". اهـ

[حصار ميافارقين]

أما (**ميافارقين**) فإن هولاكو كان قد بدأ في حصارها من سنة سبع وخمسين، وكان الكامل قد حصنها أيما تحصين، واستطاع أن يقاوم هو ومن معه من الجيش والعامة في تلك المدينة سنة ونصف، حتى عجز هولاكو عن أخذها، فترك ابنه أشموط أمام أسوار ميافارقين، وتوجه نحو حلب يريد دمشق، وقد صمد الناس في ميافارقين صمودا عظيما، لكن لطول الحصار قلت المؤن، ونفد الطعام، وكثر الضرب عليهم بالمنجنيقات، وبعد سنة ونصف من الحرب والرمي بالمنجنيقات، وقلة الأزواد بدأ الجوع ، واشتد الحال حتى بدأ الموت يكثر في المدينة إلى درجة أنه بعد سنة ونصف، لم يبق من يقوم بحماية المدينة إلا أفراد قلة.

وقد أطبق المؤرخون أنه في الفترات الأخيرة لم يبق إلا الملك الكامل، وبعض حاشيته وفرسانه وسبعون من أهل المدينة، مع أنهم كانوا بالآلاف، فأكثرهم مات من الجوع والوباء، وبعضهم بالقتل لذلك بدأت المنجنيقات تدك الأسوار، ولا يستطيعون جبرها، وإصلاح ما وهى منها، فما بقي من يستطيع أن يقوم بالعمل لم يبق إلا أفراد قلة عشرات من الناس، مع ضعف شديد وجهد شديد، فاستطاعوا أن ينقضوا بعض الأسوار، ويدخلوا من بعض الأبواب.

فلما دخلوها وجدوا أهل المدينة كلهم موتى ما بقي إلا الملك الكامل ومعه جماعة قد تحصنوا بالقلعة، وسبعون رجلا من أهل المدينة أشباه أحياء فيهم من المرض والجهد ما فيهم، فأجهزوا عليهم وقتلوهم، ثم حاصروا القلعة، واستطاع الملك الكامل أن يصمد شهرا كاملا في القلعة حتى عجز تماما عن حفظها، ودخلها التتار بقيادة **(أشموط بن هولاكو)**.



[حصار مَارِدِينَ]


مَارِدِين تركيا

وأما هولاكو فكان محاصرا لحلب، فلما دخلوا القرية أجهزوا على البقية، وأخذوا الكامل وابنه أسيرين، وتم إرسالهما إلى هولاكو، وقتلهما بين يديه بعد ذلك بأشهر.

فلما تم القضاء على ميافارقين وحلب لم يتبق في طريقهم إلى دمشق إلا مدينة من أهم المدن وأحصنها، وكانت ذات أسوار عالية جداً يقال لها (مَارِدِينَ)، وعليها الملك السعيد فتوجه إليها هولاكو، وقاتل أهلها بضراوة لمدة شهرين، ثم استطاع أن يدخلها بالحيلة، وفعل فيها كما فعل في ميافارقين وحلب من قتل أهلها وتدمير أسوارها، قال الذهبي رحمه الله في تاريخه:" وعلم السّعيد أنّ التّتار لا بدّ لهم منه ومن حصاره، فنقل ما فِي البلد من الذّخائر إلى القلعة.

ثم بعد أربعة أيّام وَصَلَتْهُ رُسُلُ هولاكو بحربة، ووصل عقِب ذلك طائفةٌ من التّتار فنازلت ماردين فِي ثالث جُمادى الأولى، ولم يقاتلوا، وبقوا ستّة عشر يوما، وقيل إنّ هولاكو كان معهم.

ثمّ التمسوا فتْح أبواب البلد، ليدخلوا لشراء الأقوات وغيرها ويرحلون، ففتح لهم، فتردّدوا فِي الدّخول والخروج ثلاثة أيام، ثمّ صعدوا على سور ماردين، ودقّوا الطّبل، وهجموا على البلد بالسّيف، فقاتلهم أهله ودَربُوا الشّوارع وطردوهم.

فدام القتال شهرين إلى أن فتح لهم بعض مقدّمي البلد دربا فملكوه، ودخلوا منه إلى الجامع، وصعدوا المنابر، ورموا منها بالنّشّاب، فضعُف النّاس، واحتموا بالكنائس، وصعِد بعضهم إلى القلعة، وملكت التّتار البلد، ونصبوا المجانيق على القلعة، وهي ستّة، فلم يصل إلى القلعة منها إلّا ثلاثة أحجار.

واستمرّ الحصار إلى آخر السّنة، ووقع الوباء بالقلعة، فمات الملك السّعيد فيمن مات، وهلك الخلق. ورمى رجلٌ نفسَه من القلعة وأخبر التّتار بموت السُّلطان، فبعثوا إلى ابنه الملك المظفّر وطلبوا منه الدّخول فِي الطّاعة.

[استسلام حمص وحماة]


قلعة حمص

ولما رأى ذلك ملوك الشام، وأن هولاكو قد قضى على ميافارقين وحلب ثم ماردين وهو متوجه في طريقه إليهم،

ذهب صاحب حمص بنفسه إلى هولاكو وبذل له الطاعة، وسلمه مفاتيح المدينة، وأما صاحب حماة، فإنه أرسل مفاتيح المدينة مع أناس إلى هولاكو، وسلم له المدينة، وانطلق فارا نحو دمشق إلى الملك الناصر، وكان يظن أن الناصر يريد المقاومة، فتسلم هولاكو حمص وحماة وما بينهما من المدن، فأخذ بلاد الشام من جنوب تركيا إلى قريب من جنوب سوريا، ولم يتبق سوى دمشق.

[دمشق]

حصل هذا كله في غضون أشهر، وأما الملك الناصر أمير دمشق فإنه لما جاءته الأخبار بأن هولاكو سيسير إليه بنفسه، وأنه يريد أن ينتزع منه بلاده.

قام بتجهيز الجيوش وأقبلت عليه أفواج من المتطوعين، ومن المماليك الذين جاءوا من مصر بسبب بعض الخلافات التي حصلت بينهم، وأقبل عليه الناس من أماكن شتى،


الجامع الأموي في دمشق

واجتمعت له جحافل، كما قال المؤرخون ذكر ذلك الذهبي في تاريخ الإسلام وغيره، فكان الرأي أنه يتقدم بهم لكنه عسكر بهم في منطقة يقال لها **(برزة)** من غوطة دمشق خارج دمشق، والمسافة بين حلب ودمشق مسافة بعيدة، فحلب في الشمال ودمشق في الجنوب.

فلما فرغ هولاكو من مدن سوريا، اقترب من دمشق، وجاءت الأخبار باقتراب جيش التتار من دمشق، فكثر الخوف والإرجاف، فمن مؤمل بالفرج ومعول على الجيش، ومن مجهز لنفسه للخروج بنفسه وأهله وماله، أما الأثرياء وأرباب التجارة والأموال في دمشق، فقد أخذوا أموالهم وحواصلهم، وتحركوا أول ما جاءتهم الأخبار بحصار حلب فارين إلى مصر، وكان ذلك الحين في أواخر زمن الشتاء، فلذلك هلك كثير منهم في الطرقات ما بين دمشق إلى مصر لشدة البرودة في تلك الأماكن، فمن شدة البرد هلك منهم جماعة، وتقطع الأعراب لجماعة آخرين، فهلك أكثرهم، ولم يصل منهم إلى مصر إلا القليل، والله المستعان.

ولما علم الناصر ملك دمشق أن هولاكو قد تقدم نحوه، ومعه جحافل التتار امتلأ قلبه خوفا وذعرا، ووقع منه التخاذل، فجمع الأمراء يشاورهم، فانقسم الناس إلى فريقين منهم من يرى القتال والمقاومة، ولو وصل بهم الحال إلى

الموت في سبيل الله خيرا من أن يموتوا في ذلة وتشرد وقهر، أو يفرون فيلاحقهم التتار من بلد إلى بلد.

وطائفة رأوا المسالمة وبذل الطاعة والاعتذار من التتار، أو الذهاب إلى مصر ويتركون البلاد عفوا صفحا للتتار، ويتركون أهلها يلاقون مصيرهم، فمال الناصر إلى هذا الرأي، لما في قلبه من الانهزام، ولم يكن ذا سيرة حسنة من أول الأمر، فإنه لم يزل يراسل التتار من قبل سقوط بغداد، ويبذل لهم الطاعة والولاء، ويرسل إليهم الأموال والهدايا من سنة ستمائة واثنين وأربعين، فمثل هذا لا يمكن أن يُنصر به دين، لذلك مال إلى هذا الرأي، وهو الفرار وترك المدينة لقدرها، فاختلفت عليه الأمراء، وأراد بعض الأمراء قتله وتولية أخاه الظاهر الغازي مكانه، لكي يجمعوا الجيوش ويقاتلوا التتار، فلما علم بذلك أخذ معه من يدين له بالولاء وانصرف، وتفرقت المماليك، وتفرق ذلك الجيش شذر مذر هاهنا وهاهنا، وانهزموا قبل أن يقترب التتار حتى من دمشق، بل ما زالوا في الطريق على مسافات من دمشق، فلما رأى الناس الملك الناصر، ومن معه من الجيوش تفر من المدينة جعلوا يقولون لهم لمن تتركونا أتتركون طعمة للتتر، وجعلوا يلعنونهم ويسبونهم، ويدعون عليهم أن الله لا يسلمهم.

فلما صار الحال على ذلك، وصارت المدينة بلا سلطان ولا جيش، اجتمع من بقي من كبار أهل دمشق من تجارها وعقلائها، واتفقوا على تسليم المدينة لهولاكو مقابل الأمان، فبعد ذهاب السلطان والجيش لم يكن لديهم خيار سوى

هذا، فما قدم هولاكو إلا وأبواب دمشق مفتوحة له؛ إلا قلعة دمشق فإن متوليها ومعه بعض المقاتلة اختاروا المقاومة.

قال ابن كثير رحمه الله: " وَقَدْ كَتَبَ مَعَهُمُ السُّلْطَانُ هُولَاكُو فَرَمَانَ أَمَانٍ لِأَهْلِ الْبَلَدِ، فَقُرِئَ بِالْمَيْدَانِ الْأَخْضَرِ، وَنُودِيَ بِهِ فِي الْبَلَدِ، فَأَمِنَ النَّاسُ عَلَى وَجِلٍ أَنْ يَغْدِرُوا كَمَا فُعِلَ بِأَهْلِ حَلَبَ، هَذَا وَالْقَلْعَةُ مُمْتَنِعَةٌ مَسْتُورَةٌ، وَفِي أَعَالِيهَا الْمَجَانِيقُ مَنْصُوبَةٌ، وَالْحَالُ شَدِيدَةٌ، فَأَحْضَرَتِ التَّتَارُ مَجَانِيقَ تُحْمَلُ عَلَى عَجَلٍ وَالْخُيُولُ تَجُرُّهَا، وَهُمْ رَاكِبُونَ عَلَى الْخَيْلِ، وَأَسْلِحَتُهُمْ تُحْمَلُ عَلَى أَبْقَارٍ كَثِيرَةٍ، فَنُصِبَ الْمَجَانِيقُ عَلَى الْقَلْعَةِ مِنْ غَرْبِيِّهَا وَهَدَمُوا حِيطَانًا كَثِيرَةً وَأَخَذُوا حِجَارَتَهَا وَرَمَوْا بِهَا الْقَلْعَةَ رَمْيًا مُتَوَاتِرًا كَالْمَطَرِ الْمُتَدَارِكِ، فَهَدَمُوا كَثِيرًا مِنْ أَعَالِيهَا وَشُرُفَاتِهَا، وَتَدَاعَتْ لِلسُّقُوطِ، فَأَجَابَهُمْ مُتَوَلِّيهَا فِي آخِرِ ذَلِكَ النَّهَارِ لِلْمُصَالَحَةِ، فَفَتَحُوهَا وَخَرَّبُوا كُلَّ بَدَنَةٍ فِيهَا، وَأَعَالِي بُرُوجِهَا، وَذَلِكَ فِي الْمُنْتَصَفِ مِنْ جُمَادَى الْأُولَى مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ، وَقَتَلُوا الْمُتَوَلِّيَ بِهَا بَدْرَ الدِّينِ بْنَ قَرَاجَا، وَنَقِيبَهَا جَمَالَ الدِّينِ بْنَ الصَّيْرَفِيِّ الْحَلَبِيَّ".اهـ

وكانت دمشق من أعظم مدن الشام، بل تعتبر من أعظم مدن العالم في ذلك الزمان، وهي من أقدم المدن عبر التاريخ حضارة وعراقة، ففتحت له دمشق أبوابها، وتلقاه كبارها بالرحب والسعة، ومعهم مفاتيحها، وكانوا قد راسلوه، وهو في الطريق، وعرضوا عليه هذا الأمر، فأرسل لهم أمانا.

والغريب في الأمر أنه صدق معهم على غير عادته، فأعطاهم الأمان، ولم يقتل منهم أحدا، لكنها حصلت أمور قد تكون أسوأ من القتل، وذلك أنه لما فتحت له دمشق، ودخلها جعل عليهم رجل من أتباعه يقال له **(إِيلَ سَبانَ)**، وكان محبا للنصرانية، فاجتمع النصارى حوله، وأحاطوا به، فعظمهم ورفع من شأنهم، وصارت لهم الصولة والجولة في دمشق، فبدأ النصارى بالمكر والكيد وأذية المسلمين.

فدخلوا إلى كنيستهم الكبرى في دمشق التي يقال لها **(كنيسة مريم)**، وأخرجوا منها صليبهم الأكبر



كنيسة مريم في دمشق

وتجمعوا حوله، وجعلوا يأخذون معهم مزادات الخمر، ويدخلون من أبواب دمشق ويصيحون ظهر الدين الصحيح دين المسيح، ويذمون دين الإسلام، ويشتمون المسلمين، ويمرون على أبواب المساجد، ويرشون أمامها الخمور، ويرشون الخمور في وجوه المسلمين، وإذا مروا بصليبهم على نفر من المسلمين يلزمونهم أن يقوموا للصليب، فحصل على المسلمين بسبب ذلك بلاء وذلة، لم يعرفوها منذ ستمائة وأربعين سنة منذ فتحت دمشق في السنة الثالثة

عشر للهجرة ، والمسلمون في عزة في هذه المدينة حتى كان هذا الحال، فإن سلمت أبدانهم وسلمت أرواحهم من القتل، لكن لم يسلم لهم شرفهم ولا عزتهم، وصار بعضهم يرى هذا الحال ويبكي لا يملك لنفسه حولا ولا قوة؛ لما يرى من تسلط النصارى، وإهانتهم للمسلمين بهذه الطريقة، ويقوم بعض خطباء النصارى على الدكاك يمدح دين النصرانية، ويذم دين الإسلام، ويأتي بكلام تنفطر له القلوب، والمسلمون لا يقدرون على شيء.

واجتمع بعض القضاة والفقهاء والوجهاء، ودخلوا على هذا الوالي التتري النصراني ليخبروه بالأمر، وأن معهم أمانا، وأن هذا لا ينبغي فزاد في إهانتهم وشتمهم، وقدم قول النصارى عليهم، وأخرجهم أذلة في حالة لا يحسدون عليها، فاستسلم المسلمون لهذا الوضع في دمشق، ورضوا بأن يحافظوا على أرواحهم، ويخسروا عزهم وشرفهم وعزتهم بالإسلام، واستسلموا لهذا الأمر الحاصل حييث لم يكن أمامهم خيار أهون من هذا وإلى الله المشتكى.

ورغم أن أهل دمشق قد أُعطوا الأمان، إلا أن ثمة أمور كانت أشد من القتل، وقد صور الحافظ الذهبي ذلك بقوله:" لكن انُتهكَت الحُرُمات، وظهرت الفواحش والخمور، ورفعت النّصارى رؤوسهم، وكان التّتار بين كافرٍ ونَصْرَانِي أو مَجُوسي، وما فيهم من يتلفّظ بالشّهادة إلّا أن يكون نادرا.

قال ابن الجزَرِي: حدّثني أَبِي قال: خرجتُ من الصّلاة فِي الجمعة الثانية من رمضان، فوجدت دكاكين الخضراء، فيها النّصارى يبيعون الخمر، وبعض الفُساق معهم، وهم يشربون ويرشّون على المُصَلين من الخمر، فبكيت بُكاءً كثيرا إلى أن وصلتُ إلى دُكاني بالرّمّاحين.

وقال أَبُو شامة: "كانت النّصارى بدمشق قد شمخوا بدولة التّتار".اهـ

وأما ابن كثير فقد سطر ذلك بما يفتت الفؤاد فقال: " وَسَلَّمُوهَا-أي: القلعة- إِلَى أَمِيرٍ مِنْهُمْ يُقَالُ لَه لَهُ: إِيلَ سَبَانَ، وَكَانَ لَعَنَهُ اللهُ تَعَالَى مُعَظِّمًا لِدِينِ النَّصَارَى، فَاجْتَمَعَ بِهِ أَسَاقِفَتُهُمْ وَقُسُوسُهُمْ، فَعَظَّمَهُمْ جِدًّا وَزَارَ كَنَائِسَهُمْ، فَصَارَتْ لَهُمْ دَوْلَةٌ وَحَوْلَةٌ وَصَوْلَةٌ بِسَبَبِهِ، لَعَنَهُمُ اللهُ تَعَالَى.

وَذَهَبَتْ طَائِفَةٌ مِنَ النَّصَارَى إِلَى هُولَاكُو بِهَدَايَا وَتُحَفٍ، وَقَدِمُوا مِنْ عِنْدِهِ وَمَعَهُمْ أَمَانٌ؛ فَرَمَانٌ مِنْ جِهَتِهِ، وَدَخَلُوا الْبَلَدَ مِنْ بَابِ تَوْمَاءَ وَمَعَهُمْ صَلِيبٌ مَنْصُوبٌ يَحْمِلُونَهُ عَلَى رُءُوسِ النَّاسِ، وَهُمْ يُنَادُونَ بِشِعَارِهِمْ، وَيَقُولُونَ ظَهَرَ الدِّينُ الصَّحِيحُ، دِينُ الْمَسِيحِ.

وَيَذُمُّونَ دِينَ الْإِسْلَامِ وَأَهْلَهُ وَمَعَهُمْ أَوَانٍ فِيهَا خَمْرٌ لَا يَمُرُّونَ عَلَى بَابِ مَسْجِدٍ إِلَّا رَشُّوا عِنْدَهُ خَمْرًا، وَقَمَاقِمَ مَلْآنَةً خَمْرًا يَرُشُّونَ مِنْهَا عَلَى وُجُوهِ النَّاسِ، وَيَأْمُرُونَ كُلَّ مَنْ يَجْتَازُونَ بِهِ فِي الْأَسْوَاقِ وَالطُّرُقَاتِ أَنْ يَقُومَ لِصَلِيبِهِمْ، وَدَخَلُوا مَنْ دَرْبِ الْحَجَرِ، فَوَقَفُوا عِنْدَ رِبَاطِ الشَّيْخِ أَبِي الْبَيَانِ، وَرَشُّوا هُنَالِكَ خَمْرًا، وَكَذَلِكَ عَلَى بَابِ مَسْجِدِ دَرْبِ الْحَجَرِ الصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ.

وَاجْتَازُوا فِي السُّوقِ حَتَّى وَصَلُوا إِلَى دَرْبِ الرَّيْحَانِ أَوْ قَرِيبٍ مِنْهُ، فَتكَاثَرَ عَلَيْهِمُ الْمُسْلِمُونَ، فَرَدُّوهُمْ إِلَى سُوقِ كَنِيسَةِ مَرْيَمَ، فَوَقَفَ خَطِيبُهُمْ إِلَى دَكَّةِ دُكَّانٍ فِي عَطْفَةِ السُّوقِ هُنَالِكَ، فَذَكَرَ فِي خُطْبَتِهِ مَدْحَ دِينِ النَّصَارَى، وَذَمَّ دِينَ الْإِسْلَامِ وَأَهْلَهُ، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، ثُمَّ وَلَجُوا بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى كَنِيسَةِ مَرْيَمَ، وَكَانَتْ بَعْدُ عَامِرَةً، وَلَكِنْ كَانَ هَذَا سَبَبَ خَرَابِهَا، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ.

وَحَكَىٰ **الشَّيْخُ قُطْبُ الدِّينِ فِي "الذَّيْلِ عَلَىٰ الْمِرْآةِ"**: أَنَّهُمْ ضَرَبُوا بِالنَّاقُوسِ بِكَنِيسَةِ مَرْيَمَ. فَاللهُ أَعْلَمُ.

قَالَ: وَذَكَرَ أَنَّهُمْ دَخَلُوا إِلَى الْجَامِعِ بِخَمْرٍ، وَكَانَ مِنْ نِيَّتِهِمْ إِنْ طَالَتْ مُدَّةُ التَّتَارِ أَنْ يُخَرِّبُوا كَثِيرًا مِنَ الْمَسَاجِدِ وَغَيْرِهَا، فَكَفَى اللهُ شَرَّهُمْ، وَلَمَّا وَقَعَ هَذَا فِي الْبَلَدِ اجْتَمَعَ قُضَاةُ الْمُسْلِمِينَ وَالشُّهُودُ وَالْفُقَهَاءُ، فَدَخَلُوا الْقَلْعَةَ يَشْكُونَ هَذَا الْحَالَ إِلَى مُتَسَلِّمِهَا إِيلَ سَبَانَ، فَأُهِينُوا وَطُرِدُوا، وَقَدَّمَ كَلَامَ رُؤَسَاءِ النَّصَارَى عَلَيْهِمْ، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ".اهـ

أما هولاكو لعنه الله، فإنه انطلق جنوبا ليستكمل أخذ بلاد الشام، ولم يلق بعد ذلك مقاومة، فقد خرج من دمشق، ودخل السويداء آخر محافظات سوريا حاليا، ودخل فلسطين من أولها إلى آخرها من نابلس، حتى وصل غزة، وإلى قريب من سيناء، ولم يلق كيدا، ولم يكن بينه وبين مصر إلا قرابة خمسة وثلاثين كيلو مترا تقريبا، فصارت بلاد الشام كلها في حوزته، والله المستعان.

وفي هذه الأثناء، وبينما هولاكو يتجهز لمواصلة الزحف، واجتياح مصر جاءته الأخبار بأن أخاه منكوخان ملك التتار قد مات لعنه الله، وسيجتمع قادة التتار لاختيار خانا جديدا، وكان قبحه الله يطمح إلى ذلك كونه أحد المرشحين لهذا المنصب.

فاستناب على الشام والعراق كبار قواد جيشة رجلا يقال له: (**كَتْبُغَا**)، وهذا الرجل كان ممن خرج معهم من أول أمرهم، وهو ممن عاصر جنكيز خان، فيعتبر قائدًا كبيرًا متمرسًا شديد الفروسية خبيثًا فاجرًا، استخدم حيلا خبيثة في الدخول إلى بعض المدن التي تستعصي عليه، فجعله قائدًا عامًا للجيوش، ورجع باتجاه الشرق إلى العراق وفارس للوصول إلى منغوليا؛ رغبة أن يكون هو الملك. لكنه ما إن وصل إلى تبريز في إيران حاليا إلا وخيب الله ظنه، فجاءته الأخبار بأنهم قد اختاروا أخاه الآخر، وجعلوه ملكا على التتار، فبقي في تبريز، واتخذها قاعدة لملكه ليكون ملكا لبلاد الشرق، وجعل يرسل إلى كَتْبُغَا يأمره بالمسير نحو بلاد مصر.



قال ابن كثير رحمه الله: "وَقَدْ كَانَ فِي أَوَّلِ هَذِهِ السَّنَةِ سُلْطَانُ الشَّامِ النَّاصِرُ بْنُ الْعَزِيزِ، قَدْ أَقَامَ فِي وَطْأَةِ بَرْزَةَ، وَمَعَهُ خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنَ الْجُيُوشِ وَالْأُمَرَاءِ وَأَبْنَاءِ الْمُلُوكِ لِيُنَاجِزُوا التَّتَارَ إِنْ قَدِمُوا عَلَيْهِمْ، وَكَانَ مِمَّنْ مَعَهُ الْأَمِيرُ بِيبَرْسُ الْبُنْدُقْدَارِيُّ فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الْبَحْرِيَّةِ، وَالْكَلِمَةُ بَيْنَ الْجُيُوشِ مُخْتَلِفَةٌ غَيْرُ مُؤْتَلِفَةٍ، لِمَا يُرِيدُهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ.

وَقَدْ عَزَمَتْ طَائِفَةٌ مِنَ الْأُمَرَاءِ عَلَى خَلْعِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ وَسَجْنِهِ وَمُبَايَعَةِ أَخِيهِ شَقِيقِهِ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ عَلِيٍّ، فَلَمَّا تَنَسَّمَ النَّاصِرُ ذَلِكَ هَرَبَ إِلَى الْقَلْعَةِ الْمَنْصُورَةِ وَتَفَرَّقَتِ الْعَسَاكِرُ شَذَرَ مَذَرَ، وَسَاقَ الْأَمِيرُ رُكْنُ الدِّينِ بِيبَرْسُ الْبُنْدُقْدَارِيُّ فِي أَصْحَابِهِ إِلَى نَاحِيَةِ غَزَّةَ، فَاسْتَدْعَاهُ الْمَلِكُ الْمُظَفَّرُ قُطُزُ إِلَيْهِ، وَاسْتَقْدَمَهُ عَلَيْهِ".

ثم قال رحمه الله:" وَقَدْ عَزَمَ الْمَلِكُ النَّاصِرُ صَاحِبُ دِمَشْقَ عَلَى الرَّحِيلِ إِلَى مِصْرَ، وَلَيْتَهُ فَعَلَ. وَكَانَ فِي صُحْبَتِهِ الْمَلِكُ الْمَنْصُورُ صَاحِبُ حَمَاةَ، وَخَلْقٌ مِنَ الْأُمَرَاءِ وَأَبْنَاءِ الْمُلُوكِ، وَقَدْ وَصَلَ إِلَى قَطْيَةَ، وَتَهَيَّأَ الْمَلِكُ الْمُظَفَّرُ لِلِقَائِهِ وَأَرْسَلَ إِلَيْهِ وَإِلَى الْمَنْصُورِ مُسْتَحَثِّينَ، وَأَرْسَلَ إِلَيْهِ يَقُولُ: تَقَدَّمْ حَتَّى نَكُونَ كَتِفًا وَاحِدًا عَلَى التَّتَارِ.

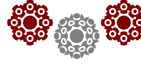
فَتَخَيَّلَ مِنْ ذَلِكَ وَخَافَ أَنْ يَنْتَصِرَ عَلَيْهِ، فَكَرَّ رَاجِعًا إِلَى نَاحِيَةِ تِيهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَدَخَلَ عَامَّةُ مَنْ كَانَ مَعَهُ إِلَى الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ، وَأَكْرَمَ الْمُظَفَّرُ الْمَلِكَ صَاحِبَ حَمَاةَ، وَوَعَدَهُ بِبَلَدِهِ، وَوَفَّى لَهُ بِذَلِكَ، وَلَمْ يَدْخُلِ النَّاصِرُ وَلَيْتَهُ فَعَلَ، فَإِنَّهُ

كَانَ أَيْسَرَ عَلَيْهِ مِمَّا صارَ إِلَيْهِ، وَلَكِنَّهُ خَافَ مِنْهُمْ لِعَدَاوَةٍ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ، فَعَدَلَ إِلَى نَاحِيَةِ الْكَرَكِ فَتَحَصَّنَ بِهَا، وَلَيْتَهُ اسْتَمَرَّ فِيهَا، وَلَكِنَّهُ قَلِقَ، فَرَكِبَ نَحْوَ الْبَرِّيَّةِ - وَلَيْتَهُ ذَهَبَ فِيهَا - وَاسْتَجَارَ بِبَعْضِ أُمَرَاءِ الْأَعْرَابِ، فَقَصَدَتْهُ التَّتَارُ، وَأَتْلَفُوا تِلْكَ الدِّيَارَ وَنَهَبُوا مَا هُنَالِكَ مِنَ الْأَمْوَالِ، وَقَتَلُوا الْكِبَارَ وَالصِّغَارَ، وَهَجَمُوا عَلَى الْأَعْرَابِ الَّتِي بِتِلْكَ النَّوَاحِي، فَقَتَلُوا مِنْهُمْ خَلْقًا كَثِيرًا، وَسَبَوْا مِنْ نِسَائِهِمْ وَأَبْنَائِهِمْ، وَقَدِ اقْتَصَّ مِنْهُمُ الْعَرَبُ بَعْدَ ذَلِكَ، فَأَغَارُوا عَلَى خَيْلِ جِشَارِهِمْ فِي نِصْفِ شَعْبَانَ، فَسَاقُوهَا بِأَسْرِهَا، فَسَاقَتْ وَرَاءَهُمُ التَّتَارُ، فَلَمْ يُدْرِكُوا مِنْهُمُ الْغُبَارَ، وَلَا اسْتَرَدُّوا مِنْهُمْ فَرَسًا وَلَا حِمَارًا، وَمَا زَالَ التَّتَارُ وَرَاءَ النَّاصِرِ حَتَّى أَخَذُوهُ وَأَسَرُوهُ عِنْدَ بِرْكَةِ زَيْرِي، وَأَرْسَلُوهُ مَعَ وَلَدِهِ الْعَزِيزِ وَهُوَ صَغِيرٌ، وَأَخِيهِ إِلَى مَلِكِهِمْ هُولَاكُو وَهُوَ نَازِلٌ عَلَى حَلَبَ، فَكَانُوا فِي أَسْرِهِ حَتَّى قَتَلَهُمْ فِي السَّنَةِ الْآتِيَةِ "

قلت: وقد ذكر المؤرخون أن المظفر قطز راسل سلطان الشام الملك الناصر، وقدم له عروضًا مغرية من أجل الاجتماع لقتال التتار من ذلك أن يتم الاجتماع، ويكون الناصر هو السلطان على مصر والشام، ويقاتلون تحت راية واحدة، إلا أن الناصر والله أعلم لم يكن عنده حسن نية، فلم يأمن وظن أن هذا استدراج، وأنه إذا وصل إلى مصر سيقبضون عليه وذلك أن التتار عندما كانوا محاصرين لميافارقين، كان الملك الناصر يراسل التتار يطلب منهم جيشا؛

ليساعدوه على غزو مصر ليضمها إلى سلطانه، فظن أنهم سينتقمون منه لهذا لم يجبهم إلى ذلك، فكان في ذلك حتفه كما تقدم من كلام ابن كثير رحمه الله.

أما صاحب حمص، فإنه استمر على طاعة التتار يقاتل معهم تحت إمرة كُتبغا أمير جيوش التتار في بلاد الشام والعراق، ولما استوثق التتار من بلاد الشام وصارت كلها بأيديهم، وصاروا على مقربة جدا من مصر، ولم يفصلهم عن مصر إلا قرابة خمسة وثلاثين كيلو متر تقريبا، وصارت لهم حامية كبيرة في غزة، بدأوا بالتخطيط لغزو مصر، فأرسل كتبغا أمير التتار رسالة إلى سلطان مصر على لسان هولاكو.



مصر

كانت الأوضاع في مصر تلك الفترة مضطربة جدا، فإنه في سنة ستمائة وثمانية وأربعين مات الملك الصالح نجم الدين أيوب، الذي كان يعتبر من أواخر وأفضل ملوك الأيوبيين في مصر، بعد حياة حافلة بالجهاد والخير، والحفاظ على الإسلام وأهله،



مات مريضا في أثناء قتال المسلمين في معركة المنصورة مع الإفرنج، وحصل للمسلمين نصر عظيم في تلك المعركة، وأخفت زوجته **(شجرة الدر)** موته حتى تم النصر، وكان موت الصالح أيوب في سنة ستمائة وثمانية وأربعين قبل عشر سنوات من سقوط بغداد والشام.

وكان أمراء الشام من أبناء عمومته الأيوبيين قبل موته بسنوات قد استعانوا بالإفرنج؛ لقتاله وأخذ مصر منه، حتى أنهم سلموا بيت المقدس للفرنجة مقابل أن يساعدوهم على أخذ مصر من الصالح أيوب، إلا أنهم فشلوا وانهزمت جيوش الفرنجة، وأمراء الشام على يد الملك الصالح نجم الدين أيوب، وذلك

في سنة ستمائة وثلاثة وأربعين، واسترد بيت المقدس من أيدي الصليبيين، بعد أن مكث بأيديهم سبعة عشر سنة.

فلما مات رحمه الله لم يكن له وريث من الذكور، إلا ولد يقال له **(توران شاه)**، وكان بعيدا عن مصر، فأرسلت إليه زوجة أبيه شجرة الدر، وهي جارية تركية الأصل أعتقها وتزوجها، فلما وصلت الرسالة إلى توران شاه تحرك على وجه السرعة نحو مصر، فلما وصل سلمته مقاليد الحكم، ولكنه كان سيء السيرة.

فما إن جلس على كرسي الحكم، إلا وبدأ بإقصاء الأمراء المماليك والقادة الذين كانوا يعتمد عليهم أبوه الملك الصالح في إدارة الدولة، وبدأ بالإساءة إلى زوجة أبيه، وإلى كبار القادة في الجيش والدولة، فضاقوا به واستوحشوا منه، فما كان منهم إلا أن دبروا أمرا، واتفقوا على قتله، فقتلوه وبقتله انقطع نسل الملك الصالح، فكان آخر ملوك الأيوبيين في مصر، فقامت شجرة الدر وأعلنت نفسها ملكة على مصر كونها زوجة الملك الصالح.

ولما أعلنت نفسها ملكة، وبايعها المماليك العسكرين الذين كانوا لزوجها الملك الصالح حصلت فوضى كبيرة من قبل الناس، ومن قبل الإمارات المجاورة، ومن قبل الخليفة وحصل كلام كثير، وأنكر ذلك العلماء والفقهاء

لحرمة ذلك في دين الإسلام حيث يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «**لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمْ امْرَأَةً**». رواه البخاري (٤٤٢٥) عن أبي بكرة رضي الله عنه.

فلما عظم الإنكار ولم يتقبل المسلمون ذلك، حتى إن الخليفة أرسل إلى أهل مصر إن لم يكن عندكم رجال أرسلنا لكم رجلا تولونه عليكم، فلما زادت الفوضى والاضطراب وخُشي من خروج الأمر عن حده بسبب هذا الأمر تزوجت شجرة الدر أم خليل من بعض كبار المماليك البحرية، وهو (**عِزُّ الدِّينِ أَيْبَك**)، وذلك سنة ستمائة وتسعة وأربعين هجرية، وسلمته مقاليد الحكم، وأعلنته سلطانا لمصر.

واستمر الأمر على هذا الحال لمدة ست سنوات، وبدأ عز الدين أيبك ينفرد بالحكم أكثر، وبدأ بإقصاء مماليك الملك الصالح، وكان على رأس المماليك الصالحية، (**فَارِسُ الدِّينِ أَقْطَايَ**) وكان أقطاي يرى نفسه فوق المعز أيبك وهو كذلك فبدأ أقطاي يتصرف دون الرجوع إلى المعز، وجعل يستميل المماليك البحرية.

حتى توجس منه المعز، وخافه فدبر أمر موته، ووكل بذلك ثلاثة من أتباعه فقتلوه في قصر السلطنة، فتجمع أتباعه فرمى لهم برأسه، فتفرقوا وكان منهم جماعة من كبار المماليك البحرية أمثال (**بِيبَرْس، وَقَلَاوُون**)، وغيرهما فلما قتل رئيسهم خرجوا إلى دمشق في خدمة الملك الناصر، ولحق بهم جماعة، واختفى آخرون، وصودرت أموالهم، وصفا له الجو، وانفرد بتدبير الدولة.

ثم بدا لسلطان مصر **(عز الدين أيبك)** أن يقوي علاقته بالأيوبيين أكثر؛ ليضمن بقاء ملكه؛ لأنه من مماليك الترك الذين اشتراهم الأيوبيون بالمال وأعتقوهم واستخدموهم في الجيش، فأراد أن يقوي سلطانه أكثر، فخطب ابنة صاحب الموصل، وهو أحد الأمراء الأيوبيين ليقوي علاقته بالأيوبيين، ويكون له صبغة شرعية في الحكم، فلما علمت زوجته شجرة الدر بذلك، وهي التي سلمته الملك، ووصل إلى ما وصل بسببها، ورأت أن زواجه بأخرى سيؤدي إلى انفراده بالملك، وإقصائها تماما مع ما يكون من غيرة النساء، ولا سيما وهي ترى نفسها ولية نعمته.

فقامت بالاتفاق مع بعض المماليك المخلصين لها على قتله، وتم لهم ذلك بعد أن حكم مصر مدة سبع سنوات، وقد أثنى عليه ابن كثير بقوله:"أَوَّلُ مُلُوكِ الْأَتْرَاكِ، كَانَ مِنْ أَكْبَرِ مَمَالِيكِ الصَّالِحِ نَجْمِ الدِّينِ أَيُّوبَ بْنِ الْكَامِلِ، وَكَانَ دَيِّنًا صَيِّنًا عَفِيفًا كَرِيمًا، مَكَثَ فِي الْمُلْكِ نَحْوًا مِنْ سَبْعِ سِنِينَ، ثُمَّ قَتَلَتْهُ زَوْجَتُهُ شَجَرُ الدُّرِّ أَمُّ خَلِيلٍ، وَقَامَ فِي الْمُلْكِ مِنْ بَعْدِهِ وَلَدُهُ نُورُ الدِّينِ عَلِيٌّ، وَلُقِّبَ بِالْمَلِكِ الْمَنْصُورِ، وَكَانَ مُدَبِّرَ مَمْلَكَتِهِ مَمْلُوكُ أَبِيهِ سَيْفُ الدِّينِ قُطُزُ".اهـ

ومرت على المسلمين في مصر مرحلة سيئة جدا مع هذه الأحداث حيث مرت سلسلة من الاغتيالات للملوك والسلاطين، والله المستعان، ولكن هناك تدابير يسيرها الله جل وعلا، فإن الخير يكمن في الشر ولله حكمة بالغة وعسى أن

تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا، وكان للمعز ولد صغير يدعى: (نور الدين **عليا**)، فعقدوا له على السلطنة، ولقبوه بالمنصور، وجعلوا (**قُطُزاَ**)، وهو يومئذ كبير المماليك أتابكا له يدبر عنه أمور السلطنة.

[قطز]

أما (**شجرة الدر**) فقد قام مماليك المعز بقتلها؛ قصاصا وانتقاما لسلطانهم، وأثناء هذه الاضطرابات في مصر سقطت بغداد سنة ستة وخمسين وستمائة كما تقدم، ثم سقطت الشام في سبعة وخمسين، ووصلت جيوش التتار إلى غزة كما أسلفنا، ولم يفصلهم عن دخول مصر إلا مسافة يسيرة جدا، فلما تأكد للمماليك في مصر أن التتار يجهزون ويعدون العدة لاجتياح بلادهم.


الراية المنسوبة للمماليك

قام السلطان المظفر قطز وهو مدبر المملكة، وجمع الأمراء وقال لهم الأعداء على الأبواب والسلطنة لا تحتاج إلا إلى رجل شجاع حكيم، فلا يمكن مجابهة الخطر القادم بطفل صغير يتلاعب به الأمراء.

فتعددت المشورة كل يشير عليه بشيء، فأشار عليهم أنه يُعزل هذا الصغير، ويجعل مكانه رجلا يدير أمر المملكة، ويمكنه حماية البلاد من التتار، فكانت المشورة أن يكون هو ذلك الرجل، فقبل ذلك وقال: أنا أتولى عليكم فإذا نصرنا الله على التتار، إن رضيتموني، وإلا فولوا من شئتم؛ ليؤكد لهم أنه غير طامع في الملك، وأنه لم يفعل ذلك حيلة، وأنه صادق في نيته، وإنما مراده الدفاع عن بلاد المسلمين، وأن تنتظم أمور السلطنة، وأحوال البلاد تحت قيادة رجل يعرف كيف يتصرف حتى يتم الخير والنصر.

وبعد هذه السلسلة وبسبب هذه الأحداث والفوضى المتتابعة كانت الأحوال في مصر مضطربة جدا، إلا أن الأخبار جاءت أن التتار يجهزون لغزو مصر، فبدأ المظفر قطز على وجه السرعة والجد بإصلاحات كثيرة، مع أن الوقت كان ضيقا جدا، فالتتار على الأبواب، وأوضاع مصر في غاية السوء اقتصاديا وسياسيا وعسكريا واجتماعيا، فخلافات بين المماليك الذين هم جيش


دولة المماليك

الدولة، وخلافات بين الناس، واقتصاد البلاد على شفا جرف هار، والجيش غير مستعد حاليا لخوض معركة كهذه، فكانت الأمور في ظاهرها في غاية السوء من جميع النواحي.

فقام (**قطز**) رحمه الله بإصلاحات عظيمة خلال أشهر معدودة، فجمع العلماء وحثهم أن ينطلقوا في المساجد، ومجامع الناس وفي البوادي والقرى وفي سائر بلاد مصر يحثون الناس على الجهاد، والاستعداد بالتدريب على استخدام السيوف والرماح، وحث كل من يقدر على حمل السلاح أن يستعد ليشارك في القتال حتى يسد العجز الحاصل في الجيش، وذلك لأن التتار يأتون بجحافل كبيرة، وأعداد هائلة فأول ما بدأ به إعداد الناس دينيا وربطهم بالله جل وعلا، وبث روح الجهاد فيهم، وهذا هو الأساس كما قال ربنا سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧﴾ [محمد:٧].

وقال سبحانه: ﴿بِهِۦۗ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [آل عمران:١٢٦]، وقال: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ [الأنفال:٦٠].

ثم بدأ ببعض الإصلاحات الاقتصادية، حتى تحسن الأمر نوعا ما، ثم بدأ بمراسلة ملوك الشام الذين فروا من وجوه التتار كأمير حماة وحمص والناصر أمير دمشق قبل أن يقتل وراسل المماليك البحرية الذين هربوا من مصر عندما اختلفوا مع عز الدين أيبك، وعلى رأسهم بيبرس الذي كان رئيس المماليك البحرية، وما زال يستعطفهم ويمنيهم، فلما انهزم الناصر أمام التتار أقبل ملك

حماة، وجاءت المماليك البحرية، ولحق بمصر أكثر جيش الناصر الذين كانوا قد تجهزوا لقتال التتار، فجاءته أفواج وأمداد كبيرة كان لها الأثر الكبير في تقوية البلاد عسكريا.

وخلال ثلاثة أشهر بتوفيق الله جل وعلا لقطز رحمه الله تعالى استطاع أن ينهض بالبلاد نهضة عجيبة، وهو شيء أراده الله ولولا عون الله له ما أمكنه ذلك، فإن الوقت كان ضيقا جدا عن القيام بمثل هذه الأمور، ولكن من صدق الله صدقه الله، فتحسنت الأمور بصورة كبيرة جدا دينيا ومعنويا، وعسكريا واقتصاديا، وسياسيا واجتماعيا.


جزيرة الروضة وسط النيل التي كان يقيم فيها المماليك البحرية

وبينما هم على هذا الحال من الإعداد والتهيؤ، إذ برسل التتار قد أقبلت بخطاب من هولاكو إلى الملك المظفر (**قطز**) يطلبون منه التسليم والخضوع والدخول في الطاعة، بخطاب طويل يزبد فيه ويرعد ويهدد ويتوعد، كتبه له بعض الأدباء المرتزقة من المسلمين، فوصل الخطاب إلى قطز، ويذكره بأنه إنما هو مجرد عبد، فليس مثله يمكنه أن يقاتل الملوك.

فجمع قطز كبار الأمراء وقادة الجيش اجتماعا طارئا في دار السلطنة بالقاهرة، وعقدوا مجلس مشورة للنظر في الأمر الذي نزل بهم على غير استعداد، والعدو قريب جدا لا يفصلهم عنه إلا قرابة خمسة وثلاثين كيلو، ولربما خلال ساعات والتتار على الأبواب، فتعددت الأراء في ظل هذا الوضع الحرج، فمنهم من رأى المهادنة وبذل الطاعة، ومنهم من رأى التحصن في المدينة، ومنهم رأى القتال، فبينما هم كذلك إذا أمر قطز بإدخال الرسل، وأمرهم أن بقراءة الكتاب.

فلما سمعوا ما تضمنه الخطاب من التهديد والوعيد، والتذكير بما فعله بالملوك الذين عارضوه وكيف قتلهم، وهدم بلادهم، وسفك دماء شعوبهم، والمجازر الدامية التي قام بها، فوقع الكلام من قلوب جمع من الأمراء موقعه، وأصابهم بالخور والضعف، فقالوا لا طاقة لنا بقتالهم، والرأي أن ندخل في الطاعة، ولم يعتبروا بما حصل لمن قبلهم.

أما قطز ومعه بيبرس وبعض القادة، فاجتمعت كلمتهم على الجهاد، لكن لما رأى المظفر قطز أن القادة لم يتفقوا على رأي، وخشي إن طال النقاش، واحتدم الخلاف أن يحصل الفشل كما قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال:٤٦].

أراد أن يحسم الموقف بحيث لا يبقى لهم خيار إلا القتال، فقام بقطع رؤوس رسل التتار، ومع أن هذا مخالف للشرع والعرف، فإنها قد جرت السنة

بأن الرسل لا تقتل، إنما هو رسول يبلغ رسالة، ويرجع بالجواب، فلا يقتل إلا إذا تعدى حده وصلاحيته، ولعله تأول رحمه الله تعالى، وأراد أن يحسم المادة؛ لأن قتل الرسل معناه إعلان الحرب، ولن يتبق أي أمل للمفاوضة والصلح أو للأمان، أو للدخول في الطاعة.

فلما رأى الأمراء ذلك سُقط في أيديهم، وعلموا أنه لم يبق خيار ولا مجال للتفاوض، والخيار الوحيد هو أن يستعدوا للحرب.

ثم إن السلطان قطز أمر بأن تعلق رؤوس هؤلاء الرسل على (**باب زويله**) في القاهرة؛ ليراهم الناس ومع ما حصل في هذا الأمر من الخطأ، إلا أنه حصل به مصالح كثيرة:


باب زويلة القاهرة

١- منها : اتفاق الكلمة على القتال.

٢-ومنها: أن الناس في مصر من العامة ومن الجنود لما رأوا سلطانهم بهذه الجرأة، وبهذه الشجاعة التي تدل على عدم خوفه من التتار إلى درجة أن

يقتل رسلهم، ويعلق رؤوسهم على باب بعض أبواب القاهرة، أكسبهم ذلك قوة وشجاعة وحماس، فإن شجاعة الجند من شجاعة قائدهم، فلما رأوا هذا الأمر علموا أن سلطانهم لا يهاب عدوا مهما كانت قوته وكثرته.

فارتفعت معنوياتهم جدا بسبب هذا الأمر، فعندئذ أجمع الأمراء على القتال، وبدأ الإعداد والتدريب، وتجهيز خطة الحرب، إلا أنها صادفتهم مشكلة كبيرة فالجيوش قد اجتمعت والمتطوعون يتوافدون للقتال، لكن ليس في خزينة الدولة من المال ما يكفي لتجهيز الجيوش، وهذا الأمر يحتاج إلى أموال باهظة من السلاح والعدة والمؤنة، وهذا يكلف من المال الكثير وخزينة الدولة شبه فارغة نتيجة لما مر بالبلاد من الاضطرابات، فكان هذا الأمر أكبر عائق أمامهم ولا يمكن تجاوزه.

فوضع قطز على القادة هذا الأمر، فكانت المشورة أن تُفرض ضرائب على الشعب، لأن هذا المال سيكون مقابل حمايتهم وتأمينهم، وكادوا أن يتفقوا على هذا الرأي، إلا أن المظفر رحمه الله كان رجلا دينا، كما وصفه الحافظ ابن كثير والإمام الذهبي وغيره، فكان من خيار السلاطين صاحب دين وعقل وروية وشجاعة، ولا يقدم على شيء إلا بعد أن يستشير أهل العلم، وكان من كبار العلماء في مصر آنذاك العز بن عبد السلام رحمه الله تعالى، وكان قد خرج من دمشق عندما تعاون أميرها الصالح إسماعيل مع الفرنج على الصالح أيوب، فخرج من دمشق وذهب إلى مصر.

فطلب السلطان قطز العلماء ليأخذوا منهم الفتيا بذلك، وهذا يدل على حرص المظفر قطز على أن تقوم هذه المعركة على العدل والطاعة، وأن لا يكون فيها شيء يخالف الشرع؛ لأنه يعلم أن النصر إنما يستنزل بطاعة الله لا بمعصيته، فلما حضر من العلماء جماعة وطرحت عليهم المسألة، فأبدى بعضهم موافقة للضرورة في حماية البلاد، مع عدم وجود ما يكفي في خزانة الدولة إلا أن العز بن عبد السلام رفض هذه الفكرة، وقال لهم بأن هذا لا يجوز إلا بشرطين:

- الشرط الأول: ألا يبقى في خزينة الدولة شيء .
- الشرط الثاني: أن يقوم الأمراء وقادة الجيش وكبار الدولة بإخراج ما في خزائنهم من الأموال والنفائس، والأعلاق وجواهر نسائهم حتى يتساوون مع الرعية، في الأموال والنفقة إلا ما تعلق بسلاحهم، فلا يخرجونه، لأنهم سيستخدمونه القتال.



فإذا لم تكن كافية، فيجوز عندئذٍ أن تفرض الضرائب على الرعية، وغير هذا لا يجوز، فتثاقل بعض

الأمراء، ولم تطب أنفسهم بذلك، فإن الواحد من سنين يجمع هذه الكنوز والأموال، ويدخرها فكيف يخرجها في ساعة واحدة، فكان الأمر شاقا جدا بالنسبة لهم، فلما رأى ذلك قطز، والموقف في غاية الصعوبة والخطورة معا.

قام رحمه الله تعالى وجعل يرغبهم ويحرضهم، وقال لهم: أنا أبدأ بنفسي، فبدأ بنفسه وأخرج كل ما عنده من الحواصل والكنوز، وما عند حرمه ونسائه.

فعندئذ بادر الأمراء وعلموا أن الأمر جد، وكان مما قاله لهم: إن لم تخرجوها وتدفعوا عن أنفسكم سيقتلكم التتار ويأخذونها خالصة، ويستبيحون نساءكم وأولادكم في ذلة ومهنة، فاستسلموا للأمر الواقع، فصار كل أمير ومن له شأن في الدولة يخرج ما عنده من الكنوز المخبأة ونفائس الحلي والأموال، فتفاجأ الناس بأموال عظيمة كانت في خزائن الأمراء والقادة ولا غرابة في الحقيقة؛ لأنهم كانوا أهل قتال وجهاد، فخرجت أموال عظيمة حتى أنهم لم يحتاجوا إلى أن يفرضوا من الضرائب على الناس، إلا الشيء اليسير دينار واحد على كل إنسان حتى تم تجهيز الجيش وقد ذكر بعض المؤرخين أن الأموال التي جمعت بلغت ستمائة ألف دينار، وهذا مبلغ كبير جدا، فجهزوا به الجيش كأحسن تجهيز، وأعدوه أعظم إعداد.

وقبل أن يبدأ تحرك الجيش قام قطز بعمل يدل على حنكته، فراسل الصليبيين في عكا ليسمحوا له ولجيشه بالمرور من بلادهم، وشراء ما يحتاجونه من المؤن من أسواقهم حتى يضمن ألا يؤتى من خلفه، فلاقى الطلب قبولا بل

عرضوا عليه المساعدة ببعض الرجال، فشكرهم ولم يقبل منهم، وهذه سياسة حكيمة وعبقرية في الحرب، والنصارى وإن كان يتمنون هلاك أهل الإسلام، إلا أنهم كانوا يرون ألا أمان لهم البتة مع التتر، وإن أعطوهم بعض الصلاحيات أحيانا، فإنهم سرعان ما ينقضون عهدهم، ويفتكون بمن سواهم.

ولما ذاع الخبر في الناس بعزم السلطان قطز على قتال التتار جاءت المتطوعة من أماكن شتى من مصر وخارجها، فتجمعت الجيوش في (**منطقة الصالحية**) في محافظة الشرقية حاليا، وهي على مسافة مائة وعشرة كيلو تقريبا من القاهرة، وتبعد عن غزة قرابة مائتي كيلو حيث تتواجد أول حامية للتتار.

ولا منافاة بين هذا وما تقدم أنه لم يكن بين التتار ومصر إلا قرابة خمسة وثلاثين كيلا، فإن هذه هي المسافة الفاصلة بين غزة وأول منطقة في مصر وعلى كل حال فقد كان كثيرا من الأمراء يظن أن المعركة ستكون في (**الصالحية**)، وأنهم سيعسكرون في ذلك المكان، فإذا جاء التتار قاتلوهم؛ لكنهم بعد أن اكتمل الجيش واكتمل إعداده تفاجؤوا بالسلطان المظفر قطز يأمرهم بالمسير نحو العدو إلى فلسطين، وألا ينتظروا العدو حتى يأتيهم، بل يتحركون لملاقاته، ولا ينتظرون حتى يأتي إليهم.

فتثاقل كثير من الأمراء فقال لهم السلطان المظفر قطز: "يا أمراء المسلمين لكم زمان تأكلون أموال بيت المال، وأنتم للغزاة كارهون، ثم قال لهم: أنا أقاتل

التتار بنفسي، وأنا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبني، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته، فإن الله مطلع عليه وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين".

فلما رأى الأمراء هذا العزم والجد من سلطانهم قوي العزم، واتفقت الكلمة على الخروج صفا واحدا لملاقات التتار، إلا من شذ ممن تسلل لواذا، وجمع أهله وماله وتوجه نحو بلاد المغرب.

وكانت في غزة مجموعة من كتائب التتار كحامية، وأما **(كتبغا)** قائد جيش التتار الموكل من قبل هولاكو، فقد كان مع عامة الجيش في سهول بقاع لبنان، وهي تبعد عن غزة قرابة خسمائة كيلو، وقد وضع السلطان قطز رحمه الله تعالى خطة جيدة حيث قام باختيار أقوى الفرسان من المماليك المدربين، وجعلهم عبارة عن مقدمة؛ لكنها لم تكن مجرد مقدمة صغيرة كطليعة كما جرت به العادة بل جعلها مقدمة كبيرة، فيها أمهر وأقوى وأشجع الفرسان، وجعل عليهم الظاهر بيبرس، وكان أقوى فرسان الجيش.



وكان يقارن بقطز في الخبرة والقوة والشجاعة رحمه الله تعالى، وهو الذي صار سلطانا بعد قطز، وجعل الله على يدية خيرا كثيرا، فجعله قطز أميرا على هذه الفرقة التي تعتبر أقوى فرقة في الجيش، وأمرهم أن يتقدموا قبل الجيش بمراحل بحيث تكون المقدمة منفصلة عن الجيش تماما، فالذي يراها من استخبارات التتار يظنون أن هذه المقدمة هي جيش مصر كله، ولا يدرون أن أكثر الجيش خلفها بمراحل.

وكان مراد قطز من هذه الطريقة تضليل التتر، فإنهم إذا اعتقدوا أن الجيش إنما هو هذه المقدمة لا يحصل عندهم الاستعداد الكبير، ويرون من السهل القضاء عليهم، وفعلا تم ما أراده رحمه الله تعالى، فسارت المقدمة وسار قطز وراءهم ببقية الجيش، وكان التحرك من الصالحية في شعبان من سنة ستمائة وثمانية وخمسين هجرية في شهر يوليو، ووافق ذلك شدة الحر لا سيما في تلك الأماكن من صحراء سيناء؛ لكنهم تحركوا، ودخلوا سيناء، وبدأوا باختراق بلاد الشام بدأ من رفح، ثم خان يونس، ثم دير البلح، وهكذا حتى وصلوا إلى غزة.

فلما وصلوا غزة، وكان أول ما وصل هي تلك المقدمة بقيادة بيبرس، فما إن دخلت مقدمة المسلمين غزة، وإلا واصطدموا بحامية التتار، وحامية التتار قطعة كبيرة من الجيش أكثر من مقدمة المسلمين بأضعاف، ولما كانت مقدمة المسلمين هي أقوى ما في جيش أهل الإسلام من الفرسان المدربين الأقوياء، ما

كانت إلا جولة حتى انهزم التتار، وانطلق المسلمون خلفهم قتلا وأسرا، وقتلوا أكثر الحامية، ولم يفر منهم إلا الشذاذ على وجوههم، وتركوا غزة خلف ظهورهم بل وبلاد فلسطين كاملة تركوها، والمسلمون خلفهم يلاحقونهم حتى وصل آخر فلولهم إلى سهول بقاع لبنان إلى حيث **(كتبغا)** مقيما بجيوشهم.

فوصلوا في حالة من الفزع والهلع حيث لم يدر في خلدهم أن في المسلمين من يقوى على المواجهة بعد ما بلغهم ما وقع من النكال لمن حاول المقاومة والقتال في بعض البلاد فإما التسليم وإما القتال من وراء الحصون، ولم يمر على التتر من سنين من يقاتلهم وجها لوجه، بل ويهجهم عليهم ويسير إليهم وبعدد قليل ومع هذا يهزمون هزيمة ساحقة، بل ويلاحقونهم.

فكانت هذه صدمة كبيرة للتتار، وانهيار لمعنوياتهم ، وانقلبت الموازين لأنه قد اشتهر عند الناس أن التتار لا ينهزمون، حتى ميافارقين وإن صمدت أمام حملات التتار وحصارهم لها سنة ونصف، فإن القتال كان من خلف الأسوار، ولم تحصل المواجهة وجها لوجه، إنما تحصنوا داخل المدينة، وإن كان ذلك الصمود قد كسر من هيبة التتار، لكن لم تكن هناك مواجهة، فكانت هذه أول كسرة للتتر بهذه الطريقة، فلما وصل فلول المنهزمين إلى كتبغا، وأخبروه بالأمر وزودوه ببعض المعلومات عن الجيش المصري، ومن معه وكانوا يظنون أن الجيش ليس إلا الذي قاتلهم، ولا يدرون أن عامة الجيش مع السلطان قطز، وأن من قاتلهم إنما هي مقدمة الجيش.

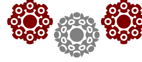
عجيبة مؤلمة: قال ابن كثير رحمه الله: "وَاسْتَيْقَظَ لَهُ عَسْكَرُ الْمَغُولِ، وَعَلَيْهِمْ كَتْبُغَا نُوِينَ، وَكَانَ إِذْ ذَاكَ فِي الْبِقَاعِ، فَاسْتَشَارَ الْأَشْرَفُ صَاحِبُ حِمْصَ وَالْقَاضِي مُجِيرُ الدِّينِ بْنُ الزَّكِيِّ فِي لِقَاءِ الْمُظَفَّرِ، فَأَشَارَ بَعْضُهُمْ بِأَنَّهُ لَا قِبَلَ لَهُ بِالْمُظَفَّرِ حَتَّى يَسْتَمِدَّ هُولَاكُو، فَأَبَى إِلَّا أَنْ يُنَاجِزَهُ سَرِيعًا".اهـ

فانظر إلى هذا الحال من البلاء، فبدلا من أن يستغل الأمير والقاضي الحال ويحرضانه على اللقاء السريع دون استعداد؛ ليستريح منهم العباد والبلاد إذ بهم يدلانه على ما يتقوى به، وأنه إن أراد النصر لا بد له من طلب المدد من هولاكو، فإلى الله المشتكى من هذا الخنوع والهوان، فكيف يستسيغ قاضي القضاة مع ما آتاه الله من علم أن يصل إلى هذا الحال، فلم يكتف بكونه صار قاضيا للكفرة وتحت إمرتهم حتى بلغ به الأمر إلى أن يدل الكافر على ما فيه



هلاك أهل الإسلام؟!!! لكنه حب الدنيا ونسيان الآخرة!

والأيام تتكرر فكم نرى في زماننا من هذا الصنف من قضاة السوء، وعلماء الفتنة من أهل الهوى والبدعة الذين يبذلون دينهم رخيصا بدعوى الحفاظ على البلاد، والحكمة في الدعوة، وهم كل حين يداهنون في دينهم، ويزينون إجرام الكافرين، وظلم الظالمين!!! اللهم ثبتنا على دينك.



]عين جالوت المعركة الخالدة[

ثم إن قطز رحمه الله تعالى وصل ببقية الجيش إلى غزة، وبيبرس بانتظاره بعد أن حقق ذلك النصر الخاطف السريع، وأخبره بما حصل ففرح المسلمون بذلك، واستبشر الناس بهذه البشارة العظيمة.

فكانت أول بشائر النصر، وبداية الفرج، فانطلق قطز بالجيش كاملا ليبحث عن مكان مناسب للمعركة حتى وصلوا إلى سهل **(عين جالوت)** بين منطقة بيسان ونابلس في فلسطين، فوقع اختياره عليه، وهو الآن قرب ما يسمى بـ**(مخيم جنين)**.

وهذا الموقع الذي اختار قطز النزول فيه أعني **(عين جالوت)** موقع له جذوره التاريخية من حيث أنه في فلسطين، ومن حيث أنه قد توسط موضعين لهما تاريخ جميل، فإن سهل عين جالوت يقع بين حطين واليرموك، فيحده من جهة الشمال بقرابة خمسة وستين كيلٍ، وتحدها من جهة الجنوب بقرابة خمسين كيلٍ منطقة حطين، حيث جرت معركة حطين عام أربعمائة وثلاثة وثمانين، أي: قبل مائة وخمسة وسبعين سنة، ومن الجهة الأخرى شمالا تحدها منطقة اليرموك حيث كانت معركة اليرموك سنة ثلاثة عشر أي: قبل ست مئة وخمسة وأربعين سنة، في آخر خلافته أبي بكر رضي الله تعالى عنه، فكان لهذا

الموقع جذور تاريخية وذكريات عظيمة، تذكر المسلمين تلك الأيام الخالدة، والانتصارات العظيمة، فاليرموك عن شمالهم، وحطين عن يمينهم، فكان اختيار هذا الموقع توفيق من الله جل وعلا للسلطان قطز.

ثم إن اختيار السلطان هذا الموضع ليس لهذا فحسب، وإنما لما يتميز به هذا السهل (**سهل عين جالوت**) من أمور كثيرة، من حيث أنه سهل خصب، فلو تأخر التتار في القدوم يستطيع جيش المسلمين أن يرعوا مواشيهم وخيولهم، ولا يكلفهم ذلك مؤنة ونفقة، ومن جهة أنه عبارة عن سهل مميز تحيط به التلال والهضاب المتوسطة والأشجار والأحراش، وهي الأشجار المتشابكة من جهاته الثلاث ،وليس له فتحة واسعة إلا من جهة الشمال فقط، ومن الجهات الأخرى عبارة عن تلال وهضاب والأشجار وأحراش تصلح لكمائن ومفاجآت، فهو أشبه ما يكون بحدوة الحصان.

واختيار مثل هذا المكان يدل على عبقرية القائد، فإن مواجهة الجيوش الكثيرة بعدد أقل منها لا يصلح معه إلا مثل هذه الأماكن، التي يصعب جدا على العدو أن يقوم بعملية تطويق أو التفاف، ولا يمكنه أيضا أن يقاتل بجميع الجيش، بل سيضطر أن يقاتل من جهة واحدة، وبمقدار معين من الجيش الذي يمكنه الدخول من تلك الجهة المفتوحة، فنزل الجيش في هذا السهل، وأخذ مواقعه، ولما صلت الأخبار إلى كتبغا، وهو في سهول البقاع في لبنان بأن حاميته انهزموا، وأن السلطان متوجه بجيشه نحو عين جالوت بدأ بالتحرك، والعادة أن

الجيش يسير من سهول بقاع لبنان إلى عين جالوت من ثلاثة أيام إلى خمسة، إلا أن كتبغا لما بلغه كسرة أصحابه في غزة، وجاءه أولئك الذين استطاعوا الفرار على وجوههم ذلك الفزع الذي لم يعتادوه قذف الله في قلبه الرعب، فصار يماطل، ويتحرك ببطء حتى استغرق مشيه من سهل بقاع لبنان إلى عين جالوت شهرا كاملا، فكانت هذه بداية الفشل، وعلى كل حال كان وصول المسلمين إلى سهل عين جالوت في شهر رمضان، ولم يصل التتار إلا في ليلة الخامس والعشرين.

[خطة قطز]

ولما علم قطز أن التتار قد اقتربوا جهز خطة محكمة على ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: تنزل مقدمة الجيش بقيادة بيبرس إلى السهل، وتقف في فم السهل من الجهة الشمالية عند مدخل السهل، ويختبأ هو وبقية الجيش خلف التلال وبين الأحراش وخلف الأشجار، بحيث ينظر الناظر فلا يرى إلا المقدمة التي على فم السهل، فيظنها الجيش كله، ولا سيما والتتار بعد معركة غزة قد تأكدت عندهم هذه المعلومة.

المرحلة الثانية: تقوم المقدمة بقيادة بيبرس وفيها أشجع الفرسان بإنشاب القتال مع التتر، والمصابرة قدر ما أمكن، ثم يبدؤون بالانسحاب التدريجي

لإطماع العدو بالهجوم، والدخول إلى السهل بكامل قواته؛ طمعا في القضاء على تلك المقدمة.

المرحلة الثالثة: إذا تتام دخول جيش التتر كاملا إلى السهل يخرج بقية الجيش من كمائنه، ويطبق على العدو، فيصير التتار بين فكي كماشة كما يقال، فبيبرس بفرسانه من أمامهم، وقطز وبقية الجيش من ورائهم.

[بدء المعركة]

لما وصلت جيوش التتار في ليلة الخامس والعشرين من شهر رمضان، وكان ذلك ليلة الجمعة بات المسلمون في دعاء وتضرع، فلما أصبح الصباح وتصاف الجيشان، وتراءى الجمعان أصدر قطز أوامره إلى بيبرس بأن لا يبدأ القتال إلا بعد صلاة الجمعة، وهي سنة متبعة من زمن النبي عليه الصلاة والسلام، فعلها رسول الله، وفعلها الصحابة، وفعلها من بعدهم من قادة الفتح الإسلامي؛ يغتنمون وقوف الخطباء على المنابر، ودعائهم للمجاهدين في تلك الساعة التي تهب فيها الأرواح ويحصل فيها الخير.

وقد بوب البخاري بَاب: **كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا لَمْ يُقَاتِلْ أَوَّلَ النَّهَارِ أَخَّرَ الْقِتَالَ حَتَّى تَزُولَ الشَّمْسُ**.

وروى ابن جرير وابن حبان وصححه الألباني في الصحيحة (٢٨٢٦) عن النعمان بن مقرن رضي الله عنه أنه قال يوم نهاوند حين عتب عليه المغيرة وغيره

تأخره في بدء القتال: مَا مَنَعَنِي أَنْ أُناجِزَهم إِلَّا لِشَيْءٍ شَهِدْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا غَزَا فَلَمْ يُقاتِلْ أَوَّلَ النَّهَارِ لَمْ يَعْجَلْ حَتَّى تحضُرَ الصَّلَوَاتُ وتَهُبَّ الْأَرْوَاحُ ويُطيبُ الْقِتَالُ.

فلما كان الزوال، وبعد أن صلى الجيش صلاة جمعة بدأ المسلمون في القتال، وكانت مواقع التتار مرتفعة قليلا، فنزلوا ينصبون على المسلمين بأصواتهم وزعقاتهم المزعجة، ولهم زجل وصياح وكثرة كاثرة، فنزلوا على المسلمين كالسيل لكن مكان المعركة ليس في صالحهم؛ لأنه ليس مكانا واسعا بحيث تستطيع جيوشهم الكثيرة محاصرة الجيش الإسلامي، أو الهجوم عليه بجميع عددهم ومع هجومهم الكاسح، إلا أن بيبرس صمد لهم، وثبت ومن معه ثباتا عجيبا أذهل جيش التتر، فكانت معركة حامية الوطيس واشتد الأمر جدا.

وكان قطز قد أوصى بيبرس أن يثبت ومن معه ما استطاعوا، وألا ينهزموا حتى يعطيهم أوامره بتنفيذ الخطوة الثانية من الخطة، فاستمرت المواجهة من بعد الجمعة إلى أن حجز بينهم الليل، والأمر على أشده، والتتار يكثفون هجماتهم هجمة بعد هجمة، والمسلمون ثابتون على مصافهم لم ينهزموا، ولم يتزحزحوا، والقتل مستحر في الطرفين، إلا أنه في التتار أكثر حتى حجز بينهم الليل، فرجعت كل طائفة إلى معسكرهم، فلما أصبحوا اليوم الثاني السادس

والعشرين من رمضان بدأت المعركة من الصباح الباكر، واشتد الأمر جدا، وبيبرس بمقدمته يقاتلون وحدهم جيش التتار، والتتار من بعد الجمعة إلى غروب الشمس، وهم بتلك الأعداد الهائلة والآلاف المؤلفة ما استطاعوا أن يهزموا تلك المقدمة، ولا أن يزيلوهم عن مواقعهم، فكان هذا مما زادهم ضعفا ورعبا، فإن كان هؤلاء بهذا العدد القليل يثبتون هذا الثبات، فكيف لو كان معهم غيرهم.

فتفاجأ التتار صباح اليوم الثاني أن الذي أمامهم تلك المقدمة نفسها، وأنهم أيضا مصرين على المواصلة، فكان هذا مما أرعبهم وأوهنهم، وقد لقوا منهم في اليوم الأول ما لقوا، فاستمرت المعركة في اليوم السادس والعشرين من رمضان من الصباح حتى حجز بينهما الليل.

فلما كان اليوم السابع والعشرين من رمضان بدأت الخطة الثانية لهذا الجيش، وكانت خطة قطز رحمه الله أنه عندما يحصل اليقين التام عند التتار أنه ليس إلا هذا الجيش يبدأ بالانسحاب لكن ليس انسحابا متباطئا جدا كانسحاب من يستدرج عدوه إلى كمين؛ لأن هذه طريقة معروفة في الحروب، وليس انسحابا سريعا يحصل به فوضى في المنسحبين، ويرجع الجيش بعضهم على بعض، فيسهل على العدو القضاء على المنسحب تماما؛ لتبعثره واضطراب صفوفه؛ لكنه أمره أن ينسحب انسحابا متوسطا، وهذا يحتاج حنكة ودقة وخبرة

تامة في المعارك، فليس أمرا سهلا أن تحصل مثل هذه الحركة بمنتهى هذه الدقة والنظام.

فبدأ بيبرس بتنفيذ الخطوة الثانية من خطة المعركة بعد أن ثبت ومن معه ثباتا عجيبا، ثم بدأ ينسحب قليلا قليلا حسب الخطة، وكان خطة قطز كما تقدم سحب التتار إلى داخل السهل، فبدأ بيبرس ينسحب إلى داخل السهل جاعلا ظهره إلى الجبال والأحراش، وجيش التتار يدخل، وكلما انسحب المسلمون تقدم التتار، حتى تكامل دخول التتار إلى السهل، عندها أصدر قائدهم كتبغا أوامره للجيش كله بالنزول لميدان المعركة للقضاء على جيش المسلمين، إذ بإمكانهم القتال بعدد أكبر داخل السهل، لا سيما، وجيش المسلمين قد بدأ بالتقهقر.

وقبل بدأ المعركة وقع أمر مهم فقد جاء رسول من بعض القادة المسلمين الذين كانوا في صفوف التتار يقال له: (**صارم الدين أيبك**)، وكان من المقربين لكتبغا، وكان يقاتل مع التتار، إلا أنه وجماعة معه كانوا غير راضين عن أنفسهم بذلك، فأرسل صارم الدين هذا خفية رسولا إلى قطز يخبره بأن التتار قد قل عددهم؛ لأن هولاكو قد أخذ معه قطعة من الجيش ويخبره أيضا أن ميمنة التتار أقوى من الميسرة، وأنه إذا اشتد القتال سيميل مع جماعة من المسلمين إلى الجيش المصري، فكانت هذه المعلومات مهمة لقطز إلا أنه خشي أن تكون

خدعة مدبرة مع التتار، ومع هذا أخذ بهذه المعلومات مع الحذر والحيطة لذلك عندما دخل التتار السهل، وأصدر كتبغا أوامره لبقية جيشه بالدخول إلى السهل أصدر قطز رحمه الله تعالى، أوامره لبقية الجيش فخرجوا من خلف الأشجار، ومن خلف التلال والهضاب، ومن بين الأحراش يهتفون بالتكبير، فكانت مفاجأة مرعبة للتتار لم تكن في حسبانهم البتة، فيومان من القتال ولم يستطيعوا أن يغلبوا تلك المقدمة، فكيف بجيش يخرج فجأة في كامل قوته ونشاطه أكثر من هذه المقدمة بأضعاف؟!

فبدأ أمرهم بالوهن، فلما خرج قطز بالجيش من كل مكان حتى سدوا فم السهل، صار جيش التتار مع كثرته محاطا بجيش المسلمين، فأخذهم الرعب لذلك؛ ولكنهم لما علموا أن السهل قد أغلق عليهم، ولن يستطيعوا الخروج منه والهرب اضطروا إلى القتال إما أن ينتصروا أو يموتوا، أو أن يقدروا على فتح فرجة ليفروا منها، فاشتد القتال جدا، فكان لا يسمع إلا صليل السيوف، وثار النقع حتى كان يحجز بين الناس، فلا يدري أحد أين صاحبه، فكانت معركة من أقوى المعارك التاريخية التي وقعت في ذلك المكان.

وبدأ قطز يصدر أوامره للجيوش، فإذا بميمنة التتار تهجم على ميسرة المسلمين حتى أخرتها، وكادت أن تلتف على المسلمين، وقطز يرسل لهم الكتائب، ويرسل لهم المدد لتقويتهم، فلم ينفع ذلك، فنزل بنفسه رحمه الله مع جماعة من فرسانه لدعم ميسرة المسلمين حتى لا تنهار، وردها إلى مصافها

فرآه بعض التتار، فرماه بسهم لكنه لم يصبه بل أصاب فرسه، فسقط الفرس ميتا، وترجل قطز عن الخيل، فقفز من ظهر الخيل إلى الأرض، وصار يقاتل راجلا، فجاءه بعض الأمراء بفرسه فقال له قطز رحمه الله: اركب فرسك فلا أريد أن أحرم المسلمين نفعك.

وما زال يقاتل راجلا، فلما رأى الجيش سلطانهم يقاتل راجلا كأشد القتال وينادي فيهم ويحرضهم على القتال ويبث فيهم الروح المعنوية، وهم يرونه يقاتل ويضحي بنفسه عظمت معنويات المسلمين جدا، فاشتد أمرهم وأقبلوا يضربون في التتار ويقتلونهم ويثخنون فيهم، حتى جاء بعض الجند بفرس آخر من خيل قطز، فركب عليه وواصل القتال، وفي هذا الأثناء وفى صارم الدين بوعده فانحاز مع أصحابه إلى الجيش المصري فزاد ذلك قوة للمسلمين ووهنا في التتر.

[مقتل كتبغا]

وبينما هم على هذا الحال، والأمر على أشده والمعركة قائمة إذا بأحد الأمراء ممن كان من أمراء الملك الناصر صاحب دمشق يقال له: (**جمال الدين أقوش الشمسي**) وهو ممن لحق بقطز لما جبن الناصر عن قتال التتار.

أبصر (**كتبغا**) وهو يقاتل في الجيش، فانطلق نحوه حتى تمكن من الوصول إليه فاختلف معه ضربتان، فكان (**سيف جمال الدين الشمسي**) أسبق من سيف

(كتبغا)، فوقع على رقبته حتى فصل رأسه عن جسده، ورفع رأس **(كتبغا)** على رأس سيفه، وجعل يكبر وينادي في التتار هذا أميركم قد قتل، فلما رأى المسلمون ذلك كبروا وقوي أمرهم، فصاروا يحصدون التتار حصدا.

ولما رأى التتار رأس قائدهم على رأس السيف سُقط في أيديهم ودب فيهم الرعب، فضعفوا عن المقاومة، فأثخن فيهم المسلمون قتلا حتى كادوا أن يفنوهم، إلا أن جماعة منهم حاولوا الفرار باتجاه المخرج.



فلما رأى قطز ذلك أصدر الأوامر لمن على فم السهل أن يفتحوا فرجة لمن أراد الهرب، فسمحوا لهم فخرجت فلولهم، وقد قتلت منهم مقتلة، واستطاع أن يفر منهم مجموعة كبيرة، فقام المسلمون باللحاق بهم يقتلونهم ويتخطفونهم من خلفهم، وأمعن التتار في الفرار حتى وصلوا إلى **(بَيْسَانَ)**، وبيسان باتجاه الشمال من جهة لبنان، وتبعد عن عين جالوت عشرة كيلو تقريبا.

وكانت هذه الأحداث يوم الأحد السابع والعشرين من شهر رمضان، فلما رأى التتار المنهزمون أن المسلمين خلفهم ولن يتركوهم فإنهم وراءهم من حين خرجوا من عين جالوت، تذامروا فيما بينهم وعلموا أنهم مأخوذون، وأن المسلمين لن يتروكهم، فجمعوا صفوفهم، واستعدوا لقتال جديد، فلما أدركهم المسلمون تفاجؤوا بالتتار قد رتبوا الصفوف، واستعدوا للقتال، فعادت المعركة عودا على بدء، لكنها كانت معركة من طراز آخر معركة حياة أو موت، معركة أشد من معركة عين جالوت حتى كاد الأمر أن ينعكس، وقاتل التتار قتال المستميت، فإنهم لما تأكد لهم عدم ترك المسلمين لهم رأوا أن يموتوا وهم يقاتلون أفضل من أن يموتوا وهم منهزمون، فلذلك قرروا القتال إلى آخر نفس، فلاقى المسلمون منهم شدة، وكاد المسلمون أن ينهزموا وكادت الأمور أن تنعكس ويسلب من المسلمين النصر، لولا لطف الله تعالى بهم، فلما رأى ذلك السلطان قطز جعل يصيح بالمسلمين ويحرضهم على القتال ونزل عن فرسه، وخر ساجدا لله يدعو الله ويستغيث به، ثم صعد على فرسه، ورمى بخوذته إلى الأرض، وشهر سيفه وجعل ينادي بتلك المقولة الشهيرة :

وا إسلاماه! ... وا إسلاماه!.

أي انصروا الإسلام لا تنصروني، فمن ينصر الدين إذا لم تنصروه أنتم، فأنتم أمل المسلمين الأخير بعد الله، فجعل يصيح بأعلى صوته، ويكرر: وا إسلاماه!

وا إسلاماه! ويدعوا قائلا: اللهم أنصر عبدك قطز، فلما رآه المسلمون على هذا الحال يناديهم، ويصرخ بهم لنصرة الإسلام آثار هذا الكلام حفائظ المسلمين، وثابت إليهم أرواحهم، واستجمعوا قواهم، وانطلقوا يقاتلون كأشد القتال، ومعهم سلطانهم المظفر قطز رحمه الله، وتجمع سائر الأمراء حوله، وانطلقوا يقاتلون قتالا مستميتا حتى أنزل الله تعالى نصره على المسلمين في بيسان، ومنحهم أكتاف الذين كفروا، ومكن لهم من رقابهم ،وتفان التتار في القتال، حتى قتلوا عن آخرهم، وهذا من عجائب هذه المعركة التي قل أن يكون لها نظير في التاريخ فإنه لابد في عامة المعارك أن يكون هناك أسير، أو هارب شارد، ولو أفراد لكن العجيب أن هذا الجيش أُبيد عن بكرة أبيه، ولم يبق منه عين تطرف إلا ما كان من أسرهم لابن كتبغا، فقد جيء به أسيرا إلى قطز فقال له قطز: أهرب أبوك؟ فقال: لا إن أبي لا يفر.

فأمر قطز أن يبحث في القتلى حتى وجدوه، فلما جيء به ورآه ابنه صرخ وبكى، فعلم قطز أنه قد قتل هذا الخبيث الفاجر الذي سفك مئات الآلاف من دماء المسلمين، فخر قطز ساجدا لله يشكر الله على ذلك.

قال ابن كثير رحمه الله: "وَقُتِلَ كَتْبُغَا نُوينَ فِي الْمَعْرَكَةِ، وَأُسِرَ ابْنُهُ، وَكَانَ شَابًّا حَسَنًا، فَأُحْضِرَ بَيْنَ يَدِي الْمُظَفَّرِ قُطُزَ، فَقَالَ لَهُ: أَهَرَبَ أَبُوكَ؟ قَالَ إِنَّهُ لَا يَهْرُبُ، فَطَلَبُوهُ فَوَجَدُوهُ بَيْنَ الْقَتْلَى، فَلَمَّا رَآهُ ابْنُهُ صَرَخَ وَبَكَى، فَلَمَّا تَحَقَّقَهُ الْمُظَفَّرُ قَالَ: نَامَ طَيِّبًا، كَانَ هَذَا سَعَادَةُ التَّتَارِ وَبِقَتْلِهِ ذَهَبَ سَعْدُهُمْ.

وَهَكَذَا كَانَ كَمَا قَالَ، وَلَمْ يُفْلِحُوا بَعْدَهُ أَبَدًا، وَكَانَ قَتْلُهُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ الْخَامِسَ وَالْعِشْرِينَ مِنْ رَمَضَانَ، لَعَنَهُ اللهُ تَعَالَى، وَكَانَ الَّذِي قَتَلَ كَتْبُغَا نُوينَ الْأَمِيرُ جَمَالُ الدِّينِ آقُوشُ الشَّمْسِيُّ، رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى".اهـ

ثم إن السلطان كلف القائد بيبرس مع بعض الكتائب لتصفية تلك الأماكن، وملاحقة الحاميات التتارية في بلاد الشام، ولما وصلت أنباء النصر إلى دمشق وحلب وحمص وحماة، وسائر البلدان في الشام عظم فرح المسلمين بذلك، وثارت فيهم كوامن الشجاعة، وقام كل بلد بقتل من عندهم حامية التتار، وبعض الحاميات من التتار ما إن سمعوا الخبر، حتى فروا على وجوههم إلى العراق وإلى فارس، حيث ملكهم هولاكو مع الجيوش، وطهرت بلاد الشام في غضون أسبوع واحد، ودخل السلطان المظفر قطز مدينة دمشق في اليوم الثلاثين من رمضان واستقبله أهلها استقبال الفاتحين بغاية الاستقبال والحفاوة، ودقة البشائر، وانتشر الخبر في سائر بلاد الإسلام، وأصبح الناس اليوم الثاني في عيد الفطر، فكان عيد الناس عيدان.



باب توما أحد أبواب دمشق القديمة التي دخل منها جيش قطز دمشق عام ٦٥٨هـ

وأما أهل دمشق، فإنهم كانوا قد عانوا من النصارى شدة وإهانة وإذلال، وتدنيس للمساجد، وسب للدين كما تقدم؛ لذلك انطلقوا إلى كنائس النصارى فأخربوها عن بكرة أبيها، ودخلوا كنيسة مريم التي خرج النصارى منها بالصليب، وهي أكبر كنائسهم فأحرقوها ونهبوها وعمدوا إلى رؤوس النصارى الذين قاموا بذلك، فقتلوهم، وكان بعض المسلمين قد بدأ يتعرض لقتل اليهود فنهي عن ذلك؛ لأن اليهود مع خبثهم إلا أنهم لم يظهر منهم شيء من الأذية في تلك الفترة كما حصل من النصارى.

فأدال الله المسلمين على النصارى وعاد للمسلمين الشرف والعزة بالإسلام، وصار بعد ذلك العسر العظيم والبلاء الكبير يسر، وفرج على يد هذا السلطان العظيم المظفر قطز رحمه الله تعالى، والله تعالى يصطفي من عباده من يشاء، وينصر عباده على يد من يشاء.

فتأمل كيف انهزمت الملوك الكبار، وانهزمت السلاطين الأحرار العظام، ودانت بالولاء ونافقت وقاتلت تحت لواء الكفار، ثم ينصر الله المسلمين بالمماليك الذين هم في الأصل عبيد كانوا يُباعون ويُشترون، فلم يزل الله يهيأ لهم أسبابا، حتى وصلت بهم الأمور إلى أن تولوا رتبا عسكرية في الدولة الأيوبية في مصر، ومن ثم وصلوا إلى السلطنة، وصاروا سلاطين بعد أن كانوا عبيدا رقيقا، ونصر الله تعالى بهم الدين، وحصل على أيديهم هذا الفتح العظيم،

وطهرت بلاد الشام كاملة، وكان في نية المظفر قطز أن يواصل فتح بلاد العراق، لكن حصلت أمور حالت دون ذلك.

وجهد التتار جهدهم أن يستوثقوا من بلاد العراق وبلاد فارس، وألا تضيع من أيديهم، فكانت معركة عين جالوت هي المعركة الحاسمة التي وقعت فيها البشارة، وفرج الله تعالى بها عن المسلمين بهذا النصر العظيم، ومن هذه الأحداث وأضرابها يستفيد المسلم دروسا وعبرا، وأنه لابد من فرج وإن طال البلاء، ولابد من مجيء الخير، وإن استفحل الشر وأعرقت جذوره، فإن هذه سنة الله جل وعلا أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا، وبهذا بشر عليه الصلاة والسلام كما في حديث ابن عباس عند أحمد.

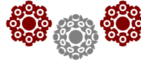
فكانت هذه المعركة من المعارك الخالدة في تاريخ الإسلام؛ لما نتج عنها من فرج عظيم بعد بلاء شديد وعناء كبير؛ لذلك كانت لها مكانتها العظيمة في قلوب المسلمين، ومن خلالها نعلم أيضـًا أن النصر من عند الله، وأن الإنسان إذا صدق النية في جهاد أعداء الله وأعد العدة بما يستطيعه ونظر في عواقب الأمور وسار فيها على مقتضى العلم النافع ودين الحق، واستعان بطاعة الله وإصلاح نفسه ومن حوله فلن يخطئه النصر والسداد بإذن الله، فهو وعد الله الصادق الذي كتبه على نفسه كما قال سبحانه: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:٤٠].

ووقائع التاريخ وأيام الله لأهل الإسلام أكبر شاهد على ذلك، أما في ظل التحايل على الشريعة، والتميع والتشبه بأعداء الله، والبعد عن الله والإعراض عن دين الله، والتفلت عن أحكام الله، والتضييع لفرائض الله، وانتهاك حدود الله وحرماته، ونريد من وراء ذلك نصرا، ونريد من وراء ذلك عزة، فهيهات هيهات، فإنها سنة الله التي لن تجد لها تبديلا، ولن تجد لها تحويلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ٧﴾ [محمد:٧].

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ [النور:٥٥].

فينبغي للمسلم أن يعلم هذا علم اليقين، ويبدأ بإصلاح نفسه، ومن يقدر على إصلاحه من أهله وذويه، وما يدريك قد تكون أنت من يهيئك الله لنصر دينه والمسلمين قد تفرج كربة عن مؤمن من المؤمنين بسبب صلاحك، قد يجعل الله تعالى مع الأيام نصرا على يديك، فلا تستبعد شيئا، فليس هناك شيء مستحيل على الله جل وعلا: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ [يس:٨٢].



التتار بعد عين جالوت

بعد ما حصل للتتار في معركة عين جالوت من الكسرة العظيمة، من بعد أن عاثوا فسادا عظيما خلال قرابة أربعين سنة، وبعد أن قتلوا الملايين من أهل الإسلام ومن غيرهم، فكانت نهايتهم تلك الكسرة العظيمة التي لم يعودوا بعدها إلى مثل قوتهم السابقة، والعجيب أن كثيرا من المتكلمين حول أمر التتار ومن يكتب في التتار وتاريخهم وقصة خروجهم أغلبهم يقفون عند معركة عين جالوت، حتى يخيل للقارئ أن التتار قد انتهى أمرهم بعد عين جالوت، ولم يبق لهم أثر ولا بقية وانتهى وجودهم تماما، وهذا خطأ كبير تسرب إلى كثير من الناس، بل إلى بعض طلبة العلم والدعاة وذلك بسبب اغفال عامة المؤرخين المعاصرين عما آل إليه حال التتار بعد عين جالوت.

والناظر في كتب التاريخ المتقدمة ممن عاصرهم أو كان قريبا من زمنهم، يجد الأمر بخلاف ذلك تماما، فإنهم وإن انكسرت شوكتهم، وأُخرجوا من بلاد الشام، إلا أنهم استمروا في بلاد العراق وفارس، وما وراء ذلك من بلاد المشرق الإسلامي، وأقاموا لهم دولة في تلك البلدان وحصل بينهم وبين المسلمين أمور وأحداث، لكن تعُد لهم تلك القوة التي كانت في بدء أمرهم.

فهم وإن تقلص نفوذهم ولكن أيضًا بقي لهم نفوذ في جملة واسعة من بلاد الإسلام، وإنما استطاع المماليك بقيادة المظفر قطز رحمه الله أن يوقفوا تمدد التتار، وأن يخرجوهم من بلاد الشام، ويقفوا تمددهم وانسياحهم في بلاد مصر والمغرب واليمن والحجاز، فصار العالم الإسلامي على قسمين قسم يحكمه المماليك، وقسم يحكمه التتار، فكانت الشام ومصر والمغرب وما تبقى من بلاد الأندلس وما انضم إلى المسلمين من بلاد أواسط إفريقيا واليمن والحجاز هذه كانت بلاد إسلامية يحكمها المسلمون، وأغلبها في نفوذ المماليك، إلا ما كان من بلاد المغرب وبلاد الأندلس، فقد تعاقبت عليها عدة دول سأتطرق إلى ذلك إن شاء الله في بحث مستقل.

وأما بلاد العراق وبلاد فارس وبلاد خراسان إلى ما وراء النهر إلى حدود الصين، فقد ظلت بيد التتار مع أجزاء من بلاد الأناضول تركيا حاليا، فصار العالم الإسلامي على هذا التقسيم قسم يحكمه المسلمون، وقسم يحكمه التتار.



محاولة التتار العودة إلى الشام

لما انتصر المسلمون في عين جالوت، واستطاعوا إخراج التتار من بلاد الشام تماما، وأمنت بلاد مصر، وأيضا بسط المماليك نفوذهم على بلاد الحجاز وبلاد اليمن، واستقرت الأوضاع نسبيا، إلا أن التتار حاولوا بعد معركة عين جالوت بسنة أن يأخذوا حلب، وساروا بجيش إلى حلب، وأرادوا أن يستعيدوا بلاد الشام مرة أخرى، وحاولوا حصارها، لكن السلطان بيبرس ومن معه من جنوده، وأمراء المماليك خرجوا إليهم، واستطاعوا أن يطردوهم عن بلاد الشام، ويقصوهم فأيس التتار من بلاد الشام، واستقر أمرهم في بلاد العراق وما وراءها.



تبريز إيران

وأما هولاكو فإنه كان قد استقر بـ(تبريز) من بلاد فارس، وجعل نوابا له على بقية البلدان، وصار المسلمون في تلك البلاد تحت حكم التتار، ولم يقم المماليك بملاحقة التتار، ومحاولة تطهير بلاد الإسلام الواسعة من جهة الشرق، وكذلك التتار لم تعد عندهم تلك القوة التى يستطيعون اجتياح بلاد

الشام بها، ومع ذلك فقد كانت تحصل بين الحين والآخر بعض المعارك، وبعض المناوشات، وبعض اللقاء في معارك صغيرة وكبيرة أحيانا بين المسلمين بقيادة المماليك، وبين التتار بقيادة هولاكو، ومن جاء بعده.

- **فعلى سبيل المثال والسرد السريع:**

كانت معركة عين جالوت في رمضان سنة تسعة وخمسين وستمائة للهجرة كما تقدم، وبعدها بسنة تماما في أوائل سنة ستين وستمائة للهجرة وبالتحديد في شهر الله المحرم حصلت حادثة مؤلمة، وخلاصتها أن التتار في سنة ستة وخمسين، حين دخلوا بغداد قتلوا الخليفة العباسي وجميع عائلته كما تقدم، إلا أن بعض أفراد السلالة العباسية استطاع أن يختفي في بعض الأماكن، ومن ثم تمكن أن يخرج من بغداد بعد أن تركها التتار، فلما انهزم المغول في عين جالوت، واستقام أمر المسلمين في مصر والشام قدم هذا العباسي إلى مصر، وأثبت نسبه وتأكد السلطان من صحة نسبه، وأنه من أحفاد العباسيين، فقام السلطان المملوكي ونصبه خليفة على المسلمين بعد أن مضت ثلاث سنوات والمسلمين بدون خليفة، فنصبوه خليفة، ولقبوه بالمستنصر بالله.

ثم قام الظاهر بيبرس، وهو السلطان حينئذ وجهزه أحسن جهاز حتى ذكر ابن كثير أنه أنفق في جهازه ألف ألف دينار، وهذا مبلغ كبير جدا يعني مليون دينار ذهبي كل ذلك في تجهيزه، وأعد له الجيوش ليرجع بهم إلى بغداد، ويحرر العراق، ويرجع إلى عاصمة الخلافة الإسلامية، ولما علم التتار أن السلطان قد

نصب خليفة، وجهزه لغزوهم وأمده بالجيوش، بدأوا بالتوغل في شمال العراق، وكانت أول بلدة توغلوا فيها كردة فعل على ما حصل عليهم في عين جالوت هي مدينة الأنبار، وهي مقاطعة كبيرة، وهي أكبر محافظات العراق حاليـًا، فدخلوا مدينة الأنبار، ولم يكن بها جيش للمماليك، فحاول أهلها أن يقاوموا بعض المقاومة لكن لا جيش لديهم، فدخلها التتار في عام ستين وستمائة في شهر الله المحرم ، وأفسدوا في هذه البلدة فساداً عظيمـًا، وقتلوا كل من فيها تقريبـًا وأحرقوا ما أحرقوا ونهبوا ما نهبوا، ثم واصلوا الزحف باتجاه الشمال إلى الموصل.


راية الأتابكة

وكانت **(الموصل)** يحكمها بقية الأتابكة، وكان عليها رجل يقال له إسماعيل لؤلؤ، وهو آخر ملوك الأتابكة على الموصل، فوصلوا إلى الموصل، وضربوا عليها حصارا خانقا، وبعد أن حاصروها مدة، وأخذوا بعض أسوارها ثم لم يزالوا بأميرها حتى استنزلوه وأوهموه أنهم سيؤمنوه، وأرسلوا كتابـًا لأهل البلد بالأمان، فاغتر بهم ذلك الأمير، وهو يعلم غدرهم، وأنه ليس لهم عدل ولا ميثاق، فقد فعلوا ذلك بالخليفة، وفعلوا ذلك بغيرها من البلدان إلا أنَّ الأمر قد

اشتد عليهم لطول الحصار، وعدم وصول أي نجدة، فنزل على حكمهم، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

فنودي في **(الموصل)** بالأمان، وقرئ كتاب الأمان من قبل التتار، ونزل إليهم الأمير إسماعيل على أساس أنهم قد أمنوه، فلما نزل إليهم قيدوه ورموه في السجن، ثم قتلوه بعد مدة في نفس السنة، ودخلوا البلاد والناس قد أمنوا لما قرئ عليهم كتاب الأمان، فإذا بهم يفتكون بأهلها في تسعة أيام نحس، وهم يقتلون ويحرقون وينهبون، حتى أتلفوا أكثر محاسن البلد، وقتلوا فيها ما لا يعلمه إلا الله.

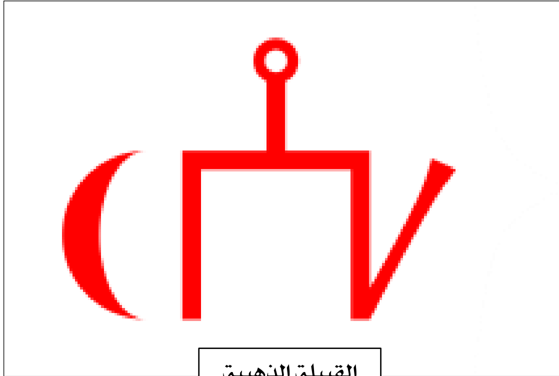
قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى: ولم ينج منهم إلا من اختبأ في المغارات في الجبال، أو في السراديب والأنفاق، وما شابه ذلك، واشتد أمرهم


الموصل- العراق

في إحراق الجوامع، والمدارس الحديثية والفقهية، ودور الأمراء والسلاطين، واستمروا تسعة أيام على هذا الحال، ثم بلغهم أن السلطان قد خرج بجيش، وهو في الطريق، فخرجوا عندئذ من الموصل، ورجعوا إلى الأنبار وبغداد، لكن بعد أن تركوا مدينة الموصل خراباً يباباً والله المستعان.

[اختلاف المغول فيما بينهم ونهاية هولاكو لعنه الله]

ثم شاء الله جل وعلا أن تنقلب الموازين بطريقة أخرى في أواخر سنة ستمائة وستين هجرية حيث كان لهولاكو ابن عم، وهو زعيم ما يسمى بـ(**القبيلة الذهبية**) للتتر القفجاق، وهي القبيلة الذهبية للتتر، وقد دخلوا في الإسلام بعد ذلك واسمه (**بركة خان**) أي خان المغول، وهو من كبار أمرائهم، وكان الأمر بينه وبين هولاكو.



القبيلة الذهبية

وهو يعتبر في مرتبة هولاكو، وإن كان هولاكو هو الذي له الأمر في بلاد المشرق؛ لأنه هو الذي قام بالاستيلاء عليها، وكانت عادة ملوكهم أن الملوك الذين هم في رتبة واحدة، إذا حصل لواحد منهم معارك، وانتصر فيها وغنم غنائم لا بد أن يعطي منها نصيباً وافراً للملك الآخر الذي يكون معه على تلك

البلاد، فأرسل بركة ابن عمه ابن تولي بن جنكيز خان إلى هولاكو يطلب منه نصيبه من الغنائم على العادة، فغضب هولاكو من ذلك، وامتنع من إعطائه، وخالف العادات والأعراف التي كانت عندهم، ولم يكتف بالرفض بل قام، وقتل أولئك الرسل الذين أرسلهم ابن عمه بركة خان، فلما علم بذلك بركة خان أخذ جيوشه، وانطلق لمقاتلة هولاكو، وذلك في أواخر سنة ستين وستمائة.

وبداية سنة إحدى وستين وستمائة للهجرة، والتقى معه في بعض بلاد فارس على القرب من أذربيجان حاليًا، وحصلت معركة كبيرة بين المغول أنفسهم، وهي أول معركة يقتتل المغول فيها مع بعضهم، وهذا لشيء أراده الله جل وعلا من التخفيف على أهل الإسلام، فوقعت بينهما معركة كبيرة جداً، انتهت بهزيمة هولاكو، وقتل ولده وتفرّق عسكره وقتل منهم أعداد كثيرة، حتى صاروا كالتلال في أرض المعركة، وفر هولاكو بطائفة يسيرة ممن معه من مرافقيه، واستطاع أن يفر عبر البحر ويلجأ إلى قلعة داخل بحيرة في أذربيجان، واستمر بها حتى مات بعد ذلك بثلاث سنوات.

[اسلام بركة خان]

واستتب الأمر لبركة خان، فقام في نفس السنة بعد أن انتصر على ابن عمه هولاكو، وكسره كسرة لم تقم له بعدها قائمة، وصار ملك التتار تحت يده في بلاد المشرق.

وأراد الله تعالى لهذا الرجل خيراً، فلم يزل يتعرف على دين الإسلام حتى قذف الله في قلبه الإسلام، ودخل في الإسلام في هذه السنة في سنة إحدى وستين، وقيل إنه كان قد أسلم في سنة ستين قبل قتاله لهولاكو، وهذا الذي يذكره أكثر المؤرخين، وإنما قاتل هولاكو بعد أن دخل في الإسلام، ولذلك نصره الله تعالى عليه، ولما أسلم دخل في الإسلام معه جملة من التتار؛ لكن لم يسلموا كلهم، وانشقت عنه جماعات من التتار؛ احتجاجا لدخوله في الإسلام، وتوغلوا في بلاد خراسان وبعض بلاد الأناضول، وصاروا يبايعون بعض أبناء هولاكو، وكان له ثلاثة من الأبناء: (**مِنْكُوتُمُر**)، وَ(**أَبْغَا**)، وَ(**تُوغَاي**).

وبايع كل واحد منهم جماعة؛ لكن أكثر التتار كانوا في طاعة (**بركة خان**)، وإن كانوا لم يسلموا كلهم إنما أسلم جماعة كثير منهم.

فلما أسلم بركة خان ملك التتار في العراق وبلاد المشرق وخراسان وكان إسلامه في أواخر سنة ستمائة وستين، أو واحد وستين، على خلاف في ذلك بين المؤرخين، أرسل إلى سلطان المماليك في مصر يبشره بإسلامه، ويطلب منه الهدنة والصلح، وأنهم قد صاروا جميعا مسلمين، فلا ينبغي أن يقاتل بعضهم بعضا، وأن تتوحد صفوفهم ضد الصليبيين، وأرسل إليه بعض الأمراء من التتار، فحصل الفرح العظيم في بلاد الإسلام، وهدأت الأمور نسبيًا، وصار ملك التتار المسلم يحكم أكثر بلاد المشرق، وملوك المماليك المسلمين يحكمون بلاد

مصر والشام وغيرها من بلاد الإسلام، واستمر الحال على هذا إلى سنة ستمائة وثلاثة وستين.

[هلاك هولاكو وغارة أحد أبنائه على الشام]

ثم في سنة ستمائة وثلاثة وستين هلك هولاكو اللعين في قلعته في الجزيرة وانتهى أمره مخلفا تاريخا أسود فيه كل قبيحة.

ثم قام بعض أولاد هولاكو، وجهز جيشا من الذين امتنعوا من الدخول في طاعة بركة خان، وبدأ بمهاجمة بعض أطراف بلاد الشام من جهة الأناضول تركيا حاليا، وقام سلاطين المماليك بالتصدي لهم، فبدأت المعارك بين كفرة التتار، وبين المسلمين المماليك.

ثم إن كفرة التتار توجهوا بجيوشهم نحو منطقة في بلاد الشام يقال لها (**الْبِيرَة**)، و(**الْبِيرَة**) الآن تقع في مدينة رام الله في الضفة الغربية، وتبعد عن القدس قرابة خمسة عشركيلا إلى الشمال فحاصروها، وكانت تعتبر من قلاع المسلمين في بلاد الشام، وضربوا عليها حصارا خانقا، فلما علم السلطان بذلك تحرك وجمع الجيوش، وتحرك من مصر، وأرسل إلى بعض الأمراء في الشام أن يقوموا بنجدة إخوانهم في البيرة؛ لأن الشام أقرب إليهم، فتحرك (**المنصور أمير**) حماة بجيوشه.

فلما رأى التتار أن جيوش المسلمين قد أقبلت قذف الله في قلوبهم الرعب، ورجعوا خائبين، وقاموا بتكسير مناجيقهم، وأغرقوا بعض مراكبهم، ورجعوا متوغلين في بلاد الأناضول، وتركوا حصار البيرة، وكفى الله المسلمين شرهم.

لكن السلطان كان قد خرج من مصر، ووصل إلى نصف الطريق وقد دخل في بعض بلاد الشام من جهة غزة، فجاءته الأخبار بأن التتار لما رأوا جيش حماة قد أقبل، فكوا الحصار وانطلقوا إلى بلادهم.

فقام السلطان وأمر جميع الأمراء في الشام بتحصين البيرة، وبناء أسوارها وحفر ما تهدم من خندقها، حتى كان الأمراء يحملون الحجارة على أكتافهم، وجعل فيها ما يكفي من الأقوات والذخائر والسلاح؛ تحسبا لأي طارئ آخر لأنها تعتبر من أهم الثغور في بلاد الشام من تلك الجهة.

[وفاة بركة خان رحمه الله وتولي ابن أخيه الملك]

ثم هدأت الأمور، حتى كانت سنة خمس وستين وستمائة للهجرة، توفي أول ملوك التتار إسلاما (**بركة خان ابن تولي بن جنكيز خان**)، وسبحان الله كم أفسد آباؤه وجده جنكيز خان، وكم قتلوا من الأبرياء، ثم صار هذا الرجل من أهل الإسلام، وممن ينصر المسلمين، بل كان من خيار الملوك بعد أن دخل في الإسلام، فأبطل المكوس، وهدم كثيرا من الكنائس، وأقام الجمع والجماعات، وكان كما قال الحافظ ابن كثير يحب العلماء والصالحين، وكانت له مآثر

حسنة، لو لم يكن من مآثره ومحاسنه، إلا ما قام به من كسر هولاكو تلك الكسرة التي مات بعدها غما وكمدا، وانتقم للمسلمين منه.

ولما مات لم يكن له أبناء، فجعل الملك في أحفاد أخيه **(باجو بن تولي)** في رجل منهم يُقال له: **(منكوتمر)**، وهو غير منكوتمر بن هولاكو ابن عمه، فهذا منكوتمر ابن أخيه باجو بن تولي بن جنكيز خان، فأوصى له بالملك، وكان رجلا صالحا على طريقة عمه رحمه الله، وفي تلك السنوات سلم المسلمون من شرور كثيرة، إلا ما كان يحصل من بعض الغارات من كفرة التتار، الذين كانوا يهجمون من بعض جهات الأناضول بين الحين والآخر؛ لكنها هجمات ضعيفة سرعان ما تتصدى لها جيوش الإسلام بقيادة المماليك.

ثم لما كانت سنة ستمائة وخمسة وسبعين عاد كفرة التتار مرة أخرى لحصار البيرة، وضربوا عليها حصارا خانقا، وخرج السلطان الظاهر بيبرس من مصر، وأرسل إلى الأمراء في الشام؛ لكن التتار لما رأوا هذه المدينة قد أُحكمت أسوارها وتحصيناتها، رجعوا خائبين بعد أيام من الحصار، ثم عادوا مرة أخرى سنة ستمائة وثمانين؛ لكن هذه المرة لمحاصرة حلب، فلما وصلوا إلى ظاهر حلب شرعوا في حصارها، وجاءت الأخبار إلى الشام بأن التتار قد زحفوا بأعداد كبيرة، وبدأت الأراجيف والشائعات حتى دب الرعب في الناس، وكان في حلب من عسكر أهل الإسلام جملة كبيرة يستطيعون بعون الله القتال والمواجهة؛ لكن الأخبار جاءتهم أن التتار قد هجموا على بعض ضواحي حلب

كعنتاب وغيرها، وقد أخذوها وأفسدوا فيها، وقتلوا أهلها ونهبوا وأحرقوا الزروع، فعندئذ دب الرعب في عسكر حلب، وخرجوا فارين على وجوههم إلى أماكن شتى، فمنهم من فر إلى دمشق، ومنهم من ذهب إلى مصر وهكذا.

فاشتد الحال على الناس، فجاء التتار في سنة ستمائة وثمانين، ودخلوا حلب، وهي خاوية من المقاتلة، فدخلوها وأفسدوا فيها بالقتل والحرق والنهب على عادتهم، ثم جاءتهم الأخبار بأن سلطان المماليك قد خرج من مصر، وقد صار في غزة على مقربة منهم، فلم يجترئوا على انتظاره ومواجهته، فخرجوا من حلب بعد أن عاثوا فيها فسادا في الدماء والأموال، فعادوا من حيث أتوا متوغلين في شمال الأناضول، فلما علم السلطان أنهم قد رجعوا وتركوا حلب، أرسل بعض الأمراء من قبله لِإصلاح الحال في المدينة المنكوبة، ثم رجع إلى مصر مرة أخرى، واستمر الحال على هذا بين المسلمين، وبين كفرة التتار غارات ومناوشات، ومعارك يسيرة بين فترة وأخرى.

[هلاك ابن هولاكو أبغا]

ثم إن أبغا بن هولاكو هلك كافرا مقيتا لعنه الله، وأوصى بالملك بعده لأخ له يدعى (**تكدار**) وذلك سنة ثمانين وستمائة، ثم إن تكدار الملك الجديد للتتر رغب في الإسلام، وأعجب به فأسلم، فلما دخل في الإسلام أسلم معه عدد كثير من التتار، والبقية منهم استمروا على كفرهم وانحازوا عنه، ولم يرضوا

بمتابعته، ولم يرتضوه ملكا، وكان منهم ابن أخيه **(أرغون بن أبغا ابن الملك)** السابق فانحاز بمن كفر إلى الأناضول.

أما تكدار هذا، فإنه لما أعلن إسلامه غير اسمه المغولي إلى اسم عربي، فسمى نفسه **(أحمد)**، وتلقب بالسلطان أي أنه في طاعة الخليفة، وأنه من جملة سلاطين المسلمين، وأرسل إلى سلطان المماليك **(قلاوون)** يطلب الصلح والاجتماع، وكف القتال بينهم، فدقت بذلك البشائر وفرح المسلمون؛ لأنهم سلموا من شر كبير بإسلام هذه الطائفة من التتار، ولله في خلقه وأمره أسرار وحكم.

وتأمل أيها القارئ الكريم كيف تتبدل الأحوال، ويقلب الله قلوب عباده على مقتضى حكمته، كيف صار من يحارب المسلمين، ويريد هدم دينهم يتحول، فجأة للدفاع عنهم ونشر دينهم، فسبحان مقلب القلوب.

﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [سورة فاطر:٤٣].

من أول ما دخلت التتار بلاد الإسلام منذ سنة سبعة عشرة وستمائة، وما بعدها إلى حين دخولهم إلى بغداد، كان النصارى برئاسة البابا قد قاموا بعدة مراسلات لملوك التتار، بدأً من جنكيز خان ومن بعده، وهم يحاولون أن يستميلوهم ويدعوهم للدخول إلى النصرانية، وكان النصارى يتخوفون من أن التتار إذا دخلوا بلاد الإسلام وعاشروا المسلمين يتأثرون بأخلاق المسلمين ومعاملتهم وشعائر دينهم، فيدخلون في الإسلام كما حصل من الترك قبل ذلك،

فإن الأتراك حاربوا المسلمين مدة وحصل منهم بلاء كبير على أهل الإسلام، فلما اختلطوا بالمسلمين دخلوا في الإسلام، وصاروا بعد ذلك لمدة من الزمن هم حماة الإسلام، وأذاقوا النصارى الويلات، وفتحوا الفتوحات في بلاد الروم وغيرها، بدأ من الدولة الغزنوية، ثم الدولة السلجوقية، ثم الغورية، وبعدها الخوارزمية، ثم الدولة العثمانية، فكان خوف النصارى أن يحصل للتتر كما حصل للترك، من أنهم إذا اختلطوا بالمسلمين دخلوا في الإسلام.

فتتوحد القوى ضد النصرانية؛ لذلك راسلوهم عدة مراسلات، وقاموا بعدة محاولات في دعوتهم إلى النصرانية؛ ليكسبوهم إلى صفهم، ويتحدون معا للقضاء على الإسلام وأهله ولكنهم لم يلقوا استجابة تذكر إلا من بعض الأمراء الذين لم يكن لهم كبير شأن، وإن كان قد دخل بعض التتار في النصرانية، فوقع ما كانوا يخشونه، وصار أمراء التتار واحدا بعد آخر يدخلون في الإسلام، فكان لهذا أثر عظيم، وخف الشر كثيرا عن أهل الإسلام، إلا أن هذا الأمر لم يدم طويلا، فإن السلطان أحمد هذا أسلم في سنة ستمائة وثمانين، فما انقضت إلا سنتان، حتى تآمر عليه من لم يرض إسلامه من بعض الأمراء، ومعهم ابن أخيه **(أرغون بن أبغا)**، فخرجوا عليه، وانضم إليهم من شايعهم على الكفر، وتحركوا لقتال السلطان أحمد، وجرت بينهم معركة انتهت بنصر من الله للسلطان أحمد رحمه الله، واستطاع أن يأسر ابن أخيه أرغون، ورمى به في

السجن، فقامت بعض الخواتين من نساء وأخوات الملوك والأمراء التتار، وسألن الملك تكدار أحمد في الإفراج عنه وتوليته خراسان، فلم يرض بذلك.

وكانت المغول قد تغيرت على تكدار، لكونه دخل في دين الإسلام وإلزامه لهم بالإسلام، فثاروا وأخرجوا أرغون من الاعتقال، وطرقوا (**ألناق**) نائب تكدار ليقتلوه ففر منهم، فأدركوه وقتلوا تكدار أيضـًا في العام التالي.

وأقاموا (**أرغون بن أبغا**) ملكا، فولى أرغون وزارته سعد الدولة اليهودي، وولى ولديه خربندا، وقازان خراسان، وكان أرغون هذا كافرا لعينا، وزيادة على ما عنده من الشر وما هو عليه من الديانه الباطلة، فقد اعتنق بعد توليه بسنتين سنة أربعة وثمانين وستمائة البوذية، وأعلنها دينا للتتر ،وصار المسلمون التتار، والمسلمون العرب والعجم في حالة سيئة في تلك البلاد التى يحكمها هذا الرجل، وجاءت إليه وفود التتار الكافرة الذين انحازوا، ولم يدخلوا في الإسلام، فصار من أشد ملوك التتار، بعد فترة نسبية من الهدوء على المسلمين.

ثم إن هذا اللعين، وبعد مدة من ولايته، قام بمراسلة بابا النصارى يطلب منه أن تتوحد جيوشهم لقتال المسلمين؛ لكن كانت النصرانية في ذلك الحين في بلاد أوروبا تمر بأوضاع مضطربة وخلافات ونزاعات بين الممالك، فلم يرد له بابا النصارى جوابا، واستمر هو في مناوشات المسلمين والهجوم على بعض البلدان في بلاد الشام وفي شمالها، تارة على هذا الحال بين الحين والآخر، إلى أن أهلكه الله مسموما سنة تسعين وستمائة.

قال ابن كثير: "فَلَمَّا كَانَ فِي هَذِهِ السَّنَةِ مَاتَ مِنْ شَرَابٍ شَرِبَهُ فِيهِ سُمٌّ، فَاتَّهَمَتِ الْمَغُولُ الْيَهُودَ بِهِ – وَكَانَ وَزِيرُهُ سَعْدُ الدَّوْلَةِ بْنُ الصَّيْفِيِّ يَهُودِيًّا – فَقَتَلُوا مِنَ الْيَهُودِ خَلْقًا كَثِيرًا، وَنَهَبُوا مِنْهُمْ أَمْوَالًا عَظِيمَةً جِدًّا فِي جَمِيعِ مَدَائِنِ الْعِرَاقِ، ثُمَّ اخْتَلَفُوا فِيمَنْ يُقِيمُونَهُ بَعْدَهُ، فَمَالَتْ طَائِفَةٌ إِلَى كَيْخَتُو، فَأَجْلَسُوهُ عَلَى سَرِيرِ الْمَمْلَكَةِ، فَبَقِيَ مُدَّةً، قِيلَ: سَنَةً. وَقِيلَ: أَقَلُّ مِنْ ذَلِكَ. ثُمَّ قَتَلُوهُ وَمَلَّكُوا بَعْدَهُ بَيْدَرَا، وَجَاءَ الْخَبَرُ بِوَفَاةِ أَرْغُوَنَ إِلَى الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ وَهُوَ مُحَاصِرٌ عَكَّا، فَفَرِحَ بِذَلِكَ كَثِيرًا، وَكَانَتْ مُدَّةُ مُلْكِ أَرْغُوَنَ ثَمَانِ سِنِينَ".اهـ

قلت: وتقدم أنه جعل رجلا يهوديا وزيرا لدولته، ولقبه بـ**(سعد الدولة)**، فلما مات أرغون، وقرر الأطباء أنه مات مسموما توجهت التهمة إلى اليهود، وطارت هذه الشائعة بأن اليهود هم الذين سموه بتواطؤ من الوزير اليهودي، فصدق الناس هذه الشائعة، واستقر في نفوسهم أن هذا من فعل اليهود، فانطلق أمراء التتار وجيوش التتار، يفتكون باليهود في مملكتهم، فقتلوا هذا الوزير وأهل ملته، حتى في معابدهم وفي بيوتهم، وكان اليهود أصحاب تجارة ،فقتلوا منهم خلائق لا يحصون في سائر مملكة التتار لا سيما في بلاد العراق، وأخذوا من أموالهم ما لا يحصى كثرة، ونزلت باليهود بلية عظيمة جزاءً وفاقا، فإنه لما كان الوزير منهم وكان لهم سلطة وملك تفننوا في أذية المسلمين ، واليهود عليهم لعائن الله هذه

عادتهم إذا كانوا مستضعفين يظهرون المسكنة، وإذا صارت لهم دولة وقوة يظهرون العداء لأهل الإسلام، ولمن خالفهم.

[تولي قازان حكم المغول وإسلامه]

ثم لما مات أرغون تولى الملك بعده **(كيختو)** أحد أبناء عمه، ثم قتلوه وولوا مكانه رجل يقال له **(بيدرا)**، ولم يستمر إلا سنتين، وإذا بأحد أبناء أرغون وهو **(قازان)** ينطق بالقاف والغين يقال قازان ويقال غازان، وقد كان لأرغون الذي مات مسموما ولدان، أحدهما يقال له **(خربندة)**، والآخر يقال له **(قازان)**، ويقال غازان، فلما تولى أحد أبناء عمومتهم الملك خرج عليه قازان، وقاتله وانتصر عليه في أواخر سنة أربع وتسعين وستمائة هجرية، وتملك على التتار، ثم إنه بعد تملكه بمدة يسيرة، وفي نفس السنة في سنة أربع وتسعين وستمائة، يسر الله جل وعلا أن دخل ملك التتار قازان الإسلام وأعلن إسلامه.

وكان يومـًا مشهوداً في بلاد العراق، ونثر على الناس الذهب والفضة بمناسبة إسلامه، وكان يومـًا مشهوداً.

قال ابن كثير رحمه الله: "وَفِيهَا مَلَكَ التَّتَرَ قَازَانُ بْنُ أَرْغُونَ بْنِ أَبْغَا بْنِ تُولَى بْنِ جَنْكِزْخَانَ، فَأَسْلَمَ وَأَظْهَرَ الْإِسْلَامَ عَلَى يَدِ الْأَمِيرِ نَوْرُوزَ، رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى، وَدَخَلَتِ التَّتَرُ أَوْ أَكْثَرُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ، وَنَثَرَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَاللُّؤْلُؤَ عَلَى رُءُوسِ النَّاسِ يَوْمَ إِسْلَامِهِ، وَتَسَمَّى بِمَحْمُودٍ، وَشَهِدَ الْجُمُعَةَ وَالْخُطْبَةَ، وَخَرَّبَ كَنَائِسَ

كَثِيرَةً، وَضَرَبَ عَلَيْهِمُ الْجِزْيَةَ، وَرَدَّ مَظَالِمَ كَثِيرَةً بِبَغْدَادَ وَغَيْرِهَا مِنَ الْبِلَادِ، وَظَهَرَتِ السُّبَحُ وَالْهَيَاكِلُ مَعَ التَّتَرِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ".اهـ

وهذه أمور يسيرها الله جل وعلا، فكلما اشتد البلاء جاء الله بالفرج، وأخرب كثير من الكنائس في بلاد العراق، وجعل يرغب في الإسلام، ويحث على نشرة، وضرب الجزية على اليهود والنصارى، وأرسل إلى سلطان المماليك بالصلح والهدنة، وأننا كلنا أهل الإسلام، وأن تتوقف بينهم الحروب، وحصل بذلك خير عظيم وأمن الناس.

إلا أن الأمر لم يدم طويلاً؛ لما كان شائعا من البلية العظيمة التي كانت عند سلاطين المسلمين في تلك الفترة، من بداية القرن الرابع الهجري إلى أن انتهت الخلافة العباسية، وما بعدها من السلطنات، حيث كان ملوك الإسلام ينزغ الشيطان بينهم، فبينما كل سلطنة لها حدودها وملكها، وهم قارون آمنون، إذ بالأطماع التوسعية تظهر عند بعض الملوك بين حين، وآخر فيقتتلون بينهم وكل يريد التوسع على حساب الآخر، وينزغ بينهم الشيطان فيتقاتلون بينهم، حتى يصل الحال أحيانا أن يتقاتل أبناء السلطنة الواحدة مع بعضهم بعضا بل الأخ مع أخيه.

فكانت هذه الأحداث من الأشياء المؤسفة جدًا، ومن الأمور المخزية في تاريخ سلطنات المسلمين، سواء في أواخر دولة السلاجقة، أو أواخر دولة

المماليك، وقبل ذلك أواخر الدولة الأيوبية وغيرهن من السلطنات وإلى الله المشتكى.

وكان يحصل قتال بين الملوك بعضهم مع بعض، حتى وصل الحال بين الأمراء والملوك أن يقاتل الأخ أخاه، بل ويقاتل أباه والأب يقاتل ابنه من أجل الملك والتوسع، فاستمر الحال هادئـًا نسبيـًا، وأمنت بلاد الإسلام إلى سنة تسع وتسعين وستمائة قرابةخمس سنوات من تولي قازان، ودخوله في الإسلام والأمور على أحسن ما يكون من الهدوء، وسلامة الأرواح، وصيانة دماء المسلمين.

ثم نزغ الشيطان، وبدأت الأمور والمماحكات، والخلافات بين سلطان العراق التتري المسلم، وبين سلطان المماليك محمد بن قلاوون الصالحي سلطان المماليك في مصر، حتى احتدم الخلاف، وخرج هذا بجيشه وهذا بجيشه، والتقوا على أطراف بلاد الشام في موقعة سلمية، وحصل بينهم قتال وجرت معركة شديدة في سنة ستمائة وتسعة وتسعين، كان النصر فيها من نصيب مسلمي التتار بقيادة السلطان محمود **(قازان)**، فرجعت فلول المنهزمين السلطان، ومن معه ووقعت الأراجيف في بلاد الشام، وبعضهم بدأ يرحل بأهله وأولاده وماله؛ لأن الناس اعتادوا أن التتار إذا دخلوا مكانـًا عاثوا فيه فسادا، وقتلوا أهله وأحرقوا ونهبوا وفحشوا وفجروا، فبدأ بعضهم بالفرار.

ثم جاءت الأخبار بأن هؤلاء التتار الذين قاتلهم السلطان ليسوا كفارًا، وإنما هم تتر مسلمون، فلما وصلت هذه الأخبار إلى دمشق أمن الناس، ثم إن شيخ الإسلام ابن تيمية -وكان ذلك في زمنه رحمه الله تعالى- خرج بمجموعة من وجهاء بلاد الشام، وانطلق إلى قازان ونصحه نصيحة بليغة، وجعل يقول له: كيف تقول بأنك مسلم، وأنت تقتل المسلمين؟!

وجعل يبالغ في النصيحة، ويزجره زجراً بليغـاً، حتى خاف الذين خرجوا مع شيخ الإسلام من العلماء والفقهاء على شيخ الإسلام أن يقتله قازان؛ لأنه كان ينصحه بقوة ويبالغ في موعظته وتذكيره بالله، وإذا بالسلطان التتري يسمع لشيخ الإسلام، ثم إن شيخ الإسلام أخبره أن الناس في خوف وهلع منكم، ومن جيوشكم، وأنتم تريدون تدخلون دمشق، فلم يزل به حتى بعث كتاب أمان ينادى به في دمشق أن الناس آمنون على أرواحهم وعلى ممتلكاتهم، فقرئ هذا الكتاب في دمشق، فأمن الناس وهدأت الضجة والفزع، ودخل قازان بجنود التتار إلى دمشق، ولم يحصل منهم أي فساد باعتبار أنهم أهل إسلام، وإنما أراد أن يضم البلاد لمملكته، وجعل عليها نائبـًا من قبله، ومكث في دمشق أياما ثم رجع إلى العراق.

قال ابن كثير رحمه الله في حوادث سنة تسع وتسعين وستمائة، وهو يصف تلك المأساة : "وَقَدْ تَوَاتَرَتِ الْأَخْبَارُ بِقَصْدِ التَّتَرِ إِلَى بِلَادِ الشَّامِ، وَقَدْ خَافَ النَّاسُ مِنْ ذَلِكَ خَوْفًا شَدِيدًا، وَجَفَلَ النَّاسُ مِنْ بِلَادِ حَلَبَ وَحَمَاةَ، وَبَلَغَ كِرَاءُ الْجَمَلِ مِنْ حَمَاةَ إِلَى دِمَشْقَ نَحْوَ الْمِائَتَيْ دِرْهَمٍ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الثُّلَاثَاءِ ثَانِي الْمُحَرَّمِ ضَرَبَتِ الْبَشَائِرُ بِسَبَبِ خُرُوجِ السُّلْطَانِ مِنَ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ قَاصِدًا الشَّامَ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ ثَامِنِ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ دَخَلَ السُّلْطَانُ إِلَى دِمَشْقَ، وَقَدْ أَقَامَ بِغَزَّةَ قَرِيبًا مِنْ شَهْرَيْنِ، وَذَلِكَ لَمَّا بَلَغَهُ قُدُومُ التَّتَرِ إِلَى الشَّامِ تَهَيَّأَ لِذَلِكَ، وَجَاءَ فَدَخَلَ دِمَشْقَ فِي الْيَوْمِ الَّذِي ذَكَرْنَا فِي مَطَرٍ شَدِيدٍ وَوَحَلٍ كَثِيرٍ، وَمَعَ هَذَا خَرَجَ النَّاسُ لِتَلَقِّيهِ وَالدُّعَاءِ لَهُ، فَنَزَلَ بِالطَّارِمَةِ، وَزُيِّنَتْ لَهُ الْبَلَدُ وَكَثُرَتْ لَهُ الْأَدْعِيَةُ، وَكَانَ وَقْتًا شَدِيدًا وَحَالًا صَعْبًا، وَامْتَلَأَ الْبَلَدُ مِنَ الْجَافِلِينَ النَّازِحِينَ عَنْ بِلَادِهِمْ، وَجَلَسَ الْأَعْسَرُ وَزِيرُ الدَّوْلَةِ، وَطَالَبَ الْعُمَّالَ، وَاقْتَرَضُوا أَمْوَالَ الْأَيْتَامِ وَأَمْوَالَ الْأَسْرَى لِأَجْلِ تَقْوِيَةِ الْجَيْشِ، وَخَرَجَ السُّلْطَانُ بِالْجَيْشِ مِنْ دِمَشْقَ يَوْمَ الْأَحَدِ سَابِعَ عَشَرَ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ، وَلَمْ يَتَخَلَّفْ أَحَدٌ مِنَ الْجُيُوشِ، وَخَرَجَ مَعَهُمْ خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنَ الْمُطَّوِّعَةِ، وَأَخَذَ النَّاسُ فِي الدُّعَاءِ وَالْقُنُوتِ فِي الصَّلَوَاتِ بِالْجَامِعِ وَغَيْرِهِ، وَتَضَرَّعُوا وَاسْتَغَاثُوا وَابْتَهَلُوا إِلَى اللهِ بِالْأَدْعِيَةِ .

[وَقْعَةُ قَازَانَ]

لَمَّا وَصَلَ السُّلْطَانُ إِلَى وَادِي الْخَزَنْدَارِ عِنْدَ وَادِي سَلَمْيَةَ، الْتَقَى التَّتَارُ هُنَاكَ يَوْمَ الْأَرْبِعَاءِ السَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ، فَالْتَقَوْا مَعَهُمْ، فَكَسَرُوا الْمُسْلِمِينَ، وَوَلَّى السُّلْطَانُ هَارِبًا، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، وَقُتِلَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْأُمَرَاءِ وَغَيْرُهُمْ وَمِنَ الْعَوَامِّ خَلْقٌ كَثِيرٌ، وَفُقِدَ فِي الْمَعْرَكَةِ قَاضِي الْحَنَفِيَّةِ حُسَامُ الرَّازِيُّ، وَقَدْ صَبَرُوا وَأَبْلَوْا بَلَاءً حَسَنًا، وَلَكِنْ كَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَقْدُورًا، فَوَلَّى الْمُسْلِمُونَ لَا يَلْوِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، ثُمَّ كَانَتِ الْعَاقِبَةُ بَعْدَ ذَلِكَ لِلْمُتَّقِينَ، غَيْرَ أَنَّهُ رَجَعَتِ الْعَسَاكِرُ عَلَى أَعْقَابِهَا إِلَى الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ، وَاجْتَازَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ عَلَى دِمَشْقَ، وَأَهْلُهَا فِي خَوْفٍ شَدِيدٍ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَهَالِيهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، ثُمَّ إِنَّهُمُ اسْتَكَانُوا وَاسْتَسْلَمُوا لِلْقَضَاءِ وَالْقَدْرِ، وَمَاذَا يُجْدِي الْحَذَرُ إِذَا نَزَلَ الْقَدَرُ، وَرَجَعَ السُّلْطَانُ فِي طَائِفَةٍ مِنَ الْجَيْشِ عَلَى نَاحِيَةِ بَعْلَبَكَّ، وَأَبْوَابُ دِمَشْقَ مُغْلَّقَةٌ، وَالْقَلْعَةُ مُحَصَّنَةٌ، وَالْغَلَاءُ شَدِيدٌ، وَالْحَالُ ضَيِّقٌ، وَفَرَجُ اللهِ قَرِيبٌ، وَقَدْ هَرَبَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَعْيَانِ الْبَلَدِ وَغَيْرُهُمْ إِلَى الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ، كَالْقَاضِي إِمَامِ الدِّينِ الشَّافِعِيِّ، وَقَاضِي الْمَالِكِيَّةِ جَمَالِ الدِّينِ الزَّوَاوِيِّ، وَتَاجِ الدِّينِ بْنِ الشِّيرَازِيِّ، وَعَلَمِ الدِّينِ الصَّوَابِيِّ وَالِي الْبَرِّ، وَجَمَالِ الدِّينِ بْنِ النَّحَّاسِ وَالِي الْمَدِينَةِ، وَالْمُحْتَسِبِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ التُّجَّارِ وَالْعَوَامِّ، وَبَقِيَ الْبَلَدُ شَاغِرًا لَيْسَ فِيهِ حَاكِمٌ وَلَا زَاجِرٌ وَلَا رَادِعٌ سِوَى نَائِبِ الْقَلْعَةِ عَلَمِ الدِّينِ أَرْجُوَاشَ، وَهُوَ مَشْغُولٌ عَنِ الْبَلَدِ بِالْقَلْعَةِ.

وَفِي لَيْلَةِ الْأَحَدِ ثَانِي رَبِيعٍ الْآخِرِ كَسَرَ الْمَحْبُوسُونَ بِحَبْسِ بَابِ الصَّغِيرِ بَابَ السِّجْنِ وَخَرَجُوا مِنْهُ قَرِيبًا مِنْ مِائَتَيْ رَجُلٍ، فَنَهَبُوا مَا قَدَرُوا عَلَيْهِ، وَجَاءُوا إِلَى بَابِ الْجَابِيَةِ، فَكَسَرُوا أَقْفَالَ الْبَابِ الْجُوَّانِيِّ وَأَخَذُوا مِنَ الْبَاشُورَةِ مَا شَاءُوا، ثُمَّ كَسَرُوا أَقْفَالَ الْبَابِ الْبَرَّانِيِّ، وَخَرَجُوا مِنْهُ عَلَى حَمِيَّةٍ، فَتَفَرَّقُوا حَيْثُ شَاءُوا لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى رَدِّهِمْ وَلَا صَدِّهِمْ، وَعَاثَتِ الْحَرَافِشَةُ فِي ظَاهِرِ الْبَلَدِ، فَكَسَرُوا أَبْوَابَ الْبَسَاتِينِ، وَقَلَعُوا مِنَ الْأَبْوَابِ وَالشَّبَابِيكِ وَغَيْرِ ذَلِكَ شَيْئًا كَثِيرًا، وَبَاعُوهُ بِأَرْخَصِ الْأَثْمَانِ.

هَذَا وَسُلْطَانُ التَّتَارُ قَدْ قَصَدَ دِمَشْقَ بَعْدَ الْوَقْعَةِ، فَاجْتَمَعَ أَعْيَانُ الْبَلَدِ وَالشَّيْخُ تَقِيُّ الدِّينِ ابْنُ تَيْمِيَةَ فِي مَشْهَدِ عَلِيٍّ، وَاتَّفَقُوا عَلَى الْمَسِيرِ إِلَى قَازَانَ لِتَلَقِّيهِ، وَأَخْذِ الْأَمَانِ مِنْهُ لِأَهْلِ دِمَشْقَ، فَتَوَجَّهُوا يَوْمَ الِاثْنَيْنِ ثَالِثِ رَبِيعٍ الْآخِرِ، فَاجْتَمَعُوا بِهِ عِنْدَ النَّبْكِ، وَكَلَّمَهُ الشَّيْخُ تَقِيُّ الدِّينِ ابْنُ تَيْمِيَةَ كَلَامًا قَوِيًّا شَدِيدًا، فِيهِ مَصْلَحَةٌ عَظِيمَةٌ عَادَ نَفْعُهَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ. وَدَخَلَ الْمُسْلِمُونَ لَيْلَتَئِذٍ مِنْ جِهَةِ قَازَانَ، فَنَزَلُوا الْبَاذَرَائِيَّةَ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ الْبَلَدِ سِوَى بَابِ تُومَا، وَخَطَبَ الْخَطِيبُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ بِالْجَامِعِ، وَلَمْ يَذْكُرْ سُلْطَانًا فِي خُطْبَتِهِ، وَبَعْدَ الصَّلَاةِ قَدِمَ الْأَمِيرُ إِسْمَاعِيلُ وَمَعَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ الرُّسُلِ، فَنَزَلُوا بِبُسْتَانِ الظَّاهِرِ عِنْدَ الطُّرْنِ. وَحَضَرَ الْفَرَمَانُ بِالْأَمَانِ، وَطِيفَ بِهِ فِي الْبَلَدِ وَقُرِئَ يَوْمَ السَّبْتِ ثَامِنِ الشَّهْرِ بِمَقْصُورَةِ الْخَطَابَةِ، وَنُثِرَ شَيْءٌ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ.

وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ مِنَ الْمُنَادَاةِ بِالْأَمَانِ طُلِبَتِ الْخُيُولُ وَالسِّلَاحُ وَالْأَمْوَالُ الْمُخَبَّأَةُ عِنْدَ النَّاسِ مِنْ جِهَةِ الدَّوْلَةِ، وَجَلَسَ دِيوَانُ الِاسْتِخْلَاصِ إِذْ ذَاكَ بِالْمَدْرَسَةِ الْقَيْمُرِيَّةِ، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، وَفِي يَوْمِ الِاثْنَيْنِ عَاشِرِ الشَّهْرِ قَدِمَ الْأَمِيرُ سَيْفُ الدِّينِ قَبْجَقُ الْمَنْصُورِيُّ، فَنَزَلَ بِالْمَيْدَانِ، وَاقْتَرَبَ جَيْشُ التَّتَارِ، وَكَثُرَ الْعَيْثُ فِي ظَاهِرِ الْبَلَدِ، وَقُتِلَ جَمَاعَةٌ، وَغَلَتِ الْأَسْعَارُ بِالْبَلَدِ جِدًّا، وَضَاقَ الْحَالُ عَلَيْهِمْ، وَأَرْسَلَ قَبْجَقُ إِلَى نَائِبِ الْقَلْعَةِ لِيُسَلِّمَهَا إِلَى التَّتَارِ، فَامْتَنَعَ أَرْجُوَاشُ مِنْ ذَلِكَ أَشَدَّ الِامْتِنَاعِ، فَجَمَعَ لَهُ قَبْجَقُ أَعْيَانَ الْبَلَدِ، فَكَلَّمُوهُ أَيْضًا، فَلَمْ يُجِبْهُمْ إِلَى ذَلِكَ، وَصَمَّمَ عَلَى تَرْكِ تَسْلِيمِهَا إِلَيْهِمْ وَفِيهَا عَيْنٌ تَطْرُفُ، فَإِنَّ الشَّيْخَ تَقِيَّ الدِّينِ ابْنَ تَيْمِيَةَ أَرْسَلَ إِلَى نَائِبِ الْقَلْعَةِ يَقُولُ لَهُ ذَلِكَ، فَاشْتَدَّ عَزْمُهُ عَلَى ذَلِكَ، وَقَالَ لَهُ: لَوْ لَمْ يَبْقَ فِيهَا إِلَّا حَجَرٌ وَاحِدٌ، فَلَا تُسَلِّمْهُمْ ذَلِكَ إِنِ اسْتَطَعْتَ.

وَكَانَ فِي ذَلِكَ مَصْلَحَةٌ عَظِيمَةٌ لِأَهْلِ الشَّامِ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى حَفِظَ لَهُمْ هَذَا الْحِصْنَ وَالْمَعْقِلَ الَّذِي جَعَلَهُ اللهُ حِرْزًا لِأَهْلِ الشَّامِ الَّتِي لَا تَزَالُ دَارَ أَمَانٍ وَسُنَّةٍ، حَتَّى يَنْزِلَ بِهَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَفِي يَوْمِ دُخُولِ قَبْجَقَ إِلَى دِمَشْقَ دَخَلَ السُّلْطَانُ وَنَائِبُهُ سَلَّارُ إِلَى مِصْرَ كَمَا جَاءَتِ الْبَطَائِقُ بِذَلِكَ إِلَى الْقَلْعَةِ، وَدَقَّتِ الْبَشَائِرُ بِهَا، فَقَوِيَ جَأْشُ النَّاسِ بَعْضَ الشَّيْءِ، وَلَكِنَّ الْأَمْرَ كَمَا يُقَالُ:

كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى سُعَادَ وَدُونَهَا ... قُلَلُ الْجِبَالِ وَدُونَهُنَّ حُتُوفُ

الرِّجْــلُ حَافِيَــةٌ وَمَــا لِــي مَرْكَــبٌ   وَالْكَــفُّ صِــفْرٌ وَالطَّرِيــقُ مَخُــوفُ

وَفِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ رَابِعَ عَشَرَ رَبِيعٍ الْآخِرِ خُطِبَ لِقَازَانَ عَلَى مِنْبَرِ دِمَشْقَ بِحُضُورِ الْمَغُولِ بِالْمَقْصُورَةِ، وَدُعِيَ لَهُ عَلَى السُّدَّةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، وَقُرِئَ عَلَيْهَا مَرْسُومٌ بِنِيَابَةِ قَبْجَقَ عَلَى الشَّامِ، وَذَهَبَ إِلَيْهِ الْأَعْيَانُ فَهَنَّئُوهُ بِذَلِكَ، فَأَظْهَرَ الْكَرَامَةَ، وَأَنَّهُ فِي تَعَبٍ عَظِيمٍ مَعَ التَّتَارِ، ثُمَّ شَرَعَ فِي طَلَبِ الْخُيُولِ الَّتِي عِنْدَ النَّاسِ وَالْأَمْوَالِ لِأَجْلِ النَّفَقَةِ عَلَى التَّتَارِ، وَنَزَلَ شَيْخُ الْمَشَايِخِ نِظَامُ الدِّينِ مَحْمُودُ بْنُ عَلِيٍّ الشَّيْبَانِيُّ بِالْمَدْرَسَةِ الْعَادِلِيَّةِ الْكَبِيرَةِ.

وَفِي يَوْمِ السَّبْتِ النِّصْفِ مِنْ رَبِيعٍ الْآخِرِ شَرَعَتِ التَّتَارُ وَصَاحِبُ سِيسَ فِي نَهْبِ الصَّالِحِيَّةِ، فَوَجَدُوا فِيهَا شَيْئًا كَثِيرًا مِنَ الْغَلَّاتِ، وَقَلَّعُوا الْأَبْوَابَ وَالشَّبَابِيكَ، وَخَرَّبُوا أَمَاكِنَ كَثِيرَةً؛ كَالرِّبَاطِ النَّاصِرِيِّ وَغَيْرِهِ مِنَ الْأَمَاكِنِ الْحَسَنَةِ وَالْمَارَسْتَانِ بِالصَّالِحِيَّةِ وَمَسْجِدِ الْأَسَدِيَّةِ وَمَسْجِدِ خَاتُونَ وَدَارِ الْحَدِيثِ الْأَشْرَفِيَّةِ بِهَا، وَاحْتَرَقَ جَامِعُ التَّوْبَةِ بِالْعَقِيبَةِ، وَكَانَ هَذَا مِنْ جِهَةِ الْكُرْجِ وَالْأَرْمَنِ مِنَ النَّصَارَى الَّذِينَ هُمْ مَعَ التَّتَارِ، قَبَّحَهُمُ اللهُ تَعَالَى، وَسَبَوْا مَنْ أَهْلِهَا خَلْقًا كَثِيرًا وَجَمًّا غَفِيرًا، وَلَجَأَ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَى رِبَاطِ الْحَنَابِلَةِ، فَاحْتَاطَ بِهِ التَّتَارُ، فَحَمَاهُ مِنْهُمْ شَيْخُ الشُّيُوخِ الْمَذْكُورُ، وَأُعْطِيَ فِي السَّاكِنِ مَالٌ لَهُ صُورَةٌ، ثُمَّ قَحَمُوا عَلَيْهِ، فَسَبَوْا مِنْهُ خَلْقًا كَثِيرًا مِنْ بَنَاتِ الْمَشَايِخِ وَأَوْلَادِهِمْ، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ وَلَمَّا نُكِبَ دَيْرُ الْحَنَابِلَةِ فِي ثَانِي جُمَادَى الْأُولَى قَتَلُوا خَلْقًا مِنَ الرِّجَالِ، وَسَبَوْا مِنَ النِّسَاءِ كَثِيرًا، وَنَالَ قَاضِي الْقُضَاةِ تَقِيَّ الدِّينِ مِنْهُمْ أَذًى كَثِيرٌ، يُقَالُ: إِنَّهُمْ قَتَلُوا

مِنْ أَهْلِ الصَّالِحِيَّةِ قَرِيبًا مِنْ أَرْبَعِمِائَةٍ، وَأَسَرُوا نَحْوًا مِنْ أَرْبَعَةِ آلَافِ أَسِيرٍ، وَنُهِبَتْ كُتُبٌ كَثِيرَةٌ مِنَ الرِّبَاطِ النَّاصِرِيِّ وَالضِّيَائِيَّةِ، وَخِزَانَةِ ابْنِ الْبُزُورِيِّ، فَكَانَتْ تُبَاعُ وَهِيَ مَكْتُوبٌ عَلَيْهَا الْوَقْفِيَّةُ، وَفَعَلُوا بِالْمِزَّةِ مِثْلَ مَا فَعَلُوا بِالصَّالِحِيَّةِ، وَكَذَلِكَ بِدَارَيَّا وَغَيْرِهَا، وَتَحَصَّنَ النَّاسُ مِنْهُمْ فِي الْجَامِعِ بِدَارَيَّا، فَفَتَحُوهُ قَسْرًا، وَقَتَلُوا مِنْهُمْ خَلْقًا، وَسَبَوْا نِسَاءَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ.

وَخَرَجَ الشَّيْخُ تَقِيُّ الدِّينِ ابْنُ تَيْمِيَةَ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ يَوْمَ الْخَمِيسِ الْعِشْرِينَ مِنْ رَبِيعٍ الْآخِرِ إِلَى مَلِكِ التَّتَارِ، وَعَادَ بَعْدَ يَوْمَيْنِ، وَلَمْ يَتَّفِقِ اجْتِمَاعُهُ بِقَازَانَ، حَجَبَهُ عَنْهُ الْوَزِيرُ سَعْدُ الدِّينِ وَالرَّشِيدُ مُشِيرُ الدَّوْلَةِ الْمَسْلَمَانِيُّ بْنُ يَهُودَى، وَالْتَزَمَا لَهُ بِقَضَاءِ الشُّغْلِ، وَذَكَرَا لَهُ أَنَّ التَّتَارَ لَمْ يَحْصُلْ لِكَثِيرٍ مِنْهُمْ شَيْءٌ إِلَى الْآنِ، وَلَا بُدَّ لَهُمْ مِنْ شَيْءٍ.

وَاشْتُهِرَ بِالْبَلَدِ أَنَّ التَّتَرَ يُرِيدُونَ دُخُولَ دِمَشْقَ، فَانْزَعَجَ النَّاسُ لِذَلِكَ، وَخَافُوا خَوْفًا شَدِيدًا، وَأَرَادُوا الْخُرُوجَ مِنْهَا وَالْهَرَبَ، وَأَيْنَ؟ وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ! وَقَدْ أُخِذَ مِنَ الْبَلَدِ فَوْقُ الْعَشَرَةِ آلَافِ فَرَسٍ، ثُمَّ فُرِضَتْ أَمْوَالٌ كَثِيرَةٌ عَلَى الْبَلَدِ مُوَزَّعَةً عَلَى أَهْلِ الْأَسْوَاقِ، كُلُّ سُوقٍ بِحَسْبِهِ مِنَ الْمَالِ، فَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ. وَشَرَعَ التَّتَرُ فِي عَمَلِ مَجَانِيقَ بِالْجَامِعِ لِيَرْمُوا بِهَا الْقَلْعَةَ مِنَ الصَّحْنِ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُهُ، وَنَزَلَ التَّتَرُ فِي مَشَاهِدِهِ يَحْرُسُونَ أَخْشَابَ الْمَجَانِيقِ، وَيَنْهَبُونَ مَا حَوْلَهُ مِنَ الْأَسْوَاقِ، وَأَحْرَقَ أَرْجُوَاشُ مَا حَوْلَ الْقَلْعَةِ مِنَ الْأَبْنِيَةِ؛ كَدَارِ الْحَدِيثِ الْأَشْرَفِيَّةِ

وَغَيْرِ ذَلِكَ، إِلَى حَدِّ الْعَادِلِيَّةِ الْكَبِيرَةِ وَدَارِ السَّعَادَةِ؛ لِئَلَّا يَتَمَكَّنُوا مِنْ مُحَاصَرَةِ الْقَلْعَةِ مِنْ أَعَالِيهَا، وَلَزِمَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ لِئَلَّا يُسَخَّرُوا فِي طَمِّ الْخَنْدَقِ، وَكَانَتِ الطُّرُقَاتُ لَا يُرَى بِهَا أَحَدٌ إِلَّا الْقَلِيلُ، وَالْجَامِعُ لَا يُصَلِّي فِيهِ أَحَدٌ إِلَّا الْيَسِيرُ، وَيَوْمُ الْجُمُعَةِ لَا يَتَكَامَلُ فِيهِ الصَّفُّ الْأَوَّلُ وَمَا بَعْدَهُ إِلَّا بِجَهْدٍ جَهِيدٍ، وَمَنْ خَرَجَ مِنْ مَنْزِلِهِ فِي ضَرُورَتِهِ يَخْرُجُ بِثِيَابِ زِيِّهِمْ، ثُمَّ يَعُودُ سَرِيعًا، وَيَظُنُّ أَنَّهُ لَا يَعُودُ إِلَى أَهْلِهِ، وَأَهْلُ الْبَلَدِ قَدْ أَذَاقَهُمُ اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ.

وَالْمُصَادَرَاتُ وَالتَّرَاسِيمُ وَالْعُقُوبَاتُ عَمَّالَةٌ فِي أَكَابِرِ أَهْلِ الْبَلَدِ لَيْلًا وَنَهَارًا، حَتَّى أُخِذَ مِنْهُمْ شَيْءٌ كَثِيرٌ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْقَافِ، كَالْجَامِعِ وَغَيْرِهِ، ثُمَّ جَاءَ مَرْسُومٌ بِصِيَانَةِ الْجَامِعِ وَتَوْفِيرِ أَوْقَافِهِ وَصَرْفِ مَا كَانَ يُؤْخَذُ لِخَزَائِنِ السِّلَاحِ إِلَى الْحِجَازِ، وَقُرِئَ ذَلِكَ الْمَرْسُومُ بَعْدَ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ بِالْجَامِعِ فِي تَاسِعَ عَشَرَ جُمَادَى الْأُولَى. وَفِي ذَلِكَ الْيَوْمِ تَوَجَّهَ السُّلْطَانُ قَازَانُ إِلَى بِلَادِهِ، وَتَرَكَ نُوَّابَهُ بِالشَّامِ فِي سِتِّينَ أَلْفَ مُقَاتِلٍ، نَحْوَ بِلَادِ الْعِرَاقِ، وَجَاءَ كِتَابُهُ: إِنَّا قَدْ تَرَكْنَا نُوَّابَنَا بِالشَّامِ فِي سِتِّينَ أَلْفَ مُقَاتِلٍ، وَمِنْ عَزْمِنَا الْعَوْدُ إِلَيْهَا فِي زَمَنِ الْخَرِيفِ، وَالدُّخُولُ إِلَى الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ وَفَتْحُهَا. وَقَدْ أَعْجَزَتْهُمُ الْقَلْعَةُ أَنْ يَصِلُوا إِلَى حَجَرٍ مِنْهَا، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ، وَخَرَجَ الْأَمِيرُ سَيْفُ الدِّينِ قَبْجَقُ لِتَوْدِيعِ قُطْلُوشَاهْ نَائِبِ قَازَانَ، وَسَارَ وَرَاءَهُ، وَضَرَبَتِ الْبَشَائِرُ بِالْقَلْعَةِ فَرَحًا لِرَحِيلِهِمْ، وَلَمْ تُفْتَحِ الْقَلْعَةُ، وَأَرْسَلَ أَرْجُوَاشُ ثَانِي يَوْمٍ مِنْ خُرُوجِ قَبْجَقَ لِتَوْدِيعِ قُطْلُوشَاهْ - الْقَلْعِيَّةَ إِلَى الْجَامِعِ،

فَكَسَرُوا أَخْشَابَ الْمَنْجَنِيقَاتِ الْمَنْصُوبَةِ بِهِ، وَعَادُوا إِلَى الْقَلْعَةِ سَرِيعًا سَالِمِينَ آمِنِينَ، وَاسْتَصْحَبُوا مَعَهُمْ جَمَاعَةً مِمَّنْ كَانُوا يَلُوذُونَ بِالتَّتَارِ قَهْرًا إِلَى الْقَلْعَةِ، مِنْهُمُ الشَّرِيفُ الْقُمِّيُّ، وَهُوَ شَمْسُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ أَبِي الْقَاسِمِ الْمُرْتَضَى الْعَلَوِيُّ، وَجَاءَتِ الرُّسُلُ مِنْ قَبْجَقَ إِلَى دِمَشْقَ فَنَادَوْا بِهَا: طَيِّبُوا قُلُوبَكُمْ، وَافْتَحُوا دَكَاكِينَكُمْ، وَتَهَيَّئُوا غَدًا لِتَلَقِّي سُلْطَانِ الشَّامِ سَيْفِ الدِّينِ قَبْجَقَ. فَخَرَجَ النَّاسُ إِلَى أَمَاكِنِهِمْ، فَأَشْرَفُوا عَلَيْهَا، فَرَأَوْا مَا بِهَا مِنَ الْفَسَادِ وَالدَّمَارِ، وَانْفَكَّ رُؤَسَاءُ الْبَلَدِ مِنَ التَّرَاسِيمِ بَعْدَمَا وُزِنُوا شَيْئًا كَثِيرًا.

إلى أن قال نقلا عن البرزالي: وَعَادَ الْأَمِيرُ سَيْفُ الدِّينِ قَبْجَقُ إِلَى دِمَشْقَ يَوْمَ الْخَمِيسِ بَعْدَ الظُّهْرِ الْخَامِسِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ جُمَادَى الْأُولَى، وَمَعَهُ الْأَلْبَكِيُّ وَجَمَاعَةٌ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ السُّيُوفُ مُسَلَّلَةً، وَعَلَى رَأْسِهِ عِصَابَةٌ، فَنَزَلَ بِالْقَصْرِ، وَنُودِيَ بِالْبَلَدِ: إِنَّ نَائِبَكُمْ سَيْفَ الدِّينِ قَبْجَقَ قَدْ جَاءَ فَافْتَحُوا دَكَاكِينَكُمْ، وَاعْمَلُوا مَعَاشَكُمْ، وَلَا يُغَرِّرْ أَحَدٌ بِنَفْسِهِ. هَذَا وَالْأَسْعَارُ فِي غَايَةِ الْغَلَاءِ وَالْقِلَّةِ، قَدْ بَلَغَتِ الْغِرَارَةُ إِلَى أَرْبَعِمِائَةٍ، وَاللَّحْمُ الرَّطْلُ بِنَحْوِ الْعَشَرَةِ، وَالْخُبْزُ كُلُّ رَطْلٍ بِدِرْهَمَيْنِ وَنِصْفٍ، وَالْعَشَرَةُ الدَّقِيقِ بِنَحْوِ الْأَرْبَعِينَ، وَالْجُبْنُ الْأُوقِيَةُ بِدِرْهَمٍ، وَالْبَيْضُ كُلُّ خَمْسَةٍ بِدِرْهَمٍ، ثُمَّ فُرِّجَ عَنْهُمْ فِي أَوَاخِرِ الشَّهْرِ، وَلَمَّا كَانَ فِي أَوَاخِرِ الشَّهْرِ نَادَى قَبْجَقُ بِالْبَلَدِ أَنْ يَخْرُجَ النَّاسُ إِلَى قُرَاهُمْ، وَأَمَرَ جَمَاعَةً، وَانْضَافَ إِلَيْهِ خَلْقٌ مِنَ الْأَجْنَادِ، وَكَثُرَتِ الْأَرَاجِيفُ عَلَى بَابِهِ، وَعَظُمَ شَأْنُهُ، وَدَقَّتِ الْبَشَائِرُ بِالْقَلْعَةِ وَعَلَى

بَابِ قَبْجَقَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ رَابِعِ جُمَادَى الْآخِرَةِ، وَرَكِبَ قَبْجَقُ بِالْعَصَائِبِ فِي الْبَلَدِ، وَالشَّاوِيشِيَّةُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَجَهَّزَ نَحْوًا مِنْ أَلْفِ فَارِسٍ نَحْوَ خَرِبَةِ اللُّصُوصِ، وَمَشَى مَشْيَ الْمُلُوكِ فِي الْوِلَايَاتِ وَتَأْمِيرِ الْأُمَرَاءِ وَالْمَرَاسِيمِ الْعَالِيَةِ النَّافِذَةِ، وَصَارَ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

يَا لَكِ مِنْ قُنْبَرَةٍ بِمَعْمَرِ   خَلَا لَكِ الْجَوُّ فَبِيضِي وَاصْفِرِي
وَنَقِّرِي مَا شِئْتِ أَنْ تُنَقِّرِي".

انتهى كلامه رحمه الله.

عودة قازان مرة أخرى لأخذ بلاد الشام

ولما رجع قازان إلى العراق، استقر الحال نسبيا إلى سنة ثنتين وسبعمائة، ثم حصلت بعض الأمور، ورجع قازان بجنوده مرة أخرى إلى الشام يريد أن يضم بلاد الشام إلى أملاكه، فخرج سلطان المماليك بجيوشه من مصر للقائه، وقبل أن تخرج الجيوش بوقت يسير، كان قد وقع شيء من الصدام بين بعض الكتائب من الجانبين، وذلك أن كتيبة من المسلمين خرجت، وفيها مجموعة من الأمراء في ألف وخمسمائة، والتقوا ببعض كتائب التتار على غير ميعاد والتتار في سبعة آلاف، فحصل بينهم قتال وصبرت الجيوش الشامية صبراً عظيماً، وقتلوا أكثر التتار وانتصروا عليهم.

ثم إنه لما جاءت الأخبار أن التتار قد خرج ملكهم قازان بجنود كثيرة، يريدون الاستيلاء على بلاد الشام عادت الأراجيف والفزع إلى بلاد الشام،

وكان السلطان قد جهز الجيوش وخرج من مصر، فلما كان ببعض الطريق أراد أن يرجع إلى مصر، وقد اجتمعت الجيوش الشامية من حمص وحماة ودمشق وحلب، ولكن لم يكونوا بالقدر الكافي لمقاتلة جيوش التتار الكثيرة التي جاءت من العراق، فعظم الخوف عند أهل الشام، ولما علموا أن السلطان أراد الرجوع إلى مصر زاد خوفهم وفزعهم.

[الموقف الثاني لشيخ الإسلام ابن تيمية مع التتار]

فكان لشيخ الإسلام ابن تيمية الموقف العظيم، وقصب السبق في هذا الأمر وكان ذلك اليوم يومه رحمه الله فإنه قام يحرِّض الناس ويحثَّ الأمراء ويذكرهم بالله وأنه لا يجوز لهم التخلي عن المسلمين. وجعل يشجع المسلمين، ويخبرهم أنهم منصورون، وجعل يذكرهم بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ٦٠﴾ [الحج:٦٠]، فجعل يحثهم ويخطب في الناس في المجامع الكبيرة ويثبتهم، ويخبرهم أنهم لا يجوز لهم الفرار ولا الخروج والرحيل من البلاد، فلمن يتركونها؟!

فكان له دور كبير رحمه الله في تثبيت الناس وبقائهم واستعدادهم، ثم إنه رأى أن هذا لا يكفي، فخرج بمجموعة من أصحابه، وانطلق باتجاه مصر ليدرك السلطان قبل أن يصل إلى مصر، واستطاع أن يدرك السلطان، فوعظه وأغلظ له

في النصيحة وقال له: أنت سلطان المسلمين، وهؤلاء رعاياك إما أن تقم بحمايتهم، وإلا تتركنا فنختار لنا سلطانا آخر يحمينا، فإن هذه مسؤوليتك.

وكان مما قاله له: حتى وإن لم تكن سلطانا علينا -أي: على أهل الشام-، لوجب عليكم نصرتنا، فنحن مسلمون نستنصركم، فيجب عليكم أن تنصرونا حتى لو لم تكونوا سلاطين علينا، فكيف وأنت السلطان، وهم في مسؤوليتك وفي رقبتك، وجعل يؤكد له بأن الله سينصره إن دافع عن المسلمين، ولم يزل به شيخ الإسلام حتى أقنع السلطان، ولم يرجع إلى الشام إلا والسلطان معه.

فجاءت الأخبار، والناس في خوف وهلع، وكان الناس قد أغلقوا الأبواب، وصاروا يصعدون على المآذن ينظرون لعلهم يرون شيئًا عن بعد، فرأوا غبرة وسوادا كثيرا، فظنوها جيوش التتار قد اقتربت من دمشق، فإذا بالأخبار تأتي بأنها جيوش المسلمين قد اجتمعت وقد جاء السلطان وانضم إلى الجيوش الشامية، وصار المسلمون جيشًا واحدا، فجاء بهذا الخبر بعض الأمراء، ففرح الناس بذلك، وواصل سلطان المماليك **(محمد بن قلاوون)** المسير ومعه الجيوش المصرية والشامية حتى وصلوا إلى مكان يقال له: مرج الصُفر –بضم الصاد وتشديد الفاء المفتوحة- ويقال له أيضا: شقحب جنوب دمشق -وهي حاليا تتبع ريف دمشق - وكان ذلك في آخر شعبان، والإرجافات مستمرة من رجب في بلاد الشام بسبب الخوف والهلع.

[قبل المعركة]

لما علمت جنود التتار المسلمة القادمة للعراق بتجمع الجيوش الشامية والمصرية في مرج الصفر قدموا واجتازوا دمشق ولم يدخلوها وقالوا: إن انتصرنا فسنرجع لها فالبلد بلدنا، وإن هزمنا فما حاجتنا للبلد، فتحرك الجيش كله حتى التقى الجيشان في (**مَرْجِ الصُّفَّرِ**) في اليوم الثاني من رمضان في سنة اثنتين وسبعمائة للهجرة.

وشهد شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى هذه المعركة، وكان قد التبس الأمر على بعض الناس من الجيوش الشامية والمصرية، وجعلوا يقولون كيف نقاتلهم، وهم مسلمون مثلنا، وليسوا كفاراً فكيف نقاتلهم ونسفك دماءهم، فانتشرت هذه الشبهة، فقام شيخ الإسلام رحمه الله تعالى مرة أخرى، وجعل يثبت الناس قائلا لهم: هؤلاء جنسهم مثل جنس الخوارج الذين خرجوا على معاوية وعلى علي رضي الله عنهما، فإن هؤلاء بغاة جاؤوا إلى بلادنا، وأرادوا قتالنا، وأخذ أرضنا بالقوة، ومعنا سلطان ومعنا من يحكمنا، ونحن تحت راية سلطان وبيعتنا له، فهؤلاء حكمهم حكم البغاة، وإن كانوا مسلمين فنقاتلهم كما قاتل علي رضي الله عنه من بغوا عليه، وجعل يحلف لهم الأيمان أن هذا هو الحق.

بل جعل شيخ الإسلام يقول لهم: **لو رأيتموني وفي رأسي المصحف وأنا معهم فاقتلوني**، وهذا من دقيق فقهه رحمه الله تعالى، وإلا فلو استسلم الناس لهذه الشائعة؛ لحصل بلاء عظيم، وهزيمة منكرة، والله أعلم ماذا يحصل من وراء ذلك.

فلما سمع الناس مقالة شيخ الإسلام تقووا على القتال، وطابت النفوس وزالت الشبهة، وقد أراد السلطان أن يكون شيخ الإسلام معه تحت رايته في الجيش المصري، فقال له شيخ الإسلام من السنة أن يقف كل رجل تحت راية قومه.

قلت: وكان النبي عليه الصلاة والسلام يفعل ذلك يجعل لكل قبيلة راية، وعليهم أمير منهم، وكل يقف تحت راية قومه فقال له: السنة أن يقف كل تحت راية قومه، وأنا شامي أقف تحت راية قومي مع أهل الشام، فلم يمانع السلطان من ذلك، وجعل شيخ الإسلام ومعه جمع الفقهاء والقضاة والقراء يمشون بين الصفوف ويثبتونهم.

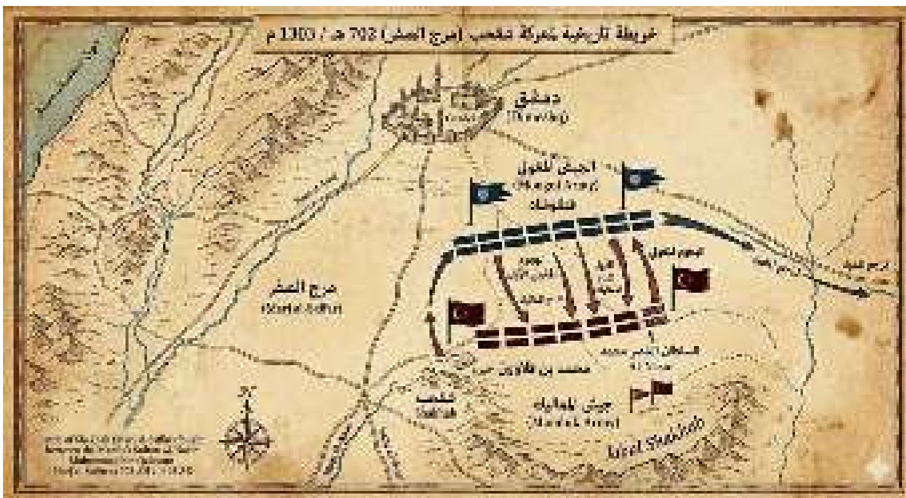
ومما أثار عجب الناس والأمراء أن شيخ الإسلام رحمه الله كان يمر أمام هذه الجيوش وأمام الأمراء أمراء الشام ومصر، ويحلف لهم أيماناً أن النصر لهم ويقول: **والله! إننا منصورون**.

ويقول للسلطان: والله إنك منصور، فأخلص النية، فكان بعض الأمراء يقولون له يا أبا العباس قل إن شاء الله، فيقول إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً،

وكان يتأول قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ٦٠﴾ [الحج:٦٠] فهولاء بغوا علينا، والله وعدنا أن من بُغي عليه أن ينصره، فكانوا يتعجبون من جرأته ويقينه وثقته التامة أنهم منصورون.

معركة (شَقْحَب)

بدأت المعركة يوم السبت الثاني من رمضان سنة اثنين وسبعمائة بعد الظهر، وقد أرسل السلطان إلى دمشق ومصر يطلب من الناس الدعاء، ويأمرهم بحفظ الأسوار وأغلاق الأبواب، والناس على سطوح البيوتات، وعلى الأسوار وعلى رؤوس المآذن، وأرض المعركة بعيدة عنهم؛ لكنهم صاروا على هذا الحال لعلهم يسمعون خبرا، والناس في بلاد الشام في دعاء وتضرع لا يدرون ما الله صانع بهم، فبدأت المعركة من بعد الظهر إلى اليوم الثاني قيل ظهرا وقيل قبل



ذلك، لكن كانت شدتها إلى غروب شمس اليوم الأول، واشتدت المعركة جدا، وحصلت فيها بعض العجائب، حتى إن سلطان مصر والشام ربط جواده في مكان حتى لا يفر، ووطن نفسه على أن يقاتل حتى ينتصر، أو يموت رحمه الله تعالى، واشتد القتال جدا.

وكانت ميسرة التتار أقوى من ميمنة الشاميين؛ لأن الميسرة تواجه الميمنة، والميمنة تواجه الميسرة، وكان قلب الشاميين والمصريين وميمنتهم أقوى من قلب أولئك وميسرتهم فاشتد الأمر جداً، وهجمت ميمنة التتار على ميسرة الشاميين والمصريين هجوماً قوياً حتى أزاحوا الميسرة وردوها إلى القلب، وفر باقيهم وقتل ثمانية من الأمراء الشاميين والمصريين في تلك الحملة، وانهزمت ميسرة الشاميين والمصريين، حتى بدؤوا بالفرار،وانفصلوا عن الجيش وميمنة التتار يتبعونهم، وهم يظنون أن أصحابهم قد انتصروا، وأولئك يظنون أن أصحابهم قد انهزموا، وكان الأمر بالعكس، فانهزمت قطعة من الجيش وتبعتهم قطعة من الجيش الآخر، وأما قلب الشاميين وميمنتهم، فإنهم ثبتوا في مواقعهم، وحققوا نصرا، واستطاعوا أن يقتلوا مقتلة كبيرة من التتار، وفر بقية التتار إلى رؤوس التلال، فلما جاء الليل أشعلوا حولهم نارا، فضرب أهل مصر والشام حولهم حصاراً خانقاً، وجعلوا يصعدون عليهم ويتخطفونهم، ويكثرون فيهم القتل وأما ميسرة التتار، فإنهم أمعنوا في ملاحقة ميمنة جيش السلطان، وفي ظنهم أن أصحابهم سيلحقون بهم، فلما لم يروا وراءهم أحدا توقفوا ليلحق بهم

بقية الجيش، فجاءتهم الأخبار بأن أصحابهم قد كسروا، فرجعوا لنجدة أصحابهم.

فأحدق جيش السلطان بهم على رؤوس الجبال وفي تلك الوديان، وأنزل الله في تلك الليلة مطراً عظيمـًا على تلك الأماكن، وعلى بلاد الشام ولم يزل المسلمون طوال تلك الليلة يتخطفونهم من الطرقات، ومن رؤوس الجبال، وفرَّت منهم جماعات، وحاولوا أن يعبروا نهر الفرات، وهو على أشده فغرق منهم خلق كثير، ولم ينجوا أحد ممن حاول عبوره ووقع منهم من وقع في الوحل والدحض، وتخطفهم أهل مصر وأهل الشام، وصار بعضهم في البادية، فتخطفتهم الأعراب، فقتل أكثر جيش التتار في ذلك اليوم من الذين بغوا على أهل الشام.

واستطاع **(قازان)** الفرار بمن بقي معه، حتى رجع إلى بلاد العراق والمسلمون في بلاد الشام لا يدرون ما الخبر، وهم على خوف ووجل، وكان كثير منهم لا يتوقع أن ينتصر أهل الشام ومصر على أهل العراق، فلم تأتهم الأخبار إلا عصر اليوم الثاني من يوم الأحد.

وكان شيخ الإسلام قد أفتى الجيش المصري والشامي أن يفطروا لقوله عليه الصلاة والسلام في فتح مكة للمسلمين: «**إِنَّكم ملاقوا الْعَدُوِّ غَدًا، وَالْفِطَرُ أَقْوَى**

لَكُمْ» رواه مسلم (١١٢٠)، فأرسل السلطان بعض الأمراء بالبشارة، وجاء الخبر إلى الناس في الشام، فقرئت البشارة وفرح الناس بذلك، وزينت البلد.

ودخل سلطان المماليك (**محمد بن قلاوون**) بعد ثلاثة أيام من المعركة في السابع من رمضان إلى بلاد الشام، وكانت هذه المعركة أقوى معركة بين المسلمين والتتار بعد عين جالوت؛ لكن مع الفارق فإن عين جالوت كانت بين المسلمين والكفار، أما هذه فكانت بين طائفتين من المسلمين إلا أن أهل العراق كانوا بغاة على أهل الشام، أرادوا أن يأخذوا أرضا ليست لهم، فكان حكمهم حكم البغاة، وإلا فهم أهل إسلام فكانت هذه المعركة أقوى المعارك، وآخر المعارك التي وقعت بين المماليك وبين التتار المسلمين في العراق.

هذا خلاصة ما حصل في تلك المعركة الشهيرة أما عن تفاصيلها فأتركك أيها القارئ الكريم مع حافظ عصره ومؤرخ زمنه ابن كثير رحمه الله ليصف لك أحداث تلك المعركة وكأنك تراها قال رحمه الله في أحداث سنة ثنتين وسبعمائة ما نصه:

"وَفِي يَوْمِ السَّبْتِ عَاشِرِ شَعْبَانَ ضُرِبَتِ الْبَشَائِرُ بِالْقَلْعَةِ وَالطَّبْلَخَانَاهْ عَلَى أَبْوَابِ الْأُمَرَاءِ بِخُرُوجِ السُّلْطَانِ بِالْعَسَاكِرِ مِنْ مِصْرَ لِمُنَاجَزَةِ التَّتَارِ الْمَخْذُولِينَ. وَفِي هَذَا الْيَوْمِ بِعَيْنِهِ كَانَتْ وَقْعَةُ عُرْضٍ، وَذَلِكَ أَنَّهُ الْتَقَى جَمَاعَةٌ مِنْ أُمَرَاءِ الْإِسْلَامِ فِيهِمْ أَسَنْدَمُرُ، وَبَهَادُرُ آصْ، وَكُجْكُنُ، وَغُرْلُو الْعَادِلِيُّ، وَكُلٌّ مِنْهُمْ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ الْمِلَّةِ وَالدِّينِ، فِي أَلْفٍ وَخَمْسِمِائَةِ فَارِسٍ - مَعَ التَّتَرِ، وَكَانَ التَّتَارُ فِي

سَبْعَةِ آلَافِ مُقَاتِلٍ، فَاقْتَتَلُوا مَعَهُمْ، وَصَبَرَ الْمُسْلِمُونَ صَبْرًا جَيِّدًا، فَنَصَرَهُمُ اللهُ، وَخَذَلَ التَّتَرَ، فَقَتَلُوا مِنْهُمْ خَلْقًا، وَأَسَرُوا آخَرِينَ، وَوَلَّوْا عِنْدَ ذَلِكَ مُدْبِرِينَ، وَغَنِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْهُمْ غَنَائِمَ، وَعَادُوا سَالِمِينَ لَمْ يُفْقَدْ مِنْهُمْ إِلَّا الْقَلِيلُ مِمَّنْ أَكْرَمَهُ اللهُ تَعَالَى بِالشَّهَادَةِ، وَوَقَعَتِ الْبِطَاقَةُ بِذَلِكَ، ثُمَّ قَدِمَتِ الْأُسَارَى يَوْمَ الْخَمِيسِ مُنْتَصَفِ شَعْبَانَ، وَكَانَ يَوْمَ خَمِيسِ النَّصَارَى.

وَفِي ثَامِنَ عَشَرَهُ قَدِمَتْ طَائِفَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْ جَيْشِ الْمِصْرِيِّينَ، فِيهِمُ الْأَمِيرُ رُكْنُ الدِّينِ بَيْبَرْسُ الْجَاشْنَكِيرُ، وَالْأَمِيرُ حُسَامُ الدِّينِ لَاجِينُ الْمَعْرُوفُ بِالْأُسْتَادَارِ الْمَنْصُورِيُّ، وَالْأَمِيرُ سَيْفُ الدِّينِ كَرَايُ الْمَنْصُورِيُّ، ثُمَّ قَدِمَتْ بَعْدَهُمْ طَائِفَةٌ أُخْرَى، فِيهِمْ بَدْرُ الدِّينِ أَمِيرُ سِلَاحٍ، وَأَيْبَكُ الْخَزِنْدَارُ، فَقَوِيَتِ الْقُلُوبُ، وَاطْمَأَنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، وَلَكِنَّ النَّاسَ فِي جَفَلٍ عَظِيمٍ مِنْ بِلَادِ حَلَبَ، وَحَمَاةَ، وَحِمْصَ، وَتِلْكَ النَّوَاحِي، وَتَقَهْقَرَ الْجَيْشُ الْحَلَبِيُّ وَالْحَمَوِيُّ إِلَى حِمْصَ، ثُمَّ خَافُوا أَنْ يَدْهَمَهُمُ التَّتَرُ، فَجَاءُوا فَنَزَلُوا الْمَرْجَ يَوْمَ الْأَحَدِ خَامِسِ عِشْرِينَ شَعْبَانَ، وَوَصَلَ التَّتَرُ إِلَى حِمْصَ، وَبَعْلَبَكَّ، وَعَاثُوا فِي تِلْكَ الْأَرَاضِي فَسَادًا، وَقَلِقَ النَّاسُ قَلَقًا عَظِيمًا، وَخَافُوا خَوْفًا شَدِيدًا، وَاخْتَبَطَ الْبَلَدُ لِتَأَخُّرِ قُدُومِ السُّلْطَانِ بِبَقِيَّةِ الْجَيْشِ، وَقَالَ النَّاسُ: لَا طَاقَةَ لِجَيْشِ الشَّامِ مَعَ هَؤُلَاءِ الْمِصْرِيِّينَ بِلِقَاءِ التَّتَارِ لِكَثْرَتِهِمْ، وَإِنَّمَا سَبِيلُهُمْ أَنْ يَتَأَخَّرُوا عَنْهُمْ مَرْحَلَةً مَرْحَلَةً، وَتَحَدَّثَ النَّاسُ بِالْأَرَاجِيفِ، فَاجْتَمَعَ الْأُمَرَاءُ يَوْمَ الْأَحَدِ الْمَذْكُورِ بِالْمَيْدَانِ الْأَخْضَرِ، وَتَحَالَفُوا عَلَى لِقَاءِ

الْعَدُوِّ، وَشَجَّعُوا أَنْفُسَهُمْ، وَنُودِيَ بِالْبَلَدِ أَنْ لَا يَرْحَلَ أَحَدٌ مِنْهُ، فَسَكَنَ النَّاسُ، وَجَلَسَ الْقُضَاةُ بِالْجَامِعِ، وَحَلَّفُوا جَمَاعَةً مِنَ الْفُقَهَاءِ وَالْعَامَّةِ عَلَى الْقِتَالِ، وَتَوَجَّهَ الشَّيْخُ تَقِيُّ الدِّينِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ إِلَى الْعَسْكَرِ الْوَاصِلِ مِنْ حَمَاةَ، فَاجْتَمَعَ بِهِمْ فِي الْقُطَيِّفَةِ، فَأَعْلَمَهُمْ بِمَا تَحَالَفَ عَلَيْهِ الْأُمَرَاءُ وَالنَّاسُ مِنْ لِقَاءِ الْعَدُوِّ، فَأَجَابُوا إِلَى ذَلِكَ، وَحَلَفُوا مَعَهُمْ، وَكَانَ الشَّيْخُ تَقِيُّ الدِّينِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ يَحْلِفُ لِلْأُمَرَاءِ وَالنَّاسِ: إِنَّكُمْ فِي هَذِهِ الْكَرَّةِ مَنْصُورُونَ عَلَى التَّتَارِ، فَيَقُولُ لَهُ الْأُمَرَاءُ: قُلْ إِنْ شَاءَ اللهُ، فَيَقُولُ: إِنْ شَاءَ اللهُ تَحْقِيقًا لَا تَعْلِيقًا، وَكَانَ يَتَأَوَّلُ فِي ذَلِكَ أَشْيَاءَ مِنْ كِتَابِ اللهِ، مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ٦٠﴾ [الحج: ٦٠].

وَقَدْ تَكَلَّمَ النَّاسُ فِي كَيْفِيَّةِ قِتَالِ هَؤُلَاءِ التَّتَرِ مِنْ أَيِّ قَبِيلٍ هُوَ، فَإِنَّهُمْ يُظْهِرُونَ الْإِسْلَامَ، وَلَيْسُوا بُغَاةً عَلَى الْإِمَامِ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا فِي طَاعَتِهِ فِي وَقْتٍ ثُمَّ خَالَفُوهُ، فَقَالَ الشَّيْخُ تَقِيُّ الدِّينِ: هَؤُلَاءِ مِنْ جِنْسِ الْخَوَارِجِ الَّذِينَ خَرَجُوا عَلَى عَلِيٍّ وَمُعَاوِيَةَ، وَرَأَوْا أَنَّهُمْ أَحَقُّ بِالْأَمْرِ مِنْهُمَا، وَهَؤُلَاءِ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ أَحَقُّ بِإِقَامَةِ الْحَقِّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَيَعِيبُونَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا هُمْ مُتَلَبِّسُونَ بِهِ مِنَ الْمَعَاصِي وَالظُّلْمِ،وَهُمْ مُتَلَبِّسُونَ بِمَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ بِأَضْعَافٍ مُضَاعَفَةٍ، فَتَفَطَّنَ الْعُلَمَاءُ وَالنَّاسُ لِذَلِكَ، وَكَانَ يَقُولُ لِلنَّاسِ: إِذَا رَأَيْتُمُونِي مِنْ ذَلِكَ الْجَانِبِ وَعَلَى رَأْسِي مُصْحَفٌ، فَاقْتُلُونِي، فَتَشَجَّعَ النَّاسُ فِي قِتَالِ التَّتَارِ، وَقَوِيَتْ قُلُوبُهُمْ وَنِيَّاتُهُمْ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ.

وَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْأَرْبِعَاءِ الثَّامِنِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَعْبَانَ، خَرَجَتِ الْعَسَاكِرُ الشَّامِيَّةُ، فَخَيَّمَتْ عَلَى الْجُسُورَةِ مِنْ نَاحِيَةِ الْكُسْوَةِ، وَمَعَهُمُ الْقُضَاةُ، فَصَارَ النَّاسُ فِيهِمْ فَرِيقَيْنِ، فَرِيقٌ يَقُولُونَ: إِنَّمَا سَارُوا لِيَخْتَارُوا مَوْضِعًا لِلْقِتَالِ، فَإِنَّ الْمَرْجَ فِيهِ مِيَاهٌ كَثِيرَةٌ، فَلَا يَسْتَطِيعُونَ مَعَهَا الْقِتَالَ، وَقَالَ فَرِيقٌ: إِنَّمَا سَارُوا إِلَى تِلْكَ الْجِهَةِ لِيَهْرُبُوا، وَلِيَلْحَقُوا بِالسُّلْطَانِ.

فَلَمَّا كَانَتْ لَيْلَةُ الْخَمِيسِ، سَارُوا إِلَى نَاحِيَةِ الْكُسْوَةِ، فَقَوِيَتْ ظُنُونُ النَّاسِ فِي هَرَبِهِمْ، وَقَدْ وَصَلَتِ التَّتَارُ إِلَى قَارَةَ، وَقِيلَ: إِنَّهُمْ وَصَلُوا إِلَى الْقُطَيِّفَةِ، فَانْزَعَجَ النَّاسُ لِذَلِكَ انْزِعَاجًا شَدِيدًا، وَلَمْ يَبْقَ حَوْلَ الْبَلَدِ مِنَ الْقُرَى وَالْحَوَاضِرِ أَحَدٌ، وَامْتَلَأَتِ الْقَلْعَةُ، وَازْدَحَمَتِ الْمَنَازِلُ وَالطُّرُقَاتُ، وَاضْطَرَبَ النَّاسُ، وَخَرَجَ الشَّيْخُ تَقِيُّ الدِّينِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ صَبِيحَةَ يَوْمِ الْخَمِيسِ مِنَ الشَّهْرِ الْمَذْكُورِ مِنْ بَابِ النَّصْرِ بِمَشَقَّةٍ كَبِيرَةٍ، وَصَحِبَتْهُ جَمَاعَةٌ لِيَشْهَدَ الْقِتَالَ بِنَفْسِهِ وَمَنْ مَعَهُ، فَظَنُّوا أَنَّهُ إِنَّمَا خَرَجَ هَارِبًا، فَحَصَلَ لَهُ لَوْمٌ مِنْ بَعْضِ النَّاسِ، وَقَالُوا: أَنْتَ مَنَعْتَنَا مِنَ الْجَفْلِ، وَهَا أَنْتَ هَارِبٌ مِنَ الْبَلَدِ! فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ، وَبَقِيَ الْبَلَدُ لَيْسَ فِيهِ حَاكِمٌ، وَعَاثَتِ اللُّصُوصُ وَالْحَرَافِيشُ فِيهِ وَفِي بَسَاتِينِ النَّاسِ يُخَرِّبُونَ وَيَنْهَبُونَ مَا قَدَرُوا عَلَيْهِ، وَيَقْطَعُونَ الْمِشْمِشَ قَبْلَ أَوَانِهِ، وَكَذَلِكَ الْبَاقِلَّاءُ، وَالْقَمْحُ، وَالشَّعِيرُ، وَسَائِرُ الْخُضْرَاوَاتِ، وَحِيلَ بَيْنَ النَّاسِ وَبَيْنَ خَبَرِ الْجَيْشِ، وَانْقَطَعَتِ الطُّرُقُ إِلَى الْكُسْوَةِ، وَظَهَرَتِ الْوَحْشَةُ عَلَى الْبَلَدِ وَالْحَوَاضِرِ، وَلَيْسَ لِلنَّاسِ شُغْلٌ غَيْرُ

الصُّعُودِ إِلَى الْمَآذِنِ يَنْظُرُونَ يَمِينًا وَشِمَالًا وَإِلَى نَاحِيَةِ الْكُسْوَةِ، فَتَارَةً يَقُولُونَ: رَأَيْنَا غَبَرَةً.

فَيَخَافُونَ أَنْ تَكُونَ مِنَ التَّتَرِ، وَيَتَعَجَّبُونَ مِنْ خَبَرِ الْجَيْشِ مَعَ كَثْرَتِهِمْ، وَجَوْدَةِ عُدَّتِهِمْ أَيْنَ ذَهَبُوا! وَلَا يَدْرُونَ مَا فَعَلَ اللهُ بِهِمْ، فَانْقَطَعَتِ الْآمَالُ، وَأَلَحَّ النَّاسُ فِي الدُّعَاءِ وَالِابْتِهَالِ، وَفِي الصَّلَوَاتِ، وَفِي كُلِّ حَالٍ، وَذَلِكَ يَوْمُ الْخَمِيسِ التَّاسِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَعْبَانَ، وَكَانَ النَّاسُ فِي خَوْفٍ وَرُعْبٍ لَا يُعَبَّرُ عَنْهُ، لَكِنْ كَانَ الْفَرَجُ مِنْ ذَلِكَ قَرِيبًا، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ، كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي رَزِينٍ: «**عَجِبَ رَبُّكَ مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ، وَقُرْبِ غِيَرِهِ، يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ أَزِلِينَ قَنِطِينَ، فَيَظَلُّ يَضْحَكُ، يَعْلَمُ أَنَّ فَرَجَكُمْ قَرِيبٌ**» .

فَلَمَّا كَانَ آخِرُ هَذَا الْيَوْمِ وَصَلَ الْأَمِيرُ فَخْرُ الدِّينِ أَيَاسٌ الْمَرْقَبِيُّ أَحَدُ أُمَرَاءِ دِمَشْقَ، فَبَشَّرَ النَّاسَ بِخَيْرٍ، وَهُوَ أَنَّ السُّلْطَانَ قَدْ وَصَلَ وَقَدِ اجْتَمَعَتِ الْعَسَاكِرُ الْمِصْرِيَّةُ وَالشَّامِيَّةُ، وَقَدْ أَرْسَلَنِي أَكْشِفُ هَلْ طَرَقَ الْبَلَدَ أَحَدٌ مِنَ التَّتَرِ؟ فَوَجَدَ الْأَمْرَ كَمَا يُحِبُّ، لَمْ يَطْرُقْهَا أَحَدٌ مِنْهُمْ وَذَلِكَ أَنَّ التَّتَارَ عَرَجُوا عَنْ دِمَشْقَ إِلَى نَاحِيَةِ الْعَسَاكِرِ الْمِصْرِيَّةِ، وَلَمْ يَشْتَغِلُوا بِالْبَلَدِ، بَلْ قَالُوا: إِنْ غَلَبْنَا فَالْبَلَدُ لَنَا، وَإِنْ غَلَبْنَا فَلَا حَاجَةَ لَنَا بِهِ. وَنُودِيَ فِي الْبَلَدِ بِتَطْيِيبِ الْخَوَاطِرِ، وَأَنَّ السُّلْطَانَ قَدْ وَصَلَ، فَاطْمَأَنَّ النَّاسُ، وَسَكَنَتْ قُلُوبُهُمْ، وَثَبَتَ الشَّهْرُ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ عَلَى الْقَاضِي تَقِيِّ الدِّينِ الْحَنْبَلِيِّ، فَإِنَّ السَّمَاءَ كَانَتْ مُغَيِّمَةً، فَعُلِّقَتِ الْقَنَادِيلُ، وَصُلِّيَتِ التَّرَاوِيحُ، وَاسْتَبْشَرَ النَّاسُ بِشَهْرِ رَمَضَانَ وَبَرَكَتِهِ، وَأَصْبَحَ النَّاسُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فِي

هَمٌّ شَدِيدٍ، وَخَوْفٍ أَكِيدٍ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ مَا خَبَرُ النَّاسِ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَ الْأَمِيرُ سَيْفُ الدِّينِ غُرْلُو الْعَادِلِيُّ، فَاجْتَمَعَ بِنَائِبِ الْقَلْعَةِ، ثُمَّ عَادَ سَرِيعًا وَلَمْ يَدْرِ أَحَدٌ مَا أَخْبَرَ بِهِ، وَوَقَعَ النَّاسُ فِي الْأَرَاجِيفِ وَالْخَوْضِ.

[وَقْعَةُ شَقْحَبٍ]

أَصْبَحَ النَّاسُ يَوْمَ السَّبْتِ عَلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ شِدَّةِ الْحَالِ، وَضِيقِ الْأَمْرِ، فَرَأَوْا مِنَ الْمَآذِنِ سَوَادًا وَغَبَرَةً مِنْ نَاحِيَةِ الْعَسْكَرِ وَالْعَدُوِّ، فَغَلَبَ عَلَى الظُّنُونِ أَنَّ الْوَقْعَةَ فِي هَذَا الْيَوْمِ، فَابْتَهَلُوا إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالدُّعَاءِ فِي الْجَامِعِ وَالْبَلَدِ، وَطَلَعَ النِّسَاءُ وَالصِّغَارُ عَلَى الْأَسْطِحَةِ، وَكَشَفُوا رُءُوسَهُمْ، وَضَجَّ الْبَلَدُ ضَجَّةً عَظِيمَةً، وَوَقَعَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ مَطَرٌ عَظِيمٌ غَزِيرٌ، ثُمَّ سَكَنَ النَّاسُ، فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ الظُّهْرِ، قُرِئَتْ بِطَاقَةٌ بِالْجَامِعِ تَتَضَمَّنُ: أَنَّ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ مِنْ نَهَارِ السَّبْتِ هَذَا اجْتَمَعَتِ الْجُيُوشُ الشَّامِيَّةُ وَالْمِصْرِيَّةُ مَعَ السُّلْطَانِ فِي مَرْجِ الصُّفَّرِ، وَفِيهَا طَلَبُ الدُّعَاءِ مِنَ النَّاسِ، وَالْأَمْرُ بِحِفْظِ الْقَلْعَةِ، وَالتَّحَرُّزِ عَلَى الْأَسْوَارِ، فَدَعَا النَّاسُ فِي الْمَآذِنِ وَالْبَلَدِ، وَانْقَضَى النَّهَارُ، وَكَانَ يَوْمًا مُزْعِجًا هَائِلًا.

وَأَصْبَحَ النَّاسُ يَوْمَ الْأَحَدِ يَتَحَدَّثُونَ بِكَسْرِ التَّتَرِ، وَخَرَجَ نَاسٌ إِلَى نَاحِيَةِ الْكُسْوَةِ، فَرَجَعُوا وَمَعَهُمْ شَيْءٌ مِنَ الْمَكَاسِبِ، وَرُءُوسِ التَّتَرِ، وَصَارَتْ أَدِلَّةُ كَسْرَةِ التَّتَرِ تَقْوَى وَتَتَزَايَدُ قَلِيلًا، حَتَّى اتَّضَحَتْ جُمْلَةً، وَلَكِنَّ النَّاسَ لِمَا عِنْدَهُمْ مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ، وَكَثْرَةِ التَّتَرِ لَا يُصَدِّقُونَ، فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ الظُّهْرِ، قُرِئَ كِتَابُ

السُّلْطَانِ إِلَى مُتَوَلِّي الْقَلْعَةِ يُخْبِرُ فِيهِ بِاجْتِمَاعِ الْجَيْشِ ظُهْرَ يَوْمِ السَّبْتِ بِشَقْحَبٍ وَبِالْكُسْوَةِ، ثُمَّ جَاءَتْ بِطَاقَةٌ بَعْدَ الْعَصْرِ مِنْ نَائِبِ السُّلْطَانِ جَمَالِ الدِّينِ آقُوشَ الْأَفْرَمِ إِلَى نَائِبِ الْقَلْعَةِ، مَضْمُونُهَا أَنَّ الْوَقْعَةَ كَانَتْ مِنَ الْعَصْرِ يَوْمَ السَّبْتِ إِلَى السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ مِنْ يَوْمِ الْأَحَدِ، وَأَنَّ السَّيْفَ كَانَ يَعْمَلُ فِي رِقَابِ التَّتَرِ لَيْلًا وَنَهَارًا، وَأَنَّهُمْ هَرَبُوا وَفَرُّوا، وَاعْتَصَمُوا بِالْجِبَالِ وَالتِّلَالِ، وَأَنَّهُ لَمْ يَسْلَمْ مِنْهُمْ إِلَّا الْقَلِيلُ، فَأَمْسَى النَّاسُ وَقَدِ اسْتَقَرَّتْ خَوَاطِرُهُمْ، وَتَبَاشَرُوا بِهَذَا الْفَتْحِ الْعَظِيمِ وَالنَّصْرِ الْمُبَارَكِ، وَدَقَّتِ الْبَشَائِرُ بِالْقَلْعَةِ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ الْمَذْكُورِ، وَنُودِيَ بَعْدَ الظُّهْرِ بِإِخْرَاجِ الْجُفَّالِ مِنَ الْقَلْعَةِ لِأَجْلِ نُزُولِ السُّلْطَانِ، فَشَرَعُوا فِي الْخُرُوجِ.

وَفِي يَوْمِ الِاثْنَيْنِ رَابِعِ الشَّهْرِ رَجَعَ النَّاسُ مِنَ الْكُسْوَةِ إِلَى دِمَشْقَ فَبَشَّرُوا النَّاسَ بِالنَّصْرِ. وَفِيهِ دَخَلَ الشَّيْخُ تَقِيُّ الدِّينِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ الْبَلَدَ وَمَعَهُ أَصْحَابُهُ، مِنَ الْجِهَادِ، فَفَرِحَ النَّاسُ بِهِ، وَدَعَوْا لَهُ، وَهَنَّئُوهُ بِمَا يَسَّرَ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ مِنَ الْخَيْرِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ نَدَبَهُ الْعَسْكَرُ الشَّامِيُّ أَنْ يَسِيرَ إِلَى السُّلْطَانِ يَسْتَحِثُّهُ عَلَى السَّيْرِ إِلَى دِمَشْقَ، فَسَارَ إِلَيْهِ، فَحَثَّهُ عَلَى الْمَجِيءِ إِلَى دِمَشْقَ بَعْدَ أَنْ كَادَ يَرْجِعُ إِلَى مِصْرَ، فَجَاءَ هُوَ وَإِيَّاهُ جَمِيعًا، فَسَأَلَهُ السُّلْطَانُ أَنْ يَقِفَ مَعَهُ فِي مَعْرَكَةِ الْقِتَالِ، فَقَالَ لَهُ الشَّيْخُ: السُّنَّةُ أَنْ يَقِفَ الرَّجُلُ تَحْتَ رَايَةِ قَوْمِهِ، وَنَحْنُ مِنْ جَيْشِ الشَّامِ لَا نَقِفُ إِلَّا مَعَهُمْ، وَحَرَّضَ السُّلْطَانَ عَلَى الْقِتَالِ، وَبَشَّرَهُ بِالنَّصْرِ، وَجَعَلَ يَحْلِفُ لَهُ بِاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ: إِنَّكُمْ مَنْصُورُونَ عَلَيْهِمْ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ، فَيَقُولُ لَهُ الْأُمَرَاءُ: قُلْ إِنْ شَاءَ اللهُ، فَيَقُولُ: إِنْ شَاءَ اللهُ تَحْقِيقًا لَا تَعْلِيقًا، وَأَفْتَى النَّاسَ بِالْفِطْرِ مُدَّةَ قِتَالِهِمْ، وَأَفْطَرَ هُوَ أَيْضًا،

وَكَانَ يَدُورُ عَلَى الْأَطْلَابِ وَالْأُمَرَاءِ فَيَأْكُلُ مِنْ شَيْءٍ مَعَهُ فِي يَدِهِ، لِيُعْلِمَهُمْ أَنَّ إِفْطَارَهُمْ لِيَتَقَوَّوْا عَلَى الْقِتَالِ أَفْضَلُ، فَيَأْكُلُ النَّاسُ، وَكَانَ يَتَأَوَّلُ فِي الشَّامِيِّينَ قَوْلَهُ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «**إِنَّكُمْ مُلَاقُو الْعَدُوِّ غَدًا، وَالْفِطْرُ أَقْوَى لَكُمْ**» فَعَزَمَ عَلَيْهِمْ فِي الْفِطْرِ عَامَ الْفَتْحِ كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، وَكَانَ الْخَلِيفَةُ أَبُو الرَّبِيعِ سُلَيْمَانُ فِي صُحْبَةِ السُّلْطَانِ، وَلَمَّا اصْطَفَّتِ الْعَسَاكِرُ، وَالْتَحَمَ الْقِتَالُ ثَبَتَ السُّلْطَانُ ثَبَاتًا عَظِيمًا، وَأَمَرَ بِجَوَادِهِ فَقُيِّدَ حَتَّى لَا يَهْرَبَ، وَبَايَعَ اللهَ تَعَالَى فِي ذَلِكَ الْمَوْقِفِ، وَجَرَتْ خُطُوبٌ عَظِيمَةٌ، وَقُتِلَ جَمَاعَةٌ مِنْ سَادَاتِ الْأُمَرَاءِ يَوْمَئِذٍ، مِنْهُمُ الْأَمِيرُ حُسَامُ الدِّينِ لَاجِنُ الرُّومِيُّ أُسْتَادَارُ السُّلْطَانِ، وَثَمَانِيَةٌ مِنَ الْمُقَدَّمِينَ مَعَهُ، وَصَلَاحُ الدِّينِ بْنُ الْمَلِكِ الْكَامِلِ بْنِ السَّعِيدِ بْنِ الصَّالِحِ إِسْمَاعِيلَ، وَخَلْقٌ مِنْ كِبَارِ الْأُمَرَاءِ، ثُمَّ نَزَلَ النَّصْرُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ قَرِيبَ الْعَصْرِ يَوْمَئِذٍ، وَاسْتَظْهَرَ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِمْ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

فَلَمَّا جَاءَ اللَّيْلُ لَجَأَ التَّتَرُ إِلَى اقْتِحَامِ التُّلُولِ وَالْجِبَالِ وَالْآكَامِ، فَأَحَاطَ بِهِمُ الْمُسْلِمُونَ يَحْرُسُونَهُمْ مِنَ الْهَرَبِ، وَيَرْمُونَهُمْ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ إِلَى وَقْتِ الْفَجْرِ، فَقَتَلُوا مِنْهُمْ مَا لَا يَعْلَمُ عَدَدَهُ إِلَّا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَجَعَلُوا يَجِيئُونَ بِهِمْ فِي الْحِبَالِ، فَتُضْرَبُ أَعْنَاقُهُمْ، ثُمَّ اقْتَحَمَ مِنْهُمْ جَمَاعَةٌ الْهَزِيمَةَ، فَنَجَا مِنْهُمْ قَلِيلٌ، ثُمَّ كَانُوا يَتَسَاقَطُونَ فِي الْأَوْدِيَةِ وَالْمَهَالِكِ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ غَرِقَ مِنْهُمْ جَمَاعَةٌ فِي الْفُرَاتِ

بِسَبَبِ الظَّلَامِ، وَكَشَفَ اللهُ بِذَلِكَ عَنِ الْمُسْلِمِينَ غُمَّةً عَظِيمَةً شَدِيدَةً، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

وَدَخَلَ السُّلْطَانُ إِلَى دِمَشْقَ يَوْمَ الثُّلَاثَاءِ خَامِسِ رَمَضَانَ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ الْخَلِيفَةُ، وَزُيِّنَتِ الْبَلَدُ، وَفَرِحَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ الْجُمُعَةِ وَالسَّبْتِ وَالْأَحَدِ، فَنَزَلَ السُّلْطَانُ فِي الْقَصْرِ الْأَبْلَقِ وَالْمَيْدَانِ، ثُمَّ إِنَّهُ تَحَوَّلَ إِلَى الْقَلْعَةِ يَوْمَ الْخَمِيسِ، وَصَلَّى بِهَا الْجُمُعَةَ، وَخَلَعَ عَلَى نُوَّابِ الْبِلَادِ، وَأَمَرَهُمْ بِالرُّجُوعِ إِلَى بِلَادِهِمْ، وَاسْتَقَرَّتِ الْخَوَاطِرُ، وَذَهَبَ الْيَأْسُ، وَطَابَتْ قُلُوبُ النَّاسِ... ثُمَّ عَادَ السُّلْطَانُ إِلَى الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ يَوْمَ الثُّلَاثَاءِ ثَالِثِ شَوَّالٍ بَعْدَ أَنْ صَامَ رَمَضَانَ، وَعَيَّدَ بِدِمَشْقَ".اهـ

حال مسلمي التتار بعد وقعة شقحب

في سنة ثلاث وسبعمائة، وبعد معركة مرج الصفر- شقحب- بسنة واحدة مات قازان سلطان مسلمي التتار في بلاد العراق وبلاد المشرق، وأوصى بالملك بعده لأخيه (**خَرْبَنْدَا**)، ومعنى هذا الاسم عبد الحمار، واختلفوا في سبب تسمية أبيه له بهذا الاسم، وكان خربندا من جملة من دخل في الإسلام حين أسلم أخوه قازان، ثم إنه كره هذا الاسم وحول اسمه إلى (**خُدَابَنْدَا**)، وهو اسم تتري أيضًا، ومعناه بالعربية (**عبد الله**)، واستمر الحال هادئا والحروب متوقفة، وكل في ملكه وسلطانه.

وقعة كيلان

حتى كان سنة سبع وسبعمائة، حيث قام ملك التتار بإرسال جيش لقتال أهل (**كِيلَانْ**)، وهي تقع حاليا شمال غرب إيران، فكانت الدائرة على جيشه رغم تفوق عددهم وعدتهم.

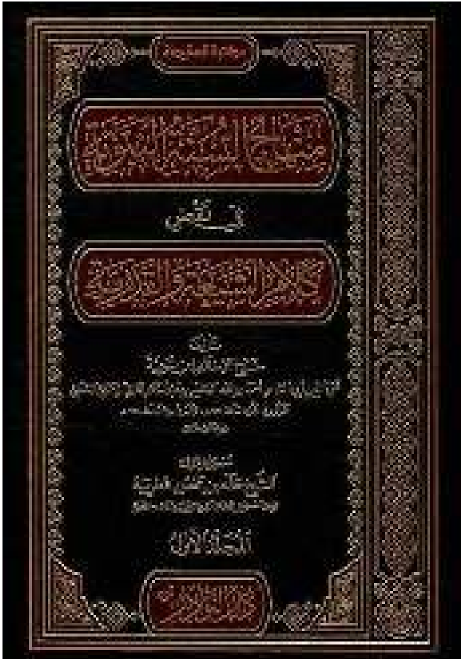
قال ابن كثير رحمه الله: "وَفِي الْمُحَرَّمِ وَقَعَتِ الْحَرْبُ بَيْنَ التَّتَرِ وَبَيْنَ أَهْلِ كِيلَانَ وَذَلِكَ أَنَّ مَلِكَ التَّتَرِ طَلَبَ مِنْهُمْ أَنْ يَجْعَلُوا فِي بِلَادِهِمْ طَرِيقًا إِلَى عَسْكَرِهِ، فَامْتَنَعُوا مِنْ ذَلِكَ، فَأَرْسَلَ مَلِكُ التَّتَرِ خَرْبَنْدَا جَيْشًا كَثِيفًا سِتِّينَ أَلْفًا مِنَ الْمُقَاتِلَةِ أَرْبَعِينَ أَلْفًا مَعَ قُطْلُوشَاهْ، وَعِشْرِينَ أَلْفًا مَعَ جُوبَانَ، فَأَمْهَلَهُمْ أَهْلُ كِيلَانَ حَتَّى تَوَسَّطُوا بِلَادَهُمْ، ثُمَّ أَرْسَلُوا عَلَيْهِمْ خَلِيجًا مِنَ الْبَحْرِ، وَرَمَوْهُمْ بِالنِّفْطِ، فَغَرِقَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ، وَاحْتَرَقَ آخَرُونَ، وَقَتَلُوا بِأَيْدِيهِمْ طَائِفَةً كَثِيرَةً، فَلَمْ يُفْلِتْ مِنْهُمْ إِلَّا الْقَلِيلُ، وَكَانَ فِي مَنْ قُتِلَ أَمِيرُ التَّتَرِ الْكَبِيرُ قُطْلُوشَاهْ، فَاشْتَدَّ غَضَبُ خَرْبَنْدَا عَلَى أَهْلِ كِيلَانَ، وَلَكِنَّهُ فَرِحَ بِقَتْلِ قُطْلُوشَاهْ فَإِنَّهُ كَانَ يُرِيدُ قَتْلَ خَرْبَنْدَا، فَكُفِيَ أَمْرَهُ، ثُمَّ قُتِلَ بَعْدَهُ بُولَايْ.

ثُمَّ إِنَّ مَلِكَ التَّتَرِ أَرْسَلَ الشَّيْخَ بُرَاقًا الَّذِي قَدِمَ الشَّامَ فِيمَا تَقَدَّمَ إِلَى أَهْلِ كِيلَانَ يُبْلِغُهُمْ عَنْهُ رِسَالَةً، فَقَتَلُوهُ وَأَرَاحُوا النَّاسَ مِنْهُ. وَبِلَادُهُمْ مِنْ أَحْصَنِ الْبِلَادِ وَأَطْيَبِهَا، لَا تُسْتَطَاعُ، وَهُمْ أَهْلُ سُنَّةٍ، وَأَكْثَرُهُمْ حَنَابِلَةٌ، لَا يَسْتَطِيعُ مُبْتَدِعٌ أَنْ يَسْكُنَ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ".اهـ

تشيع ملك التتار

ولما كانت سنة تسع وسبعمائة بعد أن تولى (**خُدَابَنْدَا**) الملك بست سنوات تقرب منه بعض الشيعة من أهل الرفض في بلاد العراق، فلم يزالوا به حتى قربهم، وصار بعض كبار الرافضة من ألصق الناس به، وزينوا له مذهب الرافضة، فاعتنق مذهب الرافضة في هذه السنة سنة تسع وسبعمائة، وذكر ابن كثير بأنه لم يقم على السنة سوى سنة، ثم تحول إلى الرفض، وأعلن المذهب الاثني عشري مذهبا رسميا للبلاد التي يحكمها، والله المستعان .

وانتشر الرفض وسُب الصحابة علانية، وعم البلاء بسبب ذلك، وعاش أهل السنة في شدة شديدة في تلك البلاد، وظهر الرفض بقوة، وكان من جملة من يخالطه أحد كبار الرافضة الأنجاس رجل يقال له: (**ابن المطهر الحِلِّي**) الذي كان يسميه ابن تيمية بابن المنجس، وهو الذي ألف كتاب: (**منهاج الولاية**) لهذا الملك، وهو كتاب مليء بالشبه التي أراد بها التلبيس على هذا الرجل، وتشويه مذهب أهل السنة، والإشادة والترويج لمذهب الرافضة الرديء، وقد رد عليه شيخ الإسلام برد حافل في تسعة مجلدات سماه



(منهاج السنة النبوية) كان بمثابة رصاصة قاتلة، وحكم بالإعدام على رسالة ابن المطهر الرافضي.

وقد قام ملك التتار بعد أن صار رافضيا بمحاولة التسلط على بعض أملاك سلطنة المماليك، فهجم على **(الرَّحْبَة)**، وهي بين الشام والعراق، فلما رأى المسلمون هناك أن السلطان بعيد عنهم ومن يالصعب أن ينجدهم في الوقت المناسب اتفق وجهاء البلد على أن يسايسوه، ويعطوه بعض الهدايا ليكف عنهم، فخرج إليه قاضي البلدة وبعض الفقهاء، ومعهم هدية سنية، وطلبوا منه العفو، وأن يكونوا في طاعته وألا يدخل البلد ولا يفسدها، فقبل ذلك منهم ورجع إلى بغداد .

ثم أهلكه الله جل وعلا في سنة ستة عشر وسبعمائة قال ابن كثير: "وَقَدْ جَرَتْ فِي أَيَّامِهِ فِتَنٌ كِبَارٌ، وَمَصَائِبُ عِظَامٌ، فَأَرَاحَ اللهُ مِنْهُ الْعِبَادَ وَالْبِلَادَ".

ثم إنه قبل موته أوصى بالملك بعده لابنه **(أبي سعيد)**، وكان أبو سعيد طفلا صغيرا في الحادية عشر من عمره حين مات والده، وجعل مربيه والقائم بأمور المملكة حتى يكبر أحد الأمراء الكبار رجل يقال له: **(جوبان)**، فلما شب الملك أبو سعيد كان في بادئ أمره منشغل باللهو واللعب، فلما صلح حاله، وألهمه الله الرشد، واستقام أمره أقام العدل ونبذ الرفض وأقام السنة.

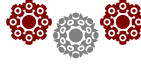
قال ابن كثير: "وَأَخَذَ أَهْلَ دَوْلَتِهِ بِالْمُصَادَرَةِ، وَقَتْلِ الْأَعْيَانِ مِمَّنِ اتَّهَمَهُمْ بِقَتْلِ أَبِيهِ مَسْمُومًا، وَلَعِبَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ بِهِ فِي أَوَّلِ دَوْلَتِهِ، ثُمَّ عَدَلَ إِلَى الْعَدْلِ وَإِقَامَةِ السُّنَّةِ، فَأَمَرَ بِإِعَادَةِ الْخُطْبَةِ بِالتَّرَضِّي عَنِ الشَّيْخَيْنِ أَوَّلًا، ثُمَّ عُثْمَانَ، ثُمَّ عَلِيٍّ - رِضَى اللهِ عَنْهُمْ - فَفَرِحَ النَّاسُ بِذَلِكَ، وَسَكَنَتْ بِذَلِكَ الْفِتَنُ وَالشُّرُورُ وَالْقِتَالُ الَّذِي كَانَ بَيْنَ أَهْلِ تِلْكَ الْبِلَادِ بِهَرَاةَ، وَأَصْبَهَانَ، وَبَغْدَادَ، وِإِرْبِلَ، وَسَاوَةَ، وَغَيْرِ ذَلِكَ ".

قلت: وكان من خيار ملوك التتار، وهو خاتمة خيارهم صلاحًا، وحسن سيرة، وأقام الدين والملة، وأقام السنة وبنى المدارس، وسعى جاهداً في نشر الدين، وتثبيت دعائم الإسلام في البلاد التي يحكمها رحمه الله تعالى.

ثم إنه أرسل بعد ذلك بسنة من توليه في سنة سبعة عشرة وسبعمائة إلى سلطاني الشام ومصر يطلب الصلح والهدنة، وأن يتوقف القتال بينهم وأن تتوحد الجهود ضد الصليبيين الذين يغيرون على بلاد الإسلام، واجتمعت كلمة المسلمين، وإن كان كل سلطان في بلده، لكن توقفت الحروب والقتال بين أهل الشام ومصر، وبين أهل العراق، وانتهت الفتنة بين سلاطين هذه البلاد.

واستمر الحال على هذا إلى سنة ستة وثلاثين وسبعمائة للهجرة، وهي السنة التي تُوفي فيها السلطان (**أبو سعيد**) رحمه الله تعالى، وقد خلف مآثر حسنة في قريب من عشرين سنة من ولايته رحمه الله.

واضطرب أمر التتار بعد موته، فاختلفت التتار وتنازع الأمراء على الملك كلما قام ملك نازعه آخر، فضعف أمرهم بسبب ذلك، ولا سيما أن هذا التنازع وهذه الفوضى استمرت قرابة خمسة وثلاثين سنة، ولم يستقر لهم قرار وإن استمرت دولتهم، لكنها في تنازع بين الأمراء والملوك من الأخوة وأولاد العم، فحصل الوهن والضعف، وهذه سنة الله كما قال الله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال:٤٦].



سقوط دولة التتار الإِيلْخَانِيَّةُ


راية الدولة الإيلخَانِيّة

تعرضت **(الدولة الإِيلْخَانِيَّةُ)** -عقب وفاة السلطان **(أبي سعيد بهادر)** -للضعف والزوال، حيث كان السلاطين الذين اعتلوا عرش هذه الدولة بعد **«أبي سعيد»** ضعاف الشخصية، كما كانوا ألعوبة في أيدى الأمراء المغول وكبار رجال الدولة، وظل هذا الحال حتى وفاة **(أنوشيروان)** آخر السلاطين الإيلخانيين في سنة **(٧٥٦هـ)**، فتقاسم خمسة من كبار الأمراء المغول أملاك هذه الدولة، وكون كل منهم دولة صغيرة مستقلة وهي:

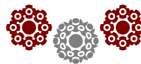
١- دولة آل جلائر **(الجلائريون)**.

٢- دولة الجوبانيين.

٣- دولة آل المظفر.

٤- دولة السربداريون.

٥- دولة آل كرت.



صعود تيمورلنك


راية الدولة التيمورية

وأخذت هذه الدويلات الخمس تتنازع فيما بينها، ودخلت كل منها في حروب طاحنة مع غيرها، وظلت على ذلك حتى خرج عليها الأمير (**تَيْمُورْلَنْك**) الذي ينتمي إلى قبيلة البالاس التركية، وكان أميرا على بعض البلاد من قبل ملوك التتار، ثم تمرد عليهم سنة واحد سبعين وسبعمائة عندما علم أنهم يريدون قتله، ثم لم يزل أمره في ظهور حتى سقطت دولتهم على يده، وتمكن من القضاء علي دويلاتهم المتفرقة نهائيا بحملاته المتعددة التى بدأها فى سنة (٧٨٨هـ) على إيران والعراق.

فلما سقطت دولة التتار على يد تيمورلنك، أسرع جانب من المغول الذين كانوا يقيمون فى (**إيران**) إلى الاندماج فى العناصر التركية التى تعيش فى تلك البلاد، بينما اندمج جانب آخر منهم فى الإيرانيين الفرس الذين يعيشون بينهم، وذابوا فيهم، وهكذا سقطت (**الدولة الإِيلْخَانِيَّةُ**) على أيدى أمرائها.

وجعل (**تيمور**) في سنة سبعمائة وسبعة وثمانين من سمرقند عاصمة له، وانتهت بذلك دولة التتار المغول من أحفاد جنكيز خان، وصارت


الدولة التيمورية

البلاد في ملك الدولة التيمورية نسبة إلى مؤسسها تيمورلنك ومعناه: الحديد، وهو وإن كان يدعي الإسلام إلا أنه كان رافضياً خبيثًا، وقد أفسد في بلاد العراق وخراسان والشام فساداً عظيمًا، حتى أهلكه الله سنة سبع وثمانمائة.

فانتهت هذه الحقبة الزمنية من عصر التتار من أول خروجهم سنة ستمائة وسبعة عشر(٦١٧هـ)، إلى أن انتهت دولتهم في سنة واحد وسبعين وسبعمائة(٧٧١هـ)، فكان مدة ملكهم مئة وأربع وخمسين سنة بما فيها من خير وشر، وما حصل فيها من ألم وأمل، وما وقع أثناءها من الحسرة والعبرة.

وكم في التاريخ من عبر، ولا بد أخي الكريم أن تعلم أن قراءة التاريخ وسماعة ليس مجرد متعة سماع، أو متعة ثقافة عامة، بل لا بد أن يكون القصد العبرة والعظة، وأن ننظر في تدبير الله سبحانه وتعالى أمره في عباده، وفي تسيير الله تعالى لخلقه، ونستفيد حكماً عظيمة من تغير هذه الأحداث، ونتعرف من

خلال هذه الأحداث، وما مر المسلمون به من قوة وضعف وعزة وذلة على أسباب النصر وأسباب العزة فنعمل بها، وأسباب الضعف وأسباب الذلة والهوان فنحذرها، فإن هذا هو بيت القصيد أن نعتبر ونتعظ، كما قال ربنا سبحانه: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ﴾ [يوسف:١١١].

فالله أسأل أن ينفعني وإياكم بهذه المجالس، وأن يجعل لنا فيها العظة والعبرة، وأن يجعلنا يستمعون القول، فيتبعون أحسنه، وأن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح، سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

تم المقصود

والحمد لله رب العالمين الذي بنعمته تتم الصالحات

وَكُتُبُهُ رَاجِي عَفْوَ رَبِّهِ أَبُو حُذَيْفَةَ

زَكَرِيَّا بِنْ حُمَيْدٍ بْنْ فَهَّادٍ اَلصَّلَاحِيِّ اَلْحُبَيْشِيِّ

غَفَرَ اَللهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ

اليمن- ساحل حضرموت- قصيعر- مسجد عمر بن الخطاب

وتمت المراجعة بعد عصر الثلاثاء لسبع بقين من ذي الحجة لعام١٤٤٧هـ

مصر- أسيوط- ميدان البنوك



قائمة أهم المراجع:

١- القرآن الكريم

٢- صحيح البخاري

٣- صحيح مسلم

٤- مسند أحمد

٥- كتب الألباني

٦- تفسير ابن كثير

٧- تاريخ الطبري

٨- الكامل في التاريخ لابن الأثير

٩- تاريخ الإسلام للذهبي

١٠-البداية والنهاية

١١-موسوعة التاريخ الإسلامي-الدرر السنية-

١٢-موجز التاريخ الإسلامي

١٣-المغول بين الانتشاروالإنكسار

١٤-معجم البلدان

١٥-موقع ويكيبيديا -لتحديد مواقع البلدان حاليا-

المحتويات

صدر للمؤلف أيضاً





دار الإمام الشافعي
للطباعة والنشر والتوزيع
اليمن - عدن

عدن - الشيخ عثمان جولة القاهرة - خلف فندق الريان
+٩٦٧ ٧٣٦٩٠١٨٢٤ - +٩٦٧ ٧٧٤٤٢٧٥٧٢
عدن - الشيخ عثمان جولة القاهرة - خلف محطة النهدي
+٩٦٧٧٧٠٠١٢٥٢٢
حضرموت الحامي - جوار مسجد النور - الشارع الشرقي من الثاني
+٩٦٧ ٧٧٧٣٤٩٥٢٣ - +٩٦٧ ٠٥٣٤١٥٩٨
alshafibooks@gmail.com